

جون ماكوورتر

خدعة اللغة

لمَ يبدو العالم متماثلاً في كل لغة؟

ترجمة: عقيل بن حامد الزماي الشمري

خدعة اللغة

لمَ يبدو العالم متماثلاً في كل لغة؟

جون ماكوورتر

ترجمة

عقيل بن حامد الزماي الشمري



الطبعة الأولى

٢٠٢٠

خدعة اللغة

لَمَ يبدو العالم متماثلاً في كل لغة ؟

جون ماكوورتر

ⓒشركة دار تشكيل للنشر والتوزيع ، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماكوورتر ، جون
خدعة اللغة. / جون ماكوورتر ؛ عقيل الشمري .- الرياض ،
١٤٤١هـ

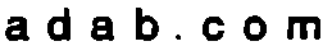
٣٨٨ ص ؛ ..سم

ردمك: ٦-٠٠-٨٣١٧-٦٠٣-٩٧٨

١- اللغويات ٢- الصوتيات و المرئيات أ.الشمري ، عقيل (مترجم)
ب.العنوان

ديوي ٤١٠ ١٤٤١/١٢٨٥٨

رقم الإيداع: ١٤٤١/١٢٨٥٨
ردمك: ٦-٠٠-٨٣١٧-٦٠٣-٩٧٨





الفهرس

مقدمة المترجم

دوافعي لترجمة هذا الكتاب متعددة، يختلط فيها المعرفي بالشخصي. ومن أهمها أني كما قال الفيلسوف البارز جيري فودر عن نفسه «أكره النسبية». وقد لا يصل الأمر عندي حد الكره، ولكنني أتوجس جدا من النسبية ومن ادعاءاتها، لا سيما فيما يخص طبيعة الإنسان. ولا أعتقد أن النسبية في هذا الجانب خاطئة فحسب، بل ضارة، وتودي بنا في متاهات خطيرة ومضللة. فأنا أعتقد جازما أن الناس أسواء الذوات وأخوة لعلات، وإن اختلفت طرائقهم في المعيشة ورؤية الأشياء لأسباب وعوامل حضارية وثقافية كثيرة ومعقدة. وقد وجدت في هذا الكتاب ما يدعم هذا التوجه على نحو حاسم وجازم، لا سيما في جانب مهم جدا من الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع، وهو جانب علاقة اللغة بالتفكير ومدى تأثيرها فيه وتحديدها له.

ومع ذلك، فلقد كانت تجربتي في ترجمة هذا الكتاب من أصعب ما مر بي من تجارب الترجمة حتى الآن. وتعود هذه الصعوبة إلى ثلاثة أسباب تتعلق بموضوع الكتاب، وأسلوب مؤلفه، وظروف ترجمته. وسأخصص مقدمتي هذه للحديث عن هذه الأسباب الثلاثة على التوالي فيما يلي.

***

أما من ناحية موضوع الكتاب، فالكتاب مخصص لمناقشة ما يسمى بـ «النسبية اللغوية»، أو «فرضية سابير - وورف»، أو كما يسميها المؤلف «الوورفية». وقوام هذا المذهب بتسمياته المختلفة هو أن اللغة التي يتحدثها الناس تؤثر في طريقة تفكيرهم، وكيفية رؤيتهم للعالم، وتحددها على نحو معين مشابه نوعا ما لما في لغاتهم من خصائص وسمات نحوية ومعجمية. وهذا الموضوع شائك، ومعقد جدا لأسباب كثيرة، منها ما يعود إلى تاريخ هذا المذهب نفسه وما مر به من مراحل وتطورات متباينة، ومنها ما يعود إلى طبيعة الموضوع الذي يتناوله هذا المذهب من ناحية ما تتضمنه علاقة اللغة بالتفكير من وجوه وأبعاد مختلفة ومتفاوتة.

ورغم أنه لا يعنينا هنا الدخول في التفاصيل التاريخية لتطورات هذا المذهب، فإنه لا بد من إشارات موجزة في هذا الصدد لوضع الكتاب في سياق التطور العام لفكرة «النسبية اللغوية». وأول ما يمكن الإشارة إليه هنا هو أن بواكير هذه الفكرة وإرهاصاتها قد كانت موجودة منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، لا سيما عند بعض فلاسفة الرومانسية الألمانية (مثل: يوهان هردر وفليلهم فون هومبولت)، وبعض الباحثين في لغات السكان الأصليين في أمريكا من منظور إناسي (مثل: فرانز بواز وإدوارد سابير). غير أن فكرة النسبية اللَغوية قد بلغت ذروتها مع بنيامين لي وورف، فارتبطت باسمه، وعُرِفَت به.

وقد تطرق المؤلف في مواضع متفرقة من كتابه إلى بعض من هذه

الإشارات السابقة على وورف. وبيّن أن بعضها ينطلق من منطلقات عنصرية، كما لدى المؤرخ والكاتب السياسي الألماني هاينرتش فون تريتشكه، رغم أن الاتجاه العام لادعاءات النسبية اللغوية الذي ينتمي إليه وورف نفسه وبعض من سبقوه مناهض للعنصرية ولاستنقاص ما يسمى بـ «الشعوب البدائية» السائد آنذاك. وبغض النظر عن الدوافع والمنطلقات الفكرية المختلفة وراء دعاوى النسبية اللغوية، فإن هذا المذهب القائل بوجود ارتباط خاص بين اللغة والفكر قد اشتهر بنسبته إلى وورف، لأنه كما يُعْتَقَد على نطاق واسع هو الذي منح هذه الفكرة صياغتها العلمية التي أدت إلى شيوعها وانتشارها. وهذا الاعتقاد صحيح من بعض الوجوه، ولكنه خاطئ من وجوه أخرى. أما وجوه صحته فهي أن دعاوى النسبية اللغوية بعد وورف لم تعد على ما كانت عليه قبله، بل اكتسبت زخما كبيرا وانتشارا هائلا. وأما وجوه خطئه فهي أن وورف، بخلاف ما يُعْتَقَد، لم يقدم صياغة علمية لهذه الدعوى.

لقد كان وورف متخصصا في الهندسة الكيميائية، ويعمل مفتشا للإطفاء في إحدى شركات التأمين، بالإضافة إلى اهتمامه باللسانيات من منظور إناسي. وليس في كونه هاويا للسانيات ما يضير لو أن ما قدمه من أفكار وتحليلات كان صحيحا، ولكنه لم يكن كذلك. فلقد كان ما قدمه وورف في هذا الصدد أقرب إلى الادعاءات المرسلة، التي لا تستند إلى شيء سوى الاختلاف الظاهر بين اللغات. فما دامت اللغات مختلفة، فإن متكلميها يفكرون بطرائق مختلفة، والدليل على أنهم يفكرون بطرائق مختلفة، هو أنهم يتكلمون بطرائق مختلفة.

ولا يخفى ما في هذا الاحتجاج من دور منطقي يقوّض الحجة من أساسها. فالدعوى هي نفسها الدليل، ولا يوجد ما يثبت ذلك على نحو مستقل. ويضاف إلى ذلك أن كثيرا من التحليلات اللغوية التي قدّمها وورف لدعم بعض مزاعمه قد كانت خاطئة أصلا، ومن ذلك مثلا تحليله المتعلق بالتعبير عن الزمن في لغة «هوبي»، الذي تبيّن أنه لا صلة له بهذه اللغة أبدا كما أشار المؤلف في ثنايا كلامه عن هذا الموضوع.

وحتى لو أمكن تجاوز التحليلات اللغوية الخاطئة، والتغاضي عن مشكلة الدور المنطقي بالبحث عن سبل مستقلة للتحقق من أثر اللغة في الفكر، فإن أطروحات وورف في هذا الصدد ستظل غامضة ومبهمة وعصيّة على الفحص المعرفي الدقيق، سواء من ناحية الجوانب اللغوية المقصودة، أو من ناحية كيفية تأثيرها في الفكر. أما من ناحية اللغة، فإن تحليلات وورف تتناول جوانب لغوية متباينة. فمنها ما يعود إلى المفردات، ومنها ما يعود إلى السمات النحوية البارزة، في حين أن بعضها من قبيل بعض الجوانب اللغوية الخفية. ومنها ما يعود إلى الأساليب التعبيرية الاختيارية في اللغات، في حين أن بعضها ينتمي إلى السمات اللغوية الإلزامية في لغة دون أخرى. ومنها ما هو اعتباطي بحت، في حين أن بعضها يرتبط بظروف ثقافية وحضارية معينة، وهلم جراً. بيد أن وورف لم يكن يميّز، بل كان يسوق هذا الظواهر المختلفة كلها مساقا واحدا، ثم يبني عليها ما يحلو له من انطباعات بشأن علاقة اللغة بالفكر. وعلاوة على أن «الفكر» لم يكن له أي مفهوم محدد في

الزمن الذي كان يكتب فيه وورف، مما أدى إلى مشكلة الدور المنطقي التي أشرنا إليها أعلاه، فإن وورف لم يكن محددا أيضا في مدى ما تملكه اللغة من تأثير في الفكر بحسب زعمه. فبعض كتاباته توحي بأن اللغة تتحكم بالتفكير تماما مما يجعل بعض الأفكار غير ممكنة أبدا لمن يتحدث لغة معينة، ولكنه في مواضع أخرى يعبر عن رأيه بطريقة أكثر تحرّزا نوعا ما.

ورغم هذا الاضطراب وما يتضمنه من مشكلات كبيرة وأساسية، فإن ادعاءات وورف بشأن أثر اللغة في الفكر قد استحوذت على الكثير من الاهتمام، وكان لها تأثير كبير جدا، سواء داخل اللسانيات أو خارجها، ولكن من منظورين مختلفين تماما. أما خارج اللسانيات، فقد كانت ادعاءات وورف منطلقا لما يسميه مؤلف الكتاب «الوورفية الشعبية»، فاستُقبِلَتْ بالاحتفاء والتهليل، وفَتحتْ الباب على مصراعيه لكافة أنواع الادعاءات من كل حدب وصوب بشأن اللغات المختلفة وأثرها في الطريقة التي يفكر بها متحدثوها. وربما لن نجد أفضل من كلمات أحد الدارسين اللسانيين المؤيدين لشيء من النسبية اللغوية لوصف بعض ما اتخذته الوورفية الشعبية من مسارات. يقول غاي دويتشر في كتابه «عبر منظار اللغة» (انظر: ص 36 من الترجمة العربية بتعديل طفيف جدا):

«لقد وفر هذا الموضوع على نحو تقليدي منصة مثالية لكل من يستمتع بعرض خيالاته من دون خوفٍ أن تقبض عليه شرطة الوقائع. فكما يهجم الذباب على العسل، والفلاسفة على ما لا سبيل إلى

معرفته، اندفع أكثر الدجالين إلهاما، وأكثر الفنانين المخادعين موهبة، ناهيك عن جحافل من غريبي الأطوار المألوفين إلى التشدق بتأثير اللغة الأم في أفكار متحدثيها».

ويقول في موضع آخر أن الوورفية قد اتخذت مسارا مخزيا، وأصبحت ملاذا فكريا خاليا من الضرائب لفلاسفة الغموض، وكتاب الفنتازيا، ودجالي ما بعد الحداثة (انظر: ص 151 من الترجمة العربية). ومن يقف على شيء من تاريخ كثير من الادعاءات التي سيقت تحت لافتة أثر اللغة في الفكر سيجد مصداقا لذلك. والعربية من بين اللغات التي طالها شؤبوب من تلك المخازي التي يشير إليها دويتشر أعلاه. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى. وللاطلاع على بعض النماذج يمكن الرجوع إلى كتاب «محاسن العربية في المرآة الغربية» لديفيد جستس (ترجمة: حمزة المزيني)، الذي تتبع بعضا من الادعاءات المتعلقة بأثر العربية في أفكار متحدثيها فبين ما فيها من تجنٍ وتحيز.

وبغض النظر عن ذلك، فإن مصير ادعاءات وورف داخل الحلقة الضيقة للمتخصصين في اللسانيات والدراسات اللغوية الرصينة قد كان مختلفا جدا. فلقد انصب اهتمام المتخصصين في المرحلة اللاحقة لوورف على التدقيق فيما ساقه من ادعاءات، من الناحيتين النظرية والتجريبية. أما من الناحية النظرية فقد جرى التمييز بين نسخة صارمة أو قوية من الوورفية، تسمى أحيانا «الحتمية اللغوية»، وأخرى مخفّفة أو ضعيفة، احتفظت بالاسم القديم، وهو «النسبية اللغوية». وبحسب النسخة الصارمة فإن اللغة توجب التفكير على نحو معين،

إلى حد يصل إلى إعاقة إمكانية التفكير، ولو مؤقتا، بما لا تتضمنه اللغة. والمعنى أن ما هو قابل للتفكير بالنسبة إلى شخص معين يتوقف على لغته. وكما ذكرنا آنفا، فإن كثيرا من كتابات وورف توحي بتبنيه لهذه النسخة. وأما النسخة الضعيفة فمفادها أن اللغة تؤثر في الفكر بمعنى أن الاختلافات بين اللغات تؤدي إلى اختلافات في أفكار متحدثيها، ولكن على نحو غير مُلْزِم. وكلاهما كانت موضعا للانتقاد والمعارضة. أما النسخة القوية فتحمل أمارات بطلانها في ذاتها. فلو كانت صحيحة لما أمكن لأصحاب هذه الفرضية أنفسهم أن يفهموا كيف يفكر من يتكلمون لغات غير لغاتهم، ولكان من يتكلمون أكثر من لغة يحملون في رؤوسهم رؤى مختلفة للعالم، فضلا عن أن التجارب اللسانية النفسية الدقيقة، التي تجنبت الدور المنطقي في احتجاجات وورف، لم تؤد إلى أي شيء من شأنه أن يدعم هذا الافتراض. فكانت هذه النسخة من الفرضية مرفوضة لدى الغالبية العظمى من المتخصصين.

ولم تكن النسخة الضعيفة أحسن حالا، فهي لم تكن مُرْضية أيضا، ولكن لسبب آخر، وهو الغموض، لا سيما من ناحية تعريف المقصود بـ «الفكر»، وتحديد مدى ما يمكن أن تبلغه اللغة من تأثير في هذا الصدد. فتندرج تحت هذه اللافتة أشياء كثيرة ومتباينة جدا، منها ما هو بديهي، وليس محلا للنزاع، ومنها ما يتجاوز أي إمكانية للتحقق منه على نحو محدد. ولهذا السبب فإن ما يسمى بـ«الوورفية الكلاسيكية»، بنسختيها القوية والضعيفة، لم تكن تعد فرضية علمية بالمعنى الحقيقي للكلمة. وبحلول الثمانينيات كانت تقريبا قد آلت إلى الأفول.

غير أن ذلك لم يطل كثيرا، فسرعان ما تجدد الاهتمام بعلاقة اللغة بالفكر، ولكن هذه المرة من منظور أكثر تحرزا، يتجنب الادعاءات الشاملة بشأن تأثير اللغة على الفكر، ويركز على سمات لغوية بعينها، مع الفحص الدقيق لما قد ينجم عنها أو يصحبها من تأثيرات عرفانية غير لغوية في المستوى الأدنى أو الأولي للفكر كالتذكر والانتباه والإحساس ونحوها. فاجتذب هذا الموضوع عددا متزايدا من الدراسات التي تندرج تحت ما يسميه المؤلف «الوورفية الجديدة». وأدى ذلك إلى إثارة السجال بشأن علاقة اللغة بالفكر من جديد. ولتيسير فهم وجوه الخلاف في الصدد، يمكن على نحو تقريبي تلخيص المعاني المتعددة لتأثير اللغة في الفكر في ثلاثة مستويات.

أما المستوى الأول فهو محل إجماع، ولا ينازع فيه أحد. ومن وجوه تأثير اللغة في الفكر في هذا المستوى ما يلي:

- اللغة تؤثر في الفكر من حيث أنها وسيلة للتواصل ونقل الأفكار. فلولا اللغة لم يتمكن الإنسان من تكوين ما كوّنه من معارف وخبرات استطاع بها السيطرة على الوجود من حوله.
- اللغة تؤثر في الفكر من حيث أنها وسيلة لتأطير الأحداث والوقائع على نحو معين. ومن مظاهر ذلك على سبيل المثال اختلاف طرائق التعبير عن الشيء الواحد بحسب وجهات النظر المختلفة. وهذا ما يعتمد عليه الناس في الإقناع والتضليل ونحوها من أغراض البلاغة والخطاب.

- اللغة تؤثر في الفكر من حيث تقاطعها مع الثقافة، لا سيما فيما يتعلق بتسميات الأشياء التي تُعنى بها فئة معينة، أو مجتمع معين من الناس. ومن مظاهر ذلك أن تسميات الأشياء المتعلقة بجانب معين من جوانب الحياة قد تكثر في مجتمع معين أو لدى فئة معينة لعنايتهم بذلك الجانب واهتمامهم به. ومن ينشأ بينهم أو يشاركهم ذلك الاهتمام سيكتسب ما لديهم من تسميات ومفردات.

بيد أن تأثر الفكر باللغة في هذا المستوى من نوافل القول التي لا تمثل فرضية علمية، ولا تتميز به لغة دون أخرى، بل تشترك فيه اللغات جميعا، وتختلف وجوهه داخل اللغة الواحدة.

وأما المستوى الثاني فيمكن القول إنه من بقايا «الوورفية الكلاسيكية». ويشترك مناوئو النسبية اللغوية وأنصارها في معارضة هذا المستوى من الادعاءات المتعلقة بأثر اللغة في الفكر. بل إن بعض أنصار النسبية اللغوية قد يكونون في بعض المواضع أكثر حدة في استنكاره والتشنيع عليه. ومن وجوه ذلك:

- أن اللغة هي نفسها الفكر، أو هي وسيط الفكر الذي يتحقق من خلاله، ولا وجود لفكر من دون اللغة، إذ هي التي تنشئ ما يمر به الفرد من تجارب وخبرات. وهذا منقوض بوجود الأفكار لدى من يفتقرون إلى اللغة كالحيوانات والرضع وبعض من يعانون شيئا من وجوه القصور اللغوي.

- أن اللغة ليست هي نفسها الفكر. فالفكر له وسيط آخر أكثر تجريدا من اللغة. ولكن اللغة هي التي تشق طريقه، وتجعله يتخذ وجهة معينة، مما يجعل الإنسان غير قادر على تصور أو تمييز ما لا وجود له في لغته. وهذا قريب من الأول، وهو منقوض بقدرة الإنسان الواضحة على توسيع مدركاته، واستحداث مفاهيم جديدة تتجاوز ما هو موجود في اللغة وتضيف إليه.
- أن اللغة ليست نفسها الفكر، وليست زنزانة تحبس المتحدث داخل جدرانها، ولكنها مع ذلك تؤثر في الفكر تأثيرا عميقا ودائما فيما يخص الأنشطة الذهنية المتعلقة بالمستوى المجرد من المعرفة، وإنشاء المفاهيم والتصورات، والنظرة إلى الوجود. وهذا أشبه بادعاءات الوورفية القديمة من ناحية عدم القدرة على تحديده، بالإضافة إلى عدم وجود أي دليل يؤيده.

وبين هذين المستويين يوجد المستوى الذي تشير إليها الدراسات التي تنتمي إلى ما يسميه المؤلف «الوورفية الجديدة». وهذه الدراسات لا تمثل نظرية موحدة ذات ادعاءات محددة فيما يخص أثر اللغة في الفكر أو رؤية العالم وما يشبه ذلك، بل هي أشبه ببرنامج بحثي لدراسة أثر بعض السمات اللغوية المتفرقة في جوانب محددة ومحدودة من المستوى الأولي للعرفان. ومن ذلك، على سبيل المثال، أن يكون للتمييزات المعجمية الإلزامية في لغتك أثر في انتباهك إلى ما تشير إليه

من جوانب، كأن يجعلك وجود كلمتين مختلفتين في لغتك للدلالة على اللونين الأزرق الفاتح والغامق أكثر حساسية تجاه الفرق بينهما ممن لا يوجد في لغته مثل هذا التمييز. ويتفق مؤيدو النسبية اللغوية ومعارضوها في هذا الصدد على أمرين، هما: (1) أن الدراسات التي درست هذه الجوانب تبين وجود أثر للغة في هذا المستوى، و(2) أن هذا الأثر طفيف جدا لا يمكن تبينه إلا في الدراسات التجريبية المصطنعة للغاية. ولكنهم يختلفون في تأويل تلك النتائج وتفسيرها. فأما مؤيدو النسبية اللغوية فيرون أن هذه النتائج ربما تشير إلى ما هو أكبر من ذلك فيما يتعلق بمظاهر التفاعل بين الجوانب اللفظية وغير اللفظية من العرفان، ويأملون أن الأبحاث المستقبلية يمكن أن تؤدي إلى الكشف عن المزيد من النتائج في هذا الصدد. وأما معارضو النسبية اللغوية فيرون أن ما تبيّنه هذه الدراسات هو كل ما هو موجود من أثر للغة في الفكر، ولا يوجد وراء ذلك أي شيء يمكن أن يطمح إليه الإنسان.

ولقد قال الباحث اللساني البارز راي جاكندوف معلقا على نتائج هذه الدراسات والخلاف بشأنها: «صارت أهمية هذه النتائج موضوعا لخلافات كثيرة [بين اللسانين] (ولدي أصدقاء على طرفي [هذا الخلاف])» (انظر: دليل ميسر إلى الفكر والمعنى، ترجمة: حمزة المزيني، ص 142). ومؤلف هذا الكتاب يمثل أحد طرفي هذا الخلاف. وعنوان كتابه «**خدعة اللغة: لم يبدو العالم متماثلا في كل لغة؟**» يحيل إلى كتاب آخر يمثل الطرف الآخر من هذا الخلاف. وهو

كتاب «**عبر منظار اللغات: لم يبدو العالم مختلفا بلغات أخرى؟**» لغاي دويتشر. وقد تُرْجم هذا الكتاب إلى العربية، ونشر عام 2015م، ضمن منشورات سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس للثقافة والفنون والآداب بالكويت، بترجمة حنان عبدالمحسن مظفر.

* * *

هذا هو بإيجاز شديد السياق الفكري العام للكتاب، وموضوعه المعرفي المعقد جدا، ولكن المؤلف لم يقدمه بهذا الأسلوب القائم على التتبع التاريخي لمقولة النسبية اللغوية وما مرت به من تطورات. بل قدمه بأسلوب آخر مختلف جدا. فمؤلف الكتاب من أول جملة يصرح بأن كتابه هذا بمثابة «بيان» أو - بتعبر المؤلف - «مانيفستو»، على نحو يذكّر بالبيانات السياسية أو الأدبية التي تُنْشر لإبداء الرأي في قضية معينة، أو الترويج لفكرة ما، مع التوصية بما يتطلبه ذلك من إجراءات معينة لا بد من اتخاذها بخصوص الموضوع الذي يتحدث عنه البيان. وقد طَبَع ذلك أسلوب المؤلف بطابعه الخاص من نواح عديدة. منها أن الكتاب موجه للجمهور العام من المتخصصين وغيرهم. فلم يُكْتب على النحو المعتاد في كتابة البحوث الأكاديمية. بل كُتِب بأسلوب ذي منزع أدبي متدفق وممتع، ومفعم بالاستعارات والمجازات والتعبيرات الاصطلاحية. وهو من ناحية أخرى كتاب حجاجي لا يقتصر على عرض أفكار معينة بما يدعمها من حجج وأدلة، بل يستهدف في المقام

الأول تفنيد بعض وجهات النظر الشائعة والسائدة عن أثر اللغة في الفكر، من الناحيتين الأكاديمية والسياسية.

أما من الناحية الأكاديمية، فيبين أن الدراسات التي يُزْعم أنها تثبت أن للغة تأثيرا في الفكر هي في حقيقة الأمر ليست كذلك. فهذه الدراسات لا تخلو من أمرين: إما أنها لا تكشف إلا عن أثر ضئيل جدا في مواقف مصطنعة للغاية لا علاقة لها بالحياة التي يعيشها الإنسان في الواقع الاجتماعي، أو أنها تتحدث عن شيء آخر لا شأن له بأثر اللغة في الفكر. ويبين المؤلف كذلك أن المشكلة في كثير من الأحيان ليست في الدراسات نفسها، وإنما فيما يُلصَق بها ويضاف إليها من تأويلات متزيّدة لا يوجد في تلك الدراسات ما يدعمها. ويزداد الطين بلة حينما تلتقط الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى مثل هذه الادعاءات فتعمل على تضخيمها وترويجها بصورة لا علاقة لها أبدا بنتائج البحث العلمي في هذا الصدد. ويرى المؤلف أن بعض الأكاديميين وطريقتهم في صياغة بعض الادعاءات المتصلة بهذا الموضوع من أهم الأسباب التي تؤدي إلى كثير من التصورات الخاطئة. ومن الأمثلة التي يذكرها المؤلف في هذا الصدد المقالة الصحفية التي نشرها غاي دويتشر في صحيفة النيويورك تايمز، بعنوان «هل تشكل لغتك كيفية تفكيرك؟» تمهيدا لنشر كتابه «عبر منظار اللغة». فيشرح أن هذه المقالة تحتوي على عبارات تهويلية لا يوجد أي شيء يؤيدها في النتائج المستقاة من البحث العلمي، من شاكلة أن ألفاظ الألوان في اللغات المختلفة تؤثر على الطريقة التي يرى بها متحدثوها الرسومات الفنية. **وقد قمت**

بترجمة المقالة المقصودة، ونشرتها في موقع أثارة، على الرابط التالي https://atharah.com/does-your-language-shape-how-you-think/. **فقد يكون من المفيد لبعض القراء أن يبدؤوا بقراءة المقالة، ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى قراءة الكتاب، لتبيّن بعض ما يتحدث عنه المؤلف من إشارات.**

وأما من الناحية السياسية، فيبين المؤلف أن الفكرة الوورفية التي تدّعي وجود أثر للغة في الفكر فكرة فاتنة ومغرية، وتتمتع بجاذبية كبيرة لدى كثير من الناس. وقد حاول المؤلف باقتدار أن يشرح بعض أسباب هذه الجاذبية، مع ربطها بالسياق الفكري العام للمجتمعات الغربية المعاصرة. ومن ذلك مثلا الاعتقادُ بأن هذه الفكرة تبين أن المجتمعات غير المتطورة تقنيا، والتي كان يعتقد في مرحلة ما أنها «بدائية» مقارنة بالغربيين، هي في حقيقة الأمر ذات أفكار فاتنة ومعقدة، تضاهي ما لدى الغربيين، أو تتفوق عليهم في كثير من الحالات. فرغم ما يبدو على سطح هذه الفكرة من احتفاء بالتنوع والتعددية والدعوة إلى المساواة، فإنها في العمق تنم عن نزعة استعلائية ومتعجرفة. فالبشر ما داموا يشتركون في البشرية متماثلون، وليسوا بحاجة لأن يُنْعِم عليهم أحد بهذا الاعتراف. بل يوضح المؤلف أن هذه الفكرة سلاح ذو حدين، رغم أن كثيرا من المحتفين بها والمنشغلين بترويجها هم من ذوي النوايا الخيّرة والمقاصد الحسنة. فهي كما يمكن أن تستخدم للاحتفاء بالتنوع والتعددية، يمكن أن تستخدم أيضا لازدراء الشعوب الأخرى والتنقص منها. ويؤيد وجهة نظره هذه بأمثلة واقعية من التاريخ استخُدِمت فيها هذه الفكرة تحديدا لهذا الغرض.

وينقسم الكتاب إلى ستة فصول بالإضافة إلى المقدمة. وتتضمن المقدمة إلماحة عامة عن موضوع الكتاب، وتعريفا بالوورفية الجديدة، مع الإشارة إلى شيء من مقتضياتها واستتباعاتها السياسية. والفصل الأول بعنوان «بيّنت الدراسات». وفيه استعراض موجز لعدد من الدراسات الأكاديمية الحديثة المتعلقة بمسألة أثر اللغة في الفكر. ويبين فيه المؤلف أنه هذا الدراسات - رغم ما تتضمنه من إتقان وبراعة - لا تؤيد شيئا من التأويلات الوورفية التي تقول بأن اللغة تشكل فكر متحدثيها. والفصل الثاني بعنوان «فيها قولان». وكما قد يبدو من عنوانه، فإن هذا الفصل يتعامل مع حركة التفافية يقوم بها بعضهم لإنقاذ الوورفية. فحتى لو لم تكن اللغة تشكل الفكر بطريق أحادي مباشر، فإن اللغة والثقافة يتبادلان التأثير على نحو يجعل اللغة والثقافة متشابهتان، وتؤديان معا إلى تعزيز أنماط فكرية معينة. ويبين أن المؤلف أن هذا لن ينقذ الوورفية، لأنه غير صحيح لسبب بسيط وهو أنه لا توجد أي علاقة بين اللغة والثقافة في المستوى المتعلق بآليات العمل الداخلية للغة، أي نحوها وصرفها. فهذه الجوانب من اللغة تتشكل نتيجة للصدفة المحضة عبر تغير تدريجي تحت مستوى الوعي. ويشرح ذلك من خلال ضرب العديد من الأمثلة التي تبين وجود ظواهر لغوية متباينة في مجتمعات متماثلة لا يمكن إرجاعها إلى عوامل ثقافية.

والفصل الثالث بعنوان «استعادة عرش الثقافة». وهذا الفصل استمرار لما قدمه المؤلف في الفصل الثاني من مناقشة لعلاقة اللغة بالثقافة. والمقصد الأساسي منه تلافي ما قد يطرأ لبعض القراء من

فهم خاطئ بشأن موقف المؤلف من هذه العلاقة. فالمؤلف يؤكد على أنه لا يدعي بحال من الأحوال أن الثقافة لا تؤثر في اللغة. بل تؤثر فيها بوجوه متعددة وطرائق شتى، ليس من بينها ما تدعيه الوورفية من كون البنية اللغوية للغات مماثلة لأحوال متكلميها. ويوضح المؤلف ذلك من خلال عدد وافر من المقارنات اللغوية. والفصل الرابع بعنوان «ازدراء الصينية». وفيه يعود المؤلف لمناقشة بعض الدراسات الوورفية وما تتضمنه من ادعاءات مع التركيز على اللغة الصينية هذه المرة لبيان ما ينجم عن الوورفية من مفارقة وتناقض واستتباعات غير حميدة في كثير من الأحيان. والفصل الخامس بعنوان «ما رؤية العالم من منظور الإنجليزية». وفيه يجعل المؤلف الإنجليزية منطلقا للمقارنة والتحليل اللغوي لكي يوضح للقارئ الذي يشاركه هذه اللغة أن كثيرا من الادعاءات التي تتوسل بالغرائبية والتهويل بشأن لغات أجنبية وبعيدة ستبدو متهافتة جدا حينما تطبق على لغة معروفة ومألوفة. والفصل السادس والأخير بعنوان «احترام الإنسانية». وفيه يلخص المؤلف عددا من المشكلات المتأصلة في الرؤية التي تستند إليها الوورفية بشأن اللغات والبشر. ويوضح أن تماثل البشر هو الأمر العجيب حقا الذي يستحق كل الاحتفاء.

بقي أن أشير إلى أسلوب المؤلف - رغم ما فيه من متعة وطرافة - قد يكون فيه شيء من الصعوبة في بعض المواضع. فجمله أحيانا تكون طويلة جدا، وذات تراكيب معقدة. ومما يتصل بذلك أن المؤلف يكثر من الاعتماد على الكناية والتورية والتلميح في بعض ما يسوقه

من حجج ومناقشات، مما يجعل فهم ما يريده المؤلف من إشارات وإلماحات صعبا على بعض القراء. والذي أعتقده في هذا الصدد أنه ليس من مهمات المترجم أبدا تبسيط أسلوب المؤلف أو تعديله، بل أن ينقل أسلوب المؤلف كما هو بأقصى قدر ممكن. ولكن من مهمات المترجم أن يخدم النص بما يسهل قراءته في التعليقات والهوامش. وهذا ما كنت أتوخاه من إضافة ما يقرب من 400 هامش، أرجو أن تكون قد ساهمت في خدمة النص وتيسير مقروئيته.

ومؤلف الكتاب هو جون مكوورتر، متخصص في المجال المعرفي المتعلق بنشوء اللغات وتغيرها، ويعمل أستاذا للسانيات في جامعة كولومبيا بنيويورك. وقد صدر له العديد من الكتب قبل هذا الكتاب. ومن أشهرها كتاب «قوة بابل» عن تاريخ اللغات والعوامل المؤثرة في تغيرها، وصدر عام 2001م، وكتاب «ما اللغة» عن طبيعة اللغة ونشوئها وما يتعلق بذلك من عوامل تحدد اللغة وتميزها، وصدر عام 2011م. وكلاهما قد حقق نسبة مبيعات عالية، وتأثيرا كبيرا لدى القراء من المتخصصين وغيرهم. ولم يترجم أي منهما إلى العربية فيما أعرف. وكتاب المؤلف الحالي امتداد لاهتمام المؤلف بموضوع اللغة وما فيها من تنوع، من منظور يركز على أثر اللغة في الفكر كما شرحنا آنفا. وللمؤلف، كما يتبين من كتبه، اطلاع واسع على عدد كبير من اللغات المستخدمة في العالم اليوم. فلقد أحصيت ما ذكره من لغات في الكتاب الحالي، ووجدت أنها تتجاوز 80 لغة، بعضها من اللغات المعروفة ذات الانتشار الواسع، وكثير منها من

اللغات المغمورة التي لا يتكلمها إلا أعداد ضئيلة من البشر. وقد قمت بتعريف ما ذكره المؤلف من لغات، لا سيما المغمورة منها. واعتمدت في ذلك على عدد من المواقع والمصادر، ومنها موقع أثنولنوغ: / https://www.ethnologue.com، وموقع أطلس اللغات: / https://wals.info، وموقع الموسوعة الشبكية لأنظمة الكتابة واللغات: / https://www.omniglot.com، بالإضافة إلى موقع ويكيبيديا الشهير.

***

وفي الختام، لا بد أن أشير إلى أن ظروف النشر قد حتمت عليّ أن أنتهي من ترجمة هذا الكتاب وتسليمه للناشر في مدة قصيرة جدا لا تتجاوز ثلاثة أشهر. ولقد كان في ذلك تحد لم أكن أظن أنني قادر على إنجازه لولا توفيق الله وتيسيره. وأود أن أعبر عن شكري الجزيل وامتناني الوافر للزملاء الكرام (بحسب الترتيب الأبجدي): أحمد بن عبدالرحمن الحقباني، وخالد بن عبدالله الصقير، ومنصور بن مبارك ميغري الذين تفضلوا بقراءة هذه الترجمة، وزودوني بملاحظات وتعديلات قيمة، أسهمت في تلافي عدد من الأخطاء، وتحسين الترجمة في مواضع ليست بالقليلة. وأشكر كذلك الأخوة والزملاء في مؤسسة أدب، وأخص بالذكر الصديق العزيز الدكتور عبدالله بن رفود السفياني الذي كان له الفضل بعد الله في إنجاز هذه الترجمة، وتفضل

مشكورا بقراءتها أيضا، فأمدني بعدد من الملاحظات والتعليقات القيمة. وأشكر أيضا الزملاء في دار تشكيل للنشر والتوزيع، وأخص الأخ الفاضل محمد بن بدر السالم، على ما تفضلوا به من دعم ومتابعة لهذا العمل منذ أن ابتدأ حتى اكتمل بحمد الله. أما زوجتي وأبنائي فكلمة الشكر لا تفيهم حقهم. فلقد كانت ثلاثة أشهر طويلة أنفقتها في جهد متواصل صرفني عن كل شيء آخر يهمهم ويعنيهم، رغم أني أعلم يقنيا أنهم أكثر من سيسعد عندما يرون ثمرة هذا الجهد. والله وحده أسأل أن يجعل ما ننفقه من وقت وجهد نافعا وخالصا لوجهه الكريم.

المقدمة

إن هذا الكتاب بيان[1]. سأعارض فيه فكرة عن اللغة استحوذت على بعض الأكاديميين بدءا من ثلاثينيات القرن الماضي، واكتسبت كذلك مؤخرًا قَدْرًا لا تستحقه من التأثير على النقاش العام. وهي الفكرة القائلة بأن لغات الناس تشق قنوات تفكيرهم وتصورهم للعالم.

ربما تكون قد اطلعتَ عليها. وقد يقبع بين ذكريات قراءاتك خلال السنوات العشر الماضية مثلا أفرادُ قبيلةٍ أمازونية وُصِفوا بأنهم غير قادرين على التعامل مع الرياضيات لأن لغتهم ليس فيها أعداد. أو ربما تكون قد قرأتَ عن أناس لديهم الكلمة نفسها للونين الأخضر والأزرق، ممن قد نتخيل أنهم غير قادرين على إدراك الفرق في اللون بين ورق الشجر والسماء بنفس القدر من الزُهُوّ الذي ندركه نحن. إن الفكرة برمتها نوع من الدعاية المتجددة القادمة من عالم اللسانيات، والإناسة، وعلم النفس، برطانة الإعلان الذي يجسده العنوان الفرعي لكتاب غاي دويتشر «من خلال منظار اللغة: لماذا يبدو العالم مختلفا في اللغات الأخرى»[2].

---

(1) انظر ما كتبناه في المقدمة عن معنى ذلك، وأثره في أسلوب الكتاب.

(2) لقد ترجم الكتاب المذكور هنا إلى العربية، وصدر كما ذكرنا في المقدمة عام 2015م، بترجمة حنان عبدالمحسن مظفر، ضمن سلسلة عالم المعرفة، التي يصدرها المجلس الثقافي في الكويت.

إن الفكرة كيفما قلّبتها فاتنة. فقط تأمل - إن ما نحن عليه هو ما نتكلمه. فنحن اللغة التي نتكلمها.

وهذا حق، بطبيعة الحال، إلى حد معين. فالبصيرة التي تخرج بها من الفكرة القائلة بأن اللغة تشق قنوات الفكر هي أن كلمات اللغة ونحوها ليسا مجرد تشكيلة عشوائية، بل هما البرمجية الخاصة بثقافة معينة. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن ثمة شيئا من الحقيقة في ذلك. إذ يوجد في التايلندية سبعُ كلمات مختلفة للضمير «أنت» بحسب سبع درجات مختلفة من الرسمانية[3]، وعدم استخدامك لها يعني أنك لستَ تايلنديا، إلا إذا كنت طفلا أو جديدا على اللغة. وسيكون من المستغرَب التظاهر بأن ذلك لا علاقة له بالطبيعة الطبقية جدا للمجتمع التايلندي في الماضي والحاضر.

وتحكي المفردات أيضا الاهتمامات الثقافية، ولا يكون ذلك في المجالات الجليّة، كألفاظ التقنية والملاحنة[4]، فحسب. فقلّ من

(3) الرسمانية/ formality تعني درجات التحفّل وما يتطلبه ذلك من التقيد بأعراف ومواضعات رسمية يقتضيها المقام في طريقة التخاطب.

(4) الملاحنة/ slang طريقة معينة في الكلام لها أساليب مجازية وتعبيرات اصطلاحية خاصة، وغالبا ما تكون مرتبطة بفئة معينة كالمراهقين وبعض الطبقات الاجتماعية المعينة. ومن أمثلة ذلك في اللهجة السعودية بين الشباب كلمة «دافور» و«درباوي» و«قصف الجبهة» و«جحفلة» ونحوها. والملاحنة أشبه بالموضة التي تتعرض للتغير والتبدل الدائم. وبعضهم يستخدم «عامية» للدلالة على هذا المفهوم، وهو استخدام غير دقيق، لأن العامية لها مدلول آخر. وللاطلاع على شرح مختصر للمصطلح مع بعض الأمثلة، انظر: «دراسة اللغة» لجورج يول، ترجمة: حمزة المزيني، ص353.

يكون حقا مُفْتَتِنًا بأن لدينا أسماء لمكونات الحاسوب، ومصطلحات لاذعة تتعلق بأشياء من قبيل المواعدة والشِيَم الاجتماعية. بل إن الأشياء الأكثر خُفُوتا تقول أكثرَ مما نلاحظه دائما. فلقد لاحظت مرة في أثناء إقامتي في أحد الفنادق في جزر الباهاما قطة وديعة تتقافز في الخارج. فقال الشخص الكاريبي الذي كنت معه: «أوه، حتما هذه قطة الفندق». أي القطة التي تعيش نوعا ما حول المكان، وتكون بمثابة تميمة خاصة[5]. ولم أكن قد سمعت قط بـ «قطة الفندق». ولم يخطر ببالي أبدا أن أضع «فندق» و«قطة» معا، بل يبدو أن جزءا من جوهر تجربة الفنادق بالنسبة لي هو عدم وجود القطط.

بيد أن كون صديقي يشير إلى «قطة فندق» فإن ذلك يوحي بأن العلاقة بين الهررة والفنادق قد كانت أمرا مختلفا بالنسبة للمكان الذي كنتُ فيه. بل إن شيئا في طريقة نطقه لذلك ينمّ عن أنه قد كان يشير إلى شيء مترسخ من الناحية الثقافية: فلم يكن النبر في نطقه هكذا «hotel CAT»، بل «ho-TEL cat»[6]. ولو فكرت في الأمر، فإن الطريقة الثانية لنطق ذلك تعني أن قطط الفنادق «شيء [قائم بذاته]»، كما قد يقال في هذه الأيام. انظر إلى طريقة نطقنا لـ «ICE cream» بدلا من «ice CREAM» - كما كانت تنطق حينما كانت أمرا مستجدا،

(5) التميمة/ mascot إنسان أو حيوان أو شيء يُعتقد أن يجلب الحظ الحسن، ويدفع السوء.

(6) النبر هي الإبراز الصوتي لمقطع معين في الكلمة أو العبارة، والمقطع المنبور في الكلمات التي ذكرها المؤلف هو المكتوب بحروف كبيرة. ومعنى ذلك أن النبر كان على كلمة «هوتيل/ فندق»، وليس على كلمة «كات/ قطة».

أو «CELL phone» بدلا من «cell PHONE»- كما أتذكر الناس ينطقونها في أوائل التسعينيات. فالنبر في التعبيرات المكونة من كلمتين يميل إلى التقهقر حينما يصبح أمرٌ ما «شيئا»، أي «ثقافة»[7]. لقد عرفتُ من قول واحد للرجل الكاريبي - ولم يكن أيضا قولا أجنبيا - أن القطط التمائم عند الفنادق جزء من الثقافة المحلية.

غير أن فكرة «اللغة بوصفها فكرا» تشير إلى ما هو أكثر بكثير مما يراه متحدثوها «شيئا». فالمفترض أن نتصور بأن الكيفية التي يعمل بها النحو في لغة معينة، والكيفية التي تطبق بها تلك اللغة الكلمات على الأشياء والتصورات الاعتيادية، تشكلان كيفية تجربة متحدثيها للحياة، بما يتجاوز كثيرا تسميات الحلويات والأدوات الإلكترونية. قطط الفنادق - هي من ذلك دون شك، ولكن ماذا عن اللغة التي تمنحك شعورا بالوقت مختلفا تماما عن أي شيء يمكن لنا تخيله بالبداهة - حتى ولو كنا من جزر الباهاما؟.

---

(7) يشير المؤلف إلى قاعدة صواتية عامة في العبارات المكونة من صفة واسم موصوف في الإنجليزية، حيث يكون النبر على الاسم عموما، ولكن حينما تتحول العبارة إلى ما يشبه الكلمة الواحدة لتدل على شيء مخصوص يتحول النبر إلى الصفة، كما في نطق «white house/ بيت أبيض» التي تدل على أي بيت أبيض، فالنبر فيها يكون على كلمة «house/ بيت»، ولكن هذا المركب نفسه حينما يستخدم بمعنى مقر الرئيس الأمريكي يكون النبر على كلمة «white/ أبيض». وهذا الاختلاف يشبه من بعض الوجوه المركب الإضافي العَلَم في العربية، فكلمة «عبد الله» قد تدل على أي شخص يوصف بأنه عبد لله، وقد تكون اسما علما لشخص بعينه، ومدى اختلاف النطق بحسب هاتين الحالتين في العربية يحتاج إلى دراسة.

لقـد أصبح ذلك كله بلبالا مستمرا منذ أن اقترح بنيامين لي وورف في الثلاثينيات من القرن العشرين أن لغة هوبي الأمريكية الأصلية(8) ليس فيها طريقة لوَسْم الزمن - فلا واسمات للتوقيت النحوي، ولا كلمات مثل «لاحقا»-، وأن ذلك يتشاكل مع إحساس أهل لغة هوبي بكيفية جريان الزمن والعالم. فيقول وورف بأن الإنجليزية مهووسة بوضع الأحداث في الحاضر، أو الماضي، أو المستقبل، على النقيض من لغة مثل لغة هوبي التي ليس فيها حاضر، ولا ماض، ولا مستقبل. فالتصور الذي يحمله وورف عن لغة هوبي هو أن الماضي والحاضر والمستقبل هي في جوهرها شيء واحد، يضاهي الإحساس الدوراني بالزمن في تصور هوبي عن الكون. ومن ثم فإنه ليس من قبيل المصادفة أن لا يكون في لغة هوبي ما يكافئ التفريق بين: «walk/ يمشي»، و«walked/ مشى»، «will walk/ سيمشي» في الإنجليزية [والعربية]: فالأمر يتعلق بأنماط الفكر. أي بالثقافة. فأنت في لغة هوبي تقوم بالمشي فحسب، وسواء كان ذلك أمس، أو غدا، أو الآن.

لقد كان العمل اليومي لوورف مفتش إطفاء، وربما جعله قدومه للدراسة اللسانية من خارجها أكثر احتمالا من اللساني المحترف لأن يتوصل إلى مرئيات «من خارج الصندوق». ولقد سميّت الفكرة

(8) لغة هوبي/ hopi من اللغات الأصلية في أمريكا الشمالية، يتكلمها شعب يحمل نفس الاسم جنوب الولايات المتحدة، وبحسب آخر تعداد، أجري عام 2010م، فإن عدد المتحدثين بها يبلغ قريبا من 19 ألف شخص.

برمتها، بسبب دور وورف الرائد في مجال اللسانيات، بـ «الوورفية»، أو «فرضية سابير - وورف» - وإدوارد سابير هو معلم وورف الذي وجد مثله أن الفكرة جذابة -، أو قد تسمى، فيما بين الأكاديميين، بـ «النسبية اللغوية» أو «الحتمية اللغوية»[9].

وأيا يكن اسمها، فإن الفكرة القائلة بأن النحو يوجه الناس لأن يفكروا في الزمن على نحو دوراني مثل حشيشة الهر[10]. فحتى قطة الفندق التي تتغذى جيدا ستلتهمها. وسينتشي بها طالب جامعي، على نحو ما كنت عليه يوما ما. فلقد تلقيت جرعة من نسخة الإناسة اللسانية هذه عن لغة هوبي في عام 1984م، وهي الآن الشيء الوحيد الذي أتذكره من دروس ذلك الصف الدراسي، باستثناء أننا قرأنا بعضا من رواية «آخر الموهيكيين»[11]، وأن المدرس - الشبيه

---

(9) انظر ما ذكرناه في المقدمة عن تسميات الوروفية ومراحل تطورها المختلفة.

(10) حشيشة الهر / catnip نبتة معمرة، تعد من الأعشاب الطبية، لها تأثير منبه على القطط يشعرها بالنشوة، ومن هنا جاء اسمها. ومقصد المؤلف من هذه الاستعارة أن تصوير وورف للزمن في لغة هوبي يشعر من يعتنقه بالنشوة كحشيشة الهر التي تُشْعِر ما يأكلها من القطط بالنشوة، ثم يربط ذلك بعبارة «قطة الفندق» التي ذكرها سابقا. والكتاب كما ذكرنا في المقدمة مليء بهذا النوع من الكنايات والاستعارات التي يأخذ بعضها بخناق بعض.

(11) «آخر الموهيكيين» رواية تاريخية للكاتب الأمريكي جيمس كوبر (1789-1851) نشرت عام 1826م، عن أحداث تدور عام 1757م، عن السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، وما واجهوه من إبادة ودمار نتيجة للاستيطان الأوروبي. وقد كان لها شعبية كبيرة جدا فاستخدمت في كثير من الأفلام والأعمال الفنية، وترجمت إلى كثير من اللغات، ومن بينها العربية.

بتوم بيتي[12] - كان يبدو حزينا بشكل لا يوصف.

أما وورف فلم يكن كذلك، وكانت لديه أجندة محمودة في نفسها. فلقد أراد أن يبين بأن الناس المنبوذين باعتبارهم «همجا» - حتى لدى المتعلمين في زمانه - قد كانوا متطورين ذهنيا كقَدْر تطور الغربيين أنفسهم. وقد كان عصرُه، على سبيل المثال، عصرا يُعَرِّف فيه «معجمُ وبستر الدولي الثاني الجديد» نفسُه، الذي كان يبجَّل باعتباره عنصرا أساسيا في منزل الطبقة المتوسطة، شعبَ الأباتشي[13] بأنهم «ذوو سجية مولعة بالحرب، وثقافة متدنية نسبيا».

ومع ذلـك، فقد تبين أن تصوره عن لغة هوبي خاطئ، كما يحدث مع كثير جدا من الأفكار الشيّقة، وذات النوايا الحسنة أيضا. فلغة هوبي تَسِمُ الزمنَ، بقدر ما يتوقع المرء من لغة أن تفعل، بواسمات تليدة جدا للتوقيت النحوي، ووفرة من الكلمات الدالة على أشياء مثل «من قبل» و«من بعد». وعلاوة على ذلك، فإن المحاولات التي بُذِلَت على مدى العقود القليلة التالية للكشف عن كون الأمريكان الأصليين مختلفين كذلك عن الغربيين من الناحية العرفانية، تبعا لما تمارسه لغاتهم من غربلة ذهنية، لم يكن لها أبدا أي نتيجة مثمرة.

---

(12) مغن أمريكي (1950-2017).

(13) من شعوب أمريكا الشمالية الذين قاوموا الاستيطان الأوروبي بشراسة، ويتكلمون عددا من اللغات المتفاوتة في منزلتها وأعداد متكلميها، وبعضها مهدد بالانقراض أو قد انقرض فعلا.

فإذا كان، مثلا، يوجد في لغة نافاهو[14] كلمات مختلفة لفعل «انتقلَ»، بحسب ما إذا كان القائمُ بالانتقال واحدا، أو اثنين، أو عدة أشخاص، فهل يعني ذلك أن لدى النافاهويين شيئا بشأن الانتقال يجعله مركزيا في الوجود؟ لقد كان اللساني هاري هويجر يعتقد ذلك في الستينيات من القرن الماضي. وقد كانت مسيرته المهنية إجمالا قيّمة في توثيق لغات فاتنة في تعقيدها كانت على شفا الانقراض، ولكنه، وهو تلميذ لإدوارد سابير كما كان وورف أيضا، قد كان متقبلا للوورفية إلى حد لم يكن غير شائع بين المتخصصين في لغات الأمريكان الأصليين في عصره. وفيما يتعلق بلغة نافاهو، فإنه قد ربط انتشار أفعال «انتقل» بحياة البداوة لدى النافاهويين في الماضي، بل إلى شخصيات أساطيرهم «المتنقلة» لإصلاح التدفق الديناميكي للكون[15].

ولكن مهـلا: ماذا عن كل اللغات الأخرى الموجودة في العالم التي اتفق أنها ذات خصوصية بشأن «الذهاب» و«الانتقال»؟ إنّ الكيفية التي تقول بها «ذهب» في الروسية معقدة جدا، إذ تُكْتَب كتبٌ كاملة عن ذلك، وهو من آخر الأشياء التي يتمكن المتعلمون غير الأصليين

---

(14) لغة نافاهو/ Navajo إحدى لغات شعوب أباتشي المذكورة أعلاه، وهي أكبرها إذ يبلغ عدد متحدثيها ما يزيد عن 170 ألف شخص حاليا.

(15) قارن ذلك مثلا بقول محمد عابد الجابري في كتابه «بنية العقل العربي»: «الرؤية التي تحملها اللغة العربية معها، رؤية تقوم على الانفصال لا الاتصال» ص242، وما يبنيه على ذلك من ادعاءات شتى بشأن تصورات العقل العربي للمكان والزمان!

من إتقانها. فالكلمة تختلف بحسب ما إذا كنتَ ماشيا أو راكبا، وبعد أن تحدد ذلك، تختلف بحسب ما إذا كنت قد عدت بعد الذهاب أم لا، بالإضافة إلى أن كل الصيغ غير منتظمة. ومع ذلك، فإن البداوة ليست أمرا مركزيا في الروح الروسية، واهتمام الروس بإصلاح التدفق الديناميكي للكون يبدو منخفضا نوعا ما، في آخر مرة تحققتُ فيها من ذلك.

وأيا يكن، فإنه من السهل، بعيدا عن المجلات الأكاديمية المغمورة، أن يفوتنا مدى هزال الفكرة الوورفية علميا. ولقد رَسّختْ، في الآونة الأخيرة على وجه الخصوص، كتبٌ رائجة مثل كتاب دانييل إيفرت «لا تنم، فهناك أفاع»، وكتاب دويتشر «عبر منظار اللغة»، ودراسات عالمة النفس في ستانفور ليرا بورودتسكي المروَّجة بشكل جيد، وغيرها من الأعمال ميما[16] وورفيا في نقاشات الجمهور. فمن السهل أن نفترض أن من أكثر الأشياء إثارة للاهتمام بشأن اللغة هو أن الناس الذين تُسْنِد لغاتُهم جنسا للأشياء غير الحية ينظرون إلى تلك الأشياء باعتبارها من ناحية المعنى ذكورا أو إناثا أكثر من متحدثي الإنجليزية

(16) الميم تعريب لكلمة «meme» التي صيغت على غرار كلمة «جين/gene» لتعبر عن «وحدة المعلومات الثقافية» التي تنتقل انتقالا ثقافيا من عقل إلى آخر على نحو يشبه انتقال الجينات. ولقد كان ريتشارد دوكينز (في كتاب «الجينة الأنانية»، ترجمة: تانيا ناجيا، ص309) هو أول من اقترح هذا المفهوم لتفسير التطور الإنساني الذي لا يقتصر على العوامل الجينية فحسب. والمؤلف يستخدم هذا المصطلح للتعبير عن مدى رواج فكرة النسبية اللغوية وتناقلها.

(رغم أنني لم أفهم أبدا كيف تتناسب الأشياء التي توسم بأنها محايدة مع ذلك)، أو أن الروس أكثر حساسية على نحو مؤثر للفرق بين الأزرق الداكن، والأزرق الفاتح، والأخضر من الكوريين الذين لديهم كلمة واحدة تشمل الأزرق والأخضر معا[17].

لا شك في وجود صلة بين اللغة والثقافة. ولكن المشكلة في الكيفية التي تتسرب بها تلك الصلة إلى النقاش العام، على نحو يذكرنا بالكيفية التي تُضَخِّمُ بها طاحونةٌ الشائعات ومضةَ الرادار إلى كارثة. فلقد دُرِست، على سبيل المثال، الفكرةُ المتعلقةُ بالجنس النحوي والألوان، بالإضافة إلى غيرها من تقاطعات اللغة والفكر، على يد جيل جديد من الباحثين بمقاربة أكثر دقة بكثير من مقاربة وورف. ولقد كانت تجاربهم بارعة وكيّسة، ولا يمكن إلا للمتشكك المتعجل أن ينكر أن عملهم قد أظهر وجود صلة بين اللغة والفكر. ولكن الغالبية يعتبرون أنه من التقييم العادل أن عمل هذه المفرزة، التي تسمى غالبا «الوورفيين الجدد»، قد أظهر أن تأثير اللغة على الفكر لطيف بلا ريب، وطفيف إجمالا. ليس غير مثير للاهتمام، ولكنه مع ذلك طفيف. غير أنّ هذه الخلاصة ليست هي الخلاصة التي تؤدي بسهولة إلى الحماس خارج الأوساط الأكاديمية،

(17) في الروسية توجد كلمة في المعجم خاصة بالأزرق الغامق، وأخرى بالأزرق الفاتح مما يجعلهما لونين مختلفين تماما في المعجم الروسي، بخلاف الكورية التي تجمع الأخضر والأزرق في كلمة واحدة ليصبحا لونا واحدا في المعجم الكوري، وسيتطرق المؤلف لاحقا لمناقشة المسائل المتصلة بهذا الموضوع.

والعامة على نحو غير مستغرب يصبحون أكثر تشويقا بشأن هذه القضية.

ولكي نكون محقين، فإن دويتشر وإيفرت يقولان في كتابيهما في الحقيقة أن أثرَ اللغة على الفكر يسيرٌ، محتاطَين للقضية بقدر من المسؤولية نتوقعه من الأكاديميين. وكلاهما على دراية بأن الصياغة الكلاسيكية للوورفية ميؤوس منها. بل إن وجهة إيفرت تميل إلى أن الثقافة يمكن أن تشكل اللغة أكثر من العكس - وذلك في أساسه امتداد لظاهرة قطة الفندق. ولقد أوضح أيضا دويتشر في نهاية كتابه أن «اللون قد يكون هو المجال *الأكثر اقترابا* في الواقع من الاستعارة القائلة بأن اللغة بمثابة العدسة» - والخط المائل من عندي - وهو ما يوضح أنّ الدليل على أنّ «اللغة كالعدسة» قد كان مخاتلا في المجمل. وكتاب «عبر منظار اللغة» مستفيض في استعراضه لكل من: إخفاق الوورفية المبكرة، وللنتائج اليسيرة جدا للوورفية الجديدة، بحيث أنه، في جوهره، تسجيل كتابي بهيّ لفكرة لم تكلل بالنجاح. بهيٌّ حقا: فالنثر هو النظير الكتابي لوجبة شهية مما تحب[18].

ولكن المشكلة هي أن وسائل الإعلام والجمهور كذلك يريدون أن تكلل الفكرة بالنجاح. ففكرة اللغة بوصفها فكرا تنوس متناغمة مع النبضات المأنوسة بعمق في الروح الأمريكية المتنورة الحديثة.

(18) أشاطر المؤلف الإعجاب بالأسلوب الذي كُتِب به كتاب دويتشر في نسخته الإنجليزية.

فالمركزية العرقية تثير اشمئزازنا. وككفارة تقريبا عن حظنا الطيب في العيش في مجتمع ثري ومهيمن في الجغرافيا السياسية، وكذلك عن الفظاعات التي ارتكبناها في حق مجموعات كثيرة في هذا العالم، نحن مدينون لبقية العالم بأن نؤكد على أنّ من هم أقل حظا منّا مساوون لنا. نحن الغربيين «أبيضون لغاية» - إدانة ثقافية للذات من شأنها أن تشدَه غربي مرتحل في الزمن من فترة لا تتعدى الستينيات[19]. وننظر بعين الغبطة للتنوع النابض، بل الأصالة، في بقية العالم.

جذابةً، إذن، ستكون الفكرة القائلة بأن كل لغة كوكتيل له أثره الخاص في تعديل العقل. فكلنا، إذا جاز التعبير، نرى ألوانا مختلفة (الألوان يا رجل، الألوان!)[20]. فقط تخيل الأفكار والمنظورات غير المستغلة هناك لدى الشعوب التي لا نسمع عنها عموما إلا ما ندر، وكذلك لدى الشعوب التي نراها كل يوم. لقد تعلمنا نحن الغربيين الدرس: فلسنا إلا وجها واحدا لتحقق البشر، وليس بالأفضل،

(19) يشير المؤلف هنا إلى تعبير «الرجل الأبيض» وما يحمله من إيحاءات عنصرية (انظر مثلا: الاستشراق لإدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، ص351)، وقد استخدمتُ كلمة «أبيضون» بدلا من الصيغة القياسية «بيض» الدالة على الوصف المحض، للتعبير عن هذا الإيحاء. ومقصد المؤلف هنا أن هذه الثقافة العنصرية قد تبدلت مؤخرا بصورة متسارعة منذ الستينيات من القرن الماضي، وحل محلها شيء من الاحتفاء المبالغ فيه بالتنوع.

(20) تشديد المؤلف هنا على الألوان عائد إلى كون هذه المسألة من أكثر المسائل شيوعا في النقاشات المتعلقة بتأثير اللغة على الذهن، وقد خصص غاي دويتشر قريبا من نصف كتابه «عبر منظار اللغة» لتتبع تاريخ البحث في ألفاظ الألوان في اللغات المختلفة.

ولا بالأكثر أهمية في المخطط العظيم للأشياء. في الوورفية كل امرئ شائق، وكل امرئ مهم.

وبحسب هذا النبض، فإن الانطباع العام المستقى من التغطية الإعلامية للكتب ذات الصلة، ودعايتها، وما يدفع القراء من ثَمّ إلى أن ينشدوه فيها (أو ما يفترضون أنه فيها) هو أن اللغة حقا تشق قنوات التفكير بطريقة درامية، وأن ذلك اكتشافٌ جديدٌ آسر لدى خبراء اللغة وما يتصل بها من موضوعات. فكتابا دويتشر وإيفرت، على سبيل المثال، معروفان في المقام الأول بأنهما كتابان يبيّنان أن اللغة تشكل التفكير، لا أنهما استكشافات حذرة بخلاصات مترددة. وما أسهل الوقوع في هذا الانطباع الخاطئ. فمقطع ختامي من شاكلة مقطع إيفرت بأننا «نمتلك جميعا أنحاء السعادة - هوياتنا وعباءاتنا الثقافية»[21]، الذي يَعْلَق بدفء في الذاكرة، يجسّد حشيشة القط المذكورة سابقا. فتشبيه «العباءة» الحميم هذا يوحي - بل يطبع - آصرة أكثر تحاضنا بين اللغة والتفكير مما يقره إيفرت في الواقع.

وكذلك الأمر إن تعرض القراء لكلام دويتشر من خلال مقاله الصحفي الواسع الانتشار عن كتابه لا من خلال الكتاب نفسه،

(21) العباءة الثقافية/cultural cloak استعارة معناها أن من يتحدث لغة واحدة، يشتركون في عباءة ثقافية واحدة. ولا يمكن فهم ما يرمي إليه المؤلف هنا إلا بالرجوع إلى النص الموجود في الكتاب الذي يحيل إليه. ومن حسن الحظ أنه مترجم إلى العربية، فراجع: الخاتمة في كتاب «اللغة: تلك الأداة الثقافية» لدانيل إيفرت، ترجمة: عبدالعزيز أبانمي، منشورات جامعة الملك سعود، 2017م.

إذ يقال لنا في ذلك المقال إن البشر «يكتسبون عادات فكرية معينة تشكل خبراتهم بطرق مهمة وغالبا ما تكون مفاجئة»[22]. ولكن ثمة خطوة قصيرة بين هذا الكلام، وفكرة وورف القائلة بأنه في حين أن اللغة الغربية قد أدت إلى رؤى إسحاق نيوتن، فإن نحو لغة هوبي يشير إلى الخطوة التالية في العلم: «**لغة جديدة يتهيأ بها العلم لعالم أوسع**» – وما أسهل على أية حال أن يخفق الشخص العادي في مجرد إدراك هذه الخطوة.

والحق أنه توجد أصوات مدققة. فلقد قوّض، على سبيل المثال، ستيفن بنكر ببراعة القراءات الدرامية المستمدة من الدراسات الوورفية الجديدة في قسم من كتابه الجليل «كيان الفكر»[23]. ولكن لأن ذلك لم يكن سوى واحدة من إضاءات لا تعد ولا تحصى في كتاب بنكر الخصيب، فإن الكتب والمقالات التي كانت تركز على «اللغة كعدسة» فحسب أحدثت ضجة أكبر.

ولا يعني ذلك أن الضجةَ الأعلى فجّةٌ أيضا. فحتى أكثر المعجبين

(22) المقال الذي يشير إليه المؤلف منشور عام 2010 في مجلة النيويورك تايمز، في وقت سابق لنشر كتاب «عبر منظار اللغة». وقد ترجمنا المقال، ونشرناه في موقع أثارة – على الرابط التالي:

https://atharah.com/does-your-language-shape-how-you-think

(23) كتاب «كيان الفكر/ the stuff of thougt» كتاب جليل حقا، ويستحق الترجمة إلى العربية. وقد ترجم لستيفن بنكر كتابان فيما اطلعت عليه، الأول «الغريزة اللغوية»، ترجمة: حمزة المزيني، والثاني «الصفحة البيضاء»، ترجمة: محمد الجورا.

بالوورفية يتنصلون دوما من نسختها القديمة المتعلقة بـ «لغة هوبي».

ومن المعتاد - بل من اللازم تقريبا فيما يبدو - اقتباس مقولة اللساني العتيد رومان جاكوبسون، التي تقضي بأن «اللغات تختلف أساسا فيما يجب أن تعبر عنه، لا فيما يمكن أن تعبر عنه». وهذه الفكرة مفادها أن اللغات لا تكبّل المتكلمين بغمامات تمنعهم من إدراك ما لا تقوم كلمات لغاتهم وأنحاؤها بلفت انتباههم إليه. نعم، تجبر لغة ما المرء على أن يذكر الجنس، كالإنجليزية بـ (He/ هو) و(She/ هي)[24]، في حين تحتوي كثير من اللغات على كلمة واحدة تشمل الرجال والنساء معا. نعم، تجبر لغة أخرى المتكلم على أن يذكر الهرمية الاجتماعية، كالتايلندية وطرقها العديدة لقول «أنت»[25]، وكذلك الأمر في لغة أوروبية كالفرنسية وما فيها من فرق بين «tu» الحميمي، و«vous» الرسمي. ولكن، يمكن للمرء أن يقول كل شيء بأي لغة. فحتى الأشخاص المستجدّون في هذا الموضوع غالبا ما يتوصلون لهذه الرؤية الأساسية وحدهم.

غير أن قول جاكبسون، ضمن السياق الثقافي لعصرنا، التواق جدا لتأكيد أن النحو بمثابة النظّارة، يفسح المجال بسهولة لتأويل أقل اعتدالا

(24) والعربية مثلها كما هو واضح في استخدام «هو» للمذكر، و«هي» للمؤنث، ولكن توجد لغات لا تفرق بينهما، ومنها التركية مثلا، فالضمير المستخدم للمؤنث والمذكر فيها واحد.

(25) ذكر المؤلف سابقا أنه توجد سبع طرق لقول «أنت» في التايلندية بحسب منزلة المخاطب الاجتماعية بالنسبة للمتكلم، وكذلك الأمر بالنسبة للضمير «أنا» فهو يختلف بحسب تلك المنزلة أيضا.

مما قصده جاكبسون. فلا ريب، أنه يمكن لأي شخص أن يقول كل شيء - ولكن ألا يمكن أن تشكّل تلك الأشياءُ التي يجب أن تعبر عنها لغةٌ ما «رؤيةَ للعالم»، متميزة على نحو فاتن عن رؤيتنا؟ باستطاعتنا أن نعرف أن الناس جميعا يمكنهم أن يفكروا بالأشياء نفسها، ونرتجي مع ذلك أن يكون ثمة درجة سحرية يكونون بها ليسوا كذلك. («السؤال دون شك يستحق أن يطرح» ... قد يسمع المرء ذلك)[26] - رغم أنه ما زال يطرح منذ ثمانين عاما. فلطالما كان هذا الرأي موجودا، ومع ذلك ما زال الانطباع قائما بأنه ما زال هناك سؤال يجب طرحه - إلى الأبد، فيما يبدو.

نحن مشغوفون في المظهر بسؤالٍ عما إذا كانت اللغة تؤثر في الفكر بشكل بالغ. ولكن يسود في الطريقة التي يورد ويصاغ بها السؤال افتراض ضمني بأن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تكون «لا».

* * *

غير أن الفكرة برمتها القائلة بأن الكيفية التي تعمل بها لغةُ المرء تحدد، على نحو مهم، كيفيةَ رؤيته للعالم، متهافتة تماما، بل خطيرة. لذا، لدي هدفان في هذا الكتاب.

سيكون أولهما تتميم الدعوى المعارضة، من علم النفس، كدعوى ستيفن بنكر، بأخرى من اللسانيات، توضح أن هذه الفكرة القائلة بأن اللغات كالنظارات فكرة غير متماسكة بالطريقة التي نرغب - على نحو مفهوم - أن تكون عليه. ويصبح ذلك جليا استنادا إلى منظور يشمل

(26) المؤلف هنا يشير إلى مقالة دويتشر المترجمة في ملحق هذا الكتاب.

لغات العالم، ولا يقتصر فقط على عدد قليل منها في كل مرة، حيث نرى بناء على ذلك كيف تضطرنا الوورفية إلى تناقضات لا نهاية لها، وإلى انتقاص غير مقصود من مليارات البشر في العالم، بل إلى وجهات نظر كاريكاتورية عن أنفسنا. وسنرى أن منظورا أوسع نطاقا للغات يجعل المرء سعيدا أن دراسات الوورفية الجديدة لا تدعم نظرية «اللغة العدسة» أكثر مما تدعمها به - سعيدا إلى الحد الذي يجعله يفكر أنها حتى لو كانت أكثر دعما لها، فإنه ربما يكون من الأفضل كتمان ذلك عن الجمهور.

ثم بعد ذلك، لن يبين التمثيل الكامل للكيفية التي تعمل بها اللغات فقط مدى استعصاء الفكرة القائلة بأن اللغة س تجعل متحدثيها يرون ويحسون «عالما مختلفا» عما يراه ويحسه متحدثو اللغة ص، بل سيبين أن اعتناق هذه الفكرة المرتكزة على السعي للاعتراف بذكاء «الآخر» ينجرف في النهاية، رغم حسن النية، إلى نوع من الإنعام المتفضل الذي لا ضرورة له في ظل التعقيد الباهر للغات وفوارقها الدقيقة. إنها لمعجزة حينما ينطق كل واحد من الستة مليارات شخص في العالم جملة، بغض النظر عما إذا كانت تشير إلى كيفية «رؤيته للعالم» أم لا.

إن اندفاعنا للتعرف على ما نسميه «التنوع» والاحتفاء به يبدأ نبيلا، ولكنه قلما يعترف بالمدى الذي يصبح فيه هذا المسعى خطيرا. ففضلا عن كون الفاصل بين «التنوع» و«الديوراما»[27] رفيع على نحو يثير

(27) الديوراما/ diorama مشهد مصغر ثلاثي الأبعاد على نحو مصطنع لبعض الجوانب من الحياة. ومقصد المؤلف هو التفريق بين التنوع الحقيقي في الحياة والمشاهد المصطنعة التي تصنع على هوى من يريد.

القلق، فإنه يوجد آخرون غير القلة ممن يتقاسم قليل منا معهم الخبز والملح اليوم قد وجدوا أن الفكرة القائلة بأن «اللغة عدسة» جذابة. خذ المؤرخ الألماني القومي المتطرف هاينريتش فون تريتشكه. فلقد كان هذا المغرم البروسي، الكاره للأجانب، والمعادي للسامية بكل وضوح، ميّالا إلى رؤى من قبيل أنّ «الفروق في اللغات تنطوي حتما على وجهات نظر متباينة عن العالم». ويمكنك تخيل الحجج والقضايا التي ساق هذه العبارة ضمنها، ومع ذلك يمكن أن تأتي العبارة نفسها مباشرة من وورف، ويحتفي بها اليوم كثيرون باعتبارها غذاء للعقل. فـ «السؤال دون شك» في النهاية «يستحق أن يطرح»، ومع ذلك فإننا نفضّل بطريقة ما ألا يطرحه فون تريتشكه، فنجد أنفسنا متلهفين لأفكارٍ بشأن ما نشترك فيه جميعا.

وفي هذا السياق فإن رسالتي ليست في النهاية رسالة سالبة.

فالهدف الآخر لهذا الكتاب هو بيان أننا نستطيع أن نعترف بطريقة أخرى اعترافا صادقا بذكاء الشعوب الأصلية[28] وتطورها: من خلال التأكيد على أن البشر جميعا متشابهون ذهنيا. فاللغات حينما ينظر إليها بمنظور عالمي تُظْهِر ذلك بوضوح أكثر من كونها تكشف عن ستة آلاف «رؤية كونية» مختلفة، وتوجهنا نحو الحقيقة الأكبر والأكثر إفادة في نهاية المطاف. اللغة عدسة حقا - ولكنها عدسة للبشرية لا لطوائف البشر. وإليك السبب.

---

(28) الأصلية ترجمة لكلمة «indigenous» تبعا لما هو شائع في ترجمتها. والشعب الأصلي بحسب بعض التعريفات هو الذي يسكن أرضا معينة قبل التاريخ المدون، وله ارتباط وثيق ببيئتها.

هوامش المقدمة:

- الحقيقة بشأن لغة هوبي:

Ekkehart Malotki, Hopi Time: A Linguistic Analysis of the Temporal Concepts in the Hopi Language (Berlin: Mouton de Gruyter, 1983), 534.

- كلام هويجر عن لغة نافاهو:

Harry Hoijer, "Implications of Some Navaho Linguistic Categories," in Language in Culture and Society, edited by Dell Hymes, 142-28 (New York: Harper & Row, 1964).

- كلام دويتشر: «قد يكون اللون هو المجال...»:

Guy Deutscher, Through the Language Glass: Why the World Looks Different in Other Languages (New York: Metropolitan Books, 2011), 231.

- كلام إيفرت عن العباءات الثقافية:

Dan Everett, Language: The Cultural Tool (New York: Pantheon, 2012), 324.

- كلام وورف عن العلم النيوتني:

John B. Carroll, ed., Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf (Cambridge, MA: MIT Press, 1956), 154.

- كلام بنكر عن الوورفية:

Steven Pinker, The Stuff of Thought: Language as a Window into Human Nature (New York: Viking, 2007), 124-50.

- كلام جاكوبسون: «اللغات تختلف أساسا...»:

Roman O. Jakobson, "On Linguistic Aspects of Translation," in On Translation, edited by R. A. Brower, 232-39 (Cambridge: Harvard University Press, 1959), 236.

- كلام فون تريتشكه: «الفروق في اللغات...»:

Heinrich von Treitschke, The History of Germany in the Nineteenth Century, edited by Gordon Craig (Chicago: University of Chicago Press, 1975), 327.

الفصل الأول

«بينت الدراسات»

هدفي من هذا البيان بيّن. فأنا أرغب في إظهار وجوه الخلل، بل الخطر، فيما نتناقله في ثقافتنا الفكرية من مقتضيات مثيرة بشأن ما إذا كانت اللغة تشكل الفكر، وكيفية ذلك. ولكنني بحاجة في هذا الفصل الأول إلى درء سوء تفسير محتمل، بقدر المستطاع.

فربما أُعَدّ منابذا لعمل الوورفيين الجدد، ولكنني لا أقصد أي شيء من هذا القبيل. فأنا أفتش عن المقالات المعنية، وأقرؤها بسرور عظيم. وهي - بقدر ما يمكنني أن أقيّم - مؤلفةٌ بعناية فائقة، ومخيّلة تثير الغبطة، ودربة ضليعة. وأشير دوما في دروسي إلى أن العمل الوورفي الجديد قد أظهر بعض الآثار اليسيرة التي قد يرغب المرء في معرفتها.

إن ما أعارضه هو الميل إلى تأويل هذا العمل باعتباره يدل على شيء بشأن الحالة الإنسانية لا أعتقد أنه يدل عليه. والحق أن هذا التأويل يتحدث عنه من يريد - كبعض المؤلفين، وكثير من المتفرجين - تِلْوَ المعطيات أكثر من كونه ممتزجا في التجارب نفسها. ومع ذلك، فإن هذا التأويل المؤاتي لدردشات حفلات الشرب، والمحبوب لوسائل الإعلام، والملوِّح بالتعدد التخصصي له تأثير أكبر بكثير من تفصيلات التجارب نفسها. فهو لذلك يتطلب المصادمة والنقد - حتى مع الاحترام الكامل للعمل نفسه.

إن الكتب كلها تقريبا تستقر في الوعي الجمعي في نهاية المطاف مختزلة. وأفترض أن هذا الكتاب - إن استُشْهِد به - فَسَيُصَنَّف على أنه بكل بساطة منابذ للوورفية الجديدة. ومهما يكن، فسأكون مقصّرا إن لم أوضح موقفي الحقيقي لأولئك الذين ينشغلون بما هو مكتوب.

الاصطدام بالحائط بعد ليلة طويلة

من تجارب الوورفية الجديدة المفضلة لدي تجربة لم يسمع عنها الجمهور كثيرا، ربما لأنها لا تتضمن مفاهيم مغرية فورا بقدر إغراء اللون والجنس. ومع ذلك، فإن هذه التجربة مبنية بناء خاليا من العيوب، وسهلة الفهم، وتجسّد تماما ما تتعلق - وما لا تتعلق - به الوورفيية الجديدة.

وهي تعتمد على فرق بين اللغات من غير المرجح أن يعتبره المرء مهما في المخطط اليومي للأشياء. إننا نقول في الإنجليزية «Long time/ وقت مديد»[29]. أما في الإسبانية فيقول المرء

(29) هذه هي الترجمة الحرفية للعبارة الإنجليزية، أما في العربية فالعبارة المقابلة هي «وقت طويل»، فالإنجليزية تستخدم كلا من «long/ مديد» و«tall/ طويل» في مقابل «short/ قصير» وتفرق بينهما في الاستعمال، فالأولى تستخدم في الامتدادات الأفقية عادة، في حين أن الثانية تستخدم في الامتدادات الرأسية، وبذلك يظهر أن الزمن يعد من قبيل الامتدادات الأفقية في الإنجليزية، أما العربية فلا تفرق بين الأمرين وتستخدم «طويل» لهما معا (مثلا: طريق طويل، وبناء طويل). فهذا مظهر من مظاهر الاختلاف بين العربية وما سيناقشه المؤلف من لغات بخصوص هذه المسألة.

«mucho tiempo»، أي «كثير من الوقت». ولو صغتها كصياغة «وقت مديد [أو طويل]»، فقلت «un tiempo largo»، فلن يرميك أحد من الحافلة، ولكنها ستكون ركيكة، وليست إسبانية حقيقية. فالزمن في الإنجليزية بَوْن [أو مسافة]. وهو في الإسبانية مقدار أو حجم.

واليونانية مثل ذلك: فليلتك في أثينا لا تكون طويلة، بل «كبيرة»، أو «متكاثرة». وربما نميل إلى قراءة التعبير اليوناني قراءة مجازية - فنحن في الإنجليزية يكون لنا «ليال كبيرة» أيضا، ولكن اليونان لا يعنون المعنى الذي نريد. فهم يقولون في اليونانية، على سبيل المثال، «علاقة كبيرة» لا «مديدة»، والذي يعنونه بذلك أن العلاقة قد استمرت لمدة طويلة. فالوقت، كما هي الحال في الإسبانية، «كيان»، أي شيء يمكن أن يوجد الكثير منه، وليس امتدادا من شيء ما. وعبارة «ليلة طويلة [أو مديدة]» في اليونانية ستعد يونانية غريبة.

ومن ناحية أخرى، الأمر في الإندونيسية كالإنجليزية: يقال «أوقات مديدة [أو طويلة]»، و«ليال مديدة [أو طويلة]». فهذه أشياء تتباين من لغة إلى أخرى: فالفرنسية مثل الإنجليزية والإندونيسية، في حين أن الإيطالية مثل الإسبانية واليونانية.

وقد يفترض المرء أن فرقا مثل هذا قد يكون مجرد مسألة «إحساس» يخص اللغة المعنيّة، ولا مؤدّى له فيما يتجاوز ذلك. وهو ما كنت أفترضه فيما مضى. ولكن اعرض على أي متكلم إنجليزي - ممن يقولون وقتا «مديدا»- خطّا يتمدد ببطء نحو نقطة نهاية على الشاشة،

ثم مربعا يمتلئ ببطء من أسفله إلى أعلاه، وستجد أنه أفضل في تخمين مقدار الزمن الذي سيستغرقه الخط ليصل إلى النهاية، منه في تخمين الوقت الذي يستغرقه المربع ليمتلئ. أما متحدث الإسبانية فسيكون أفضل بالنسبة للمربع الذي يمتلئ منه بالنسبة إلى الخط الذي يتمدد نحو غايته. وعلاوة على ذلك، يحذو اليونان، بلياليهم «المتكاثرة»، حذو الإسبان، في حين يحذو الإندونيسون، بلياليهم «المديدة»، حذو الإنجليز.

ومن الواضح أن اللغة هي الأجدر بالقبول من بين الأسباب التي قد يتوصل إليها المرء فيما يخص هذا الفرق: فالاستعارة المستخدمة للزمن في لغة الناس هي التي تحدد أداءهم في الاختبار. حاول أن تبتدع فكرةً تقول بأن الإسبان، واليونان، والطليان يحذون حذوا واحدا بسبب شيء ما يتعلق بثقافة البحر المتوسط، ولاحظ مدى صعوبة التوصل إلى كون مفاتن الماء ورونق المأكولات البحرية هو ما يجعل الناس أفضل في التنبؤ بما يستغرقه شيء ما ليمتلئ. وأرجو لك بعد ذلك حظا سعيدا في اكتشاف السمة الثقافية المشتركة التي قد تقلل من براعة الناس في المهمة نفسها في باريس، وليدز، وجاكرتا.

لقد صمم دانيل كاساسانتو، أستاذ علم النفس في جامعة شيكاغو، تجرِبة التخمين هذه. واحتج بشكل مقنع أن مثل هذه الحالة، التي لا يُسأل فيها الناس عن اللغة أثناء التجربة، ومن ثَمّ لا يتم إيراء[30]

(30) الإيراء/ priming هو الأثر الذهني الناتج عن التعرض لبنية أو صيغة معينة تثير في ذهن المتحدث ما يشبهها. والمقصود هو أن التجربة التي=

استعمال تعبيرات لغاتهم لمساعدتهم في اتخاذ القرارات، تُظْهِر أن اللغة يمكن أن تشكّل الفكر. ولكنه لم يدلِ بمزاعم تتعدى ذلك. ولنتخيل على أية حال ما يمكن أن يُزْعم بهذا الخصوص. تحدّثُ اليونانية يخلق عالما ذهنيا مختلفا يكون فيه المرء، ولنَقُلْ، أفضل قليلا في التنبؤ بالسرعة التي يستغرقها حيز ما ليمتلئ بسائل، في حين أن تحدّثَ الإندونيسية يجعلك أفضل في المهارة المجدية دوما وهي التنبؤ بالوقت الذي يستغرقه شيء ما للاصطدام بحائط. فبأي صلة تمتُّ هذه المهارات إلى الحياة كما نعيشها - أي إلى ما يعنيه كوننا بشرا؟ سيتمشى المتحدث الأسباني بعبارته «mucho tiempo/ كثير من الوقت» يوم السبت مساء وهو يرى بيئته على نحو مختلف عني بعبارتي «long time/ وقت مديد» في كونه.... مـاذا؟!

وأيا يكن، فإن ستيفن بنكر قد اضطر، أثناء كتابته لـ «كيان الفكر»، إلى أن يكفّ عن إخبار الناس بأنه يكتب كتابا عن اللغة والفكر، لأن الناس كانوا دوما يفترضون أنه لا بد أن يكون عن اللغة بوصفها عدسة - أي عن كون بنية لغتك تجعلك ترى العالم «على نحو

=يتحدث عنها المؤلف قد تجنبت استخدام اللغة تماما، لكيلا يكون لذلك أي أثر على أداء المبحوثين بالنسبة للإجراء المطلوب في البحث. وذلك من المشكلات المتكررة في التجارب الوورفية، كما يوضح ستيفن بنكر في كتابه «الغريزة اللغوية»، انظر مثلا ص84، ترجمة: حمزة المزيني. وللمزيد عن الإيراء وأثره الذهني، انظر: أسس اللسانيات النفسية، لإيفا فرنانديز وهيلين كيرنز، ترجمة: عقيل الشمري، ص217.

مختلف» عن بقية البشر[31]. إن ميسم هذه الفكرة لا يستند إلى نوعية النتائج التي تعرف عليها كاساسانتو بكياسة، بل إلى فكرة ضمنية مفادها أن هذه الأشياء مجرد تباشير لشيء أعظم. فالمنتظر هو أن نفترض أننا، بحسب عبارة آل جلسون الشهيرة بشيء من التصرف، «we ain't seen nothin' yet/ تو، ما شفنا شيء»[32]، وأن المجتنى سيكون تأكيدا بأن اللغات تمنحنا عوالم مختلفا ألوانُها.

كأنه أزرق

غير أن عمل الوورفية الجديدة الفاخر بشأن اللون، بقدر ما هو باهر من نواح عديدة، ليس فيه ما يستدعي التأويل المتوهج بشأن الإنسان. وقد نسيت مثلا سبب معرفتي بأن الكلمة الروسية لـ «شاذ جنسيا» هي: «goluboj/ غلوبوي»، ولكن المعنى الأساسي للكلمة بالمناسبة هو «أزرق فاتح». وليس «أزرق» فحسب، لأنه توجد كلمة روسية أخرى لنوع الأزرق الغامق، أو الكحلي، أو النيلي، وهي: «siniy/ سيني».

---

(31) المقصود هو أن بنكر حينما كان يخبر الناس بأنه يكتب كتابا عن اللغة والفكر، كانوا دوما يفترضون أنه يتحدث عن الكيفية التي تؤثر بها اللغة في الفكر، لأنهم لا يتصورون علاقة بين الاثنين إلا هذه!

(32) آل جلسون ممثل سينمائي، وعبارته التي اقتبسها المؤلف هي «You ain't heard nothin' yet [ويمكن أن تترجم بـ: «تو ما سمعتوا شيء»]» التي قالها في فيلم «مغني الجاز» عام 1927م، فكانت افتتاحا لعصر السينما الناطقة بعد عقود من السينما الصامتة. وقد ترجمناها بالعامية، لأن ذلك قريب من المستوى اللغوي الذي كتبتْ به الجملة في الأصل.

ولا توجد كلمة تعني أزرق فحسب: فالسماء والتوت الأزرق لوناهما مختلفان في الروسية.

ومن تجارب الوورفية الجديدة المتقنة تجربة تُقَدِّم لمتحدثي الروسية لوحات عديدة مكونة من ثلاثة مربعات على شاشة الحاسوب: أحدها في الأعلى، والآخران أسفل منه. وقد كانت المربعات صبغات مختلفة مما يسميه الناطقون بالإنجليزية «أزرق»، تقع في عشرين تدرّجا تمتد من الأزرق الغامق إلى الفاتح. فيكون أحد المربعين السفليين، في كل لوحة، ذا صبغة مماثلة لصبغة المربع الأعلى، في حين يكون المربع السفلي الآخر ذا صبغة مختلفة. ولقد كُلِّف الروس بمهمة: أن يضغطوا على زر حينما يحددوا أي المربعين السفليين مماثل في صبغته للمربع الأعلى.

ولا بد أنه قد كان من الممل جدا إجراء هذا الاختبار، ولكن الباحثين كانوا يحاولون الوصول إلى شيء ما: وهو ما إذا كان لوجود كلمتين مختلفتين للأزرقين الفاتح والغامق أثر على الإدراك - أي هل يمكن للغة أن تشكل الفكر؟ وقد وجودوا أنها كذلك. فإذا كان، مثلا، المربع الأعلى أزرقَ غامقا، وكان المربع السفلي الجانح ذو اللون المختلف من الصبغات التي تقع ضمن نطاق الأزرق الفاتح ولو بدرجة أو نحوها، فإن الروس يضغطون الزر بلمحة، في حين أنه إذا كان المربع الجانح مجرد صبغة مختلفة من صبغات الأزرق الغامق، فإن متوسط الوقت المستغرق قبل ضغط الزر يكون أطول. ويكون الأمر هو نفسه في الاتجاه المعاكس: فإذا كان المربعان المتطابقان أزرقين فاتحين،

فإن الروس يضغطون الزر دون تردد إن كان المربع الجانح في نطاق الغامق، ولكنهم يتلبّثون في الحالة الأخرى.

أما المتحدثون بالإنجليزية فكان زمن الاستجابة لديهم هو نفسه أيّا كان موقع المربع الجانح ضمن طيف الزرقة: فخفّة لون المربع الجانح لم تجعلهم يسرعون حينما يكون المربعان المتطابقان غامقين، كما أن قتامة المربع الجانح لم تجعلهم يسرعون حينما يكون المربعان المتطابقان فاتحَين. وهذا يظهر، بطريقة عبقرية حقا، أن امتلاك كلمتين مختلفتين للأزرقين الفاتح والغامق يجعل الناس يتبينون الفرق بين هذين اللونين على نحو أسرع ممن يكون في لغتهم كلمة واحدة فقط للأزرق - حتى لو لم يسألهم أحد عن الكلمات المعنيّة، ولم يستعملوها.

وتحسّبا لمحاولةِ أن يجد أحدٌ، مثلا، سببا ثقافيا يجعل الروس أكثر من الأمريكان حساسية للفرق بين الأزرقينِ الفاتح والغامق، قام الباحثون بنسخة أخرى من التجربة لبيان أن اللغة هي من دون شك ما يؤدي إلى اختلاف الروس. ولا تطلب التجربة الثانية من المبحوثين أن يميزوا المربع الجانح فحسب، بل أن يسردوا في الوقت نفسه سلسلةً من أرقام عشوائية قد طُلِب منهم للتو أن يحفظوها. فالمجهود الذهني المطلوب للقيام بذلك يضع عائقا مؤقتا على المعالجة اللغوية[33]،

---

(33) هذا الإجراء شائع في تجارب اللسانيات النفسية. وللاطلاع على نماذج من ذلك، انظر مثلا: أسس اللسانيات النفسية، لإيفا فيرنانديز وهلين كيرنز، ترجمة: عقيل الشمري، ص341.

والمفاجئ أنه، في هذه النسخة المعدلة من التجربة، لم يكن ثمة أي فرق في أزمنة الاستجابة سواء أكان المربع الجانح من النوعية الأخرى للأزرق أم لا. ولذا، فإن الروس، من دون اللغة، لم يكونوا أكثر تحسسا تجاه الفرق بين الأزرقين الفاتح والغامق من شخص في أتلانتا[34].

ولكن. ثمة موضة حالية تبث دعاية عن كون هذا النوع من الاختبار يبين أن ما تكون عليه لغتك يجعلك ترى العالم بطريقة معينة. وسيَجْهَد بشغف الأنغلوفونيون المتولهون لتخيّل ما يجب أن يبدو عليه العالم في عيون شخص يكون الأزرقان الفاتح والغامق بالنسبة له «أكثر اختلافا» منهما بالنسبة لهم. وهي محاولة ربما تذكرنا بمحاولة تصوّر بُعْدٍ رابع[35].

ولكن هناك مشكلة. وليست المشكلة أن هذه التجربة التي قام بها جوناثن ويناور، ونايثن ويتهوفت، ومايكل فرانك، وليزا وو، وأليكس ويد، وليرا بورودتسكي لم تكن بارعة للغاية، ولا أنها لم تبيّن أن اللغة لا تؤثر في الفكر. وإنما سنصطدم بعقبة حينما نحاول تجاوز التجربة

(34) أتلانتا مدينة أمريكية، والمقصود بذلك هو الكناية عمن يتكلم الإنجليزية. وسيكثر المؤلف من استخدام مثل هذه الكناية في ثنايا كتابه.

(35) يلمّح المؤلف هنا إلى بعض الادعاءات التي كانت تقول إن الإنجليزية تمنع متحدثيها من إدراك المفهوم العلمي للزمن في النظرية النسبية باعتباره بعدا رابعا، في حين أن متحدثي لغة هوبي الذين - كما يُزْعم - لا وجود للزمن في لغتهم يستطيعون إدراك ذلك. وهي بطبيعة الحال ادعاءات مرسلة لا أساس لها من الصحة. وقد تطرق غاي دويتشر في كتابه «عبر منظار اللغة» إلى ذلك، انظر مثلا ص163 في الترجمة العربية.

واعتناق الفكرة القائلة بأنها تخبرنا بشيء عن رؤية العالم، والكيان الإنساني، وما شابه. فأنا حينما وصفتُ الفرق في أزمنة الاستجابة، استخدمتُ مصطلحات غامضة مثل «بلمحة» و«تلبّث». ولكن، لتقييم ما تعنيه هذه التجربة في الواقع تقييما جديا خارج عالم علم النفس الأكاديمي، لا بد أن يكون واضحا ما معدل الفرق في زمن الاستجابة بحسب اتجاه اللون الذي يميل إليه المربع الجانح. لقد كان - وكن مستعدا - 124 مللثانية[36].

124 مللثانية! عندما يكون المربعان المتطابقان أغمق، يقوم الروس بضغط الزر إن كان المربع الجانح أيضا في نطاق الغامق بصورة أسرع «بعُشْر ثانية» فقط مما لو كان المربع الجانح في نطاق الفاتح[37]. فلا يتلبثون لمدة نصف دقيقة، ولا حتى ثانية كاملة، ولا نصف ثانية أيضا. إننا حقا لا يمكن أن نسمي عُشْرَ ثانيةٍ تلبّثا على الإطلاق.

حسنا، مجرد وجود تأثير هو بحد ذاته أمر ذو شأن. تدبّر: لم يكن هناك أي تأخير لدى متحدثي الإنجليزية، ويعود السبب لفرق لغوي فحسب. ولكن: على أي أساس يتعين علينا أن نأخذ فرقا يبلغ 124 مللثانية في زمن الاستجابة لنعدّه إشارة إلى شيء ما عن طريقة

---

(36) المللثانية/ millisecond جزء من ألف من الثانية.

(37) هكذا ورد في الأصل، ويبدو أن الصياغة خاطئة. فالروس يكونون أسرع حينما يكون المربع الجانح في نطاق مخالف لنطاق المربعين المتطابقين، كما شرح المؤلف نفسه أعلاه، ولم يذكر المؤلف الدراسة هذه ضمن هوامش هذا الفصل للأسف. وقد تطرق غاي دويتشر لهذه الدراسة بتفصيل موسع في الفصل التاسع من كتابه «عبر منظار اللغة»، ص242.

«معايشة الروس للحياة»؟ هل اللغة تؤثر في الفكر؟ هذا ما يبدو، ولكن كما هي الحال مع كثير من أمور الحياة، المسألة محدودة جدا. وبحسب حالتنا المعرفية الراهنة، فإنه يبدو أن علاقة كلمة «goluboj/ غلوبوي» بالروح الروسية فيما يخص التفضيل الجنسي أكثر وضوحا مما يتعلق باللون(38).

ويتوافق الحدس مع رقم 124 مللثانية في الإشارة إلى أننا لا نتعامل أبدا مع شيء من قبيل مناظير مختلفة. فعند معرفة أن في الروسية كلمتين منفصلتين للأزرقين الفاتح والغامض، قد يميل البعض فيما يبدو إلى التساؤل عما إذا كان ذلك يعني أن الروس يرون السماوي والكحلي باعتبارهما أكثر تميزا مما يراهما به متحدثو الإنجليزية. ولكنني أظن إلى حد كبير أن رد الفعل، بالنسبة إلى كثير من متحدثي الإنجليزية، أو معظمهم، هو انشداه مؤكد من أن لغة ما تقوم بتمييز كهذا. وقد نتساءل «ما الذي يجعل لغة ما بحاجة لذلك؟». «فنحن نعرف بالتأكيد أن اللون الواقع خلف النجوم في العلم الأمريكي مختلف تماما عن الأزرق السماوي(39) - ولكن هل نحن بحاجة

(38) يشير إلى ما ذكره سابقا من كون هذه الكلمة من المشترك اللفظي، إذ تعني «شاذ» و«أزرق فاتح» معا. ويقول إن إيحاءات المعنى الأول وتأثيراته قد تكون أوضح من الثاني.

(39) تجدر الإشارة إلى أن الكلمات مثل «السماوي» و«الكحلي»، ومثلهما «فاتح» و«غامق» ونحوها هي مجرد صفات مستحدثة قريبا لمزيد من التمييز، ولم تكن من الكلمات المستخدمة في العربية قديما. ومن الكتب التراثية الطريفة المعنية بألفاظ الألوان وتعبيراتها في العربية قديما كتاب «الملمّع» لأبي عبدالله النمري (ت385)، وهو مطبوع ضمن منشورات مجمع =

لكلمة مختلفة له؟». لقد كان ذلك بالتأكيد هو ما شعرتُ به حينما تعرّضتُ للروسية أول مرة.

وعلى غرار ذلك، يوجد كثير من اللغات التي لا تميز بين ألوان يعتقد متحدثو الإنجليزية أنها أساسية، فتبدو الإنجليزية في هذه الحالة بالنسبة لمتحدثي تلك اللغات مهووسة بلا داع كما تبدو الروسية بالنسبة لنا. فشعب الهيريرو في ناميبيا في أفريقيا يتكلمون لغة فيها كلمة واحدة تشير إلى الأخضر والأزرق معا[40]. وعندما يكتشفون أن اللغات الأخرى لديها كلمتان منفصلتان للأخضر والأزرق، فإن شعب الهيريرو لا يميلون إلى التساؤل عما إذا كان الغربيون يرون عالما مختلفا عما يرونه هم. فهم بالأحرى مدركون للفرق بين لون ورق الشجر ولون السماء - فالعيش على الأرض التي يعيشون عليها سيجعل من الصعب فيما يبدو تجنب ملاحظة ذلك على الأقل من حين لآخر. وسيجدون فقط أن فكرة امتلاك لغة لكلمتين منفصلتين لهذين اللونين - حينما يبلغهم وجود لغات من هذا القبيل - سخيفة بعض الشيء.

وربما لا يزال البعض متقبلين للفكرة القائلة بأنه، في مستوى ما، هناك سلم من الحساسية للألوان يكون الروس في أعلاه، والإنجليز في وسطه، والهيريرو في أسفله. إن هذا التصنيف سيبدو مستهجنا

=اللغة العربية بدمشق، بتحقيق وجيهة السطل.

(40) لغة هيريرو/ Herero من لغات البانتو يتحدثها قريب من 250 ألف في دولة ناميبيا والدولة المحيطة بها في الجزء الجنوبي من قارة أفريقيا.

لأكثرنا - وسنرى كم ستنتهي بنا مقتضيات الوورفية إلى ما يشبه ذلك من مقترحات مستنكرة حينما لا يكون نحن من تصوره الدراسات بأنه بليد على نحو مدهش. ومن المستبعد فيما يبدو ألا يكون ذا صلة بالموضوع أن الهيريرو، فيما يخص الملابس والديكور، يعطون كل إشارة على استمتاعهم بالألوان - بما في ذلك التمييز بين الأزرق والأخضر - كالغربيين تماما. ورغم كل ذلك، فإنه من الممكن جدا أن تُظِهر تجربةٌ أن لغة هيريرو توجه الدماغ بطريقة تجعل متحدثيها أبطأ بمللي - ثوان قليلة في تمييز قلم التلوين الأزرق المخضر عن الأخضر المزرق من الشخص العادي في شوارع شيكاغو أو شتوتغارت (يوجد في الألمانية كلمتا «Grün/ أخضر» و«Blau/ أزرق»). ولكننا بذلك نكون قد ابتعدنا عن أي نقاش له معنى فيما يخص الفروق في أرواح الشعوب.

بيد أن الأرواح هي ما يخطر في أذهاننا في التجاوب مع عبارات من قبيل: «وبقدر ما يبدو في ذلك من غرابة، فإن تجربتنا لرسومات شاغال تعتمد في الحقيقة إلى حد ما على ما إذا كان في لغتنا كلمة دالة على اللون الأزرق»[41]. لقد كانت تلك واحدة من أكثر العبارات الرنانة في المقالة الصحفية المستندة إلى كتاب دويتشر،

---

(41) مارك شاغال (1887-1985) فنان روسي يهودي من أشهر فناني القرن العشرين. والجملة التي اقتبسها المؤلف هنا مأخوذة من مقالة غاي دويتشر المنشورة في النيويورك تايمز، وقد ترجمناها إلى العربية، كما ذكرنا سابقا. ويوجد في كتابه «عبر منظار اللغة» مثل هذه الإشارة، ولكن بصياغة أخرى مختلفة تماما عن صياغة المقالة الصحفية، في ص218 من الترجمة العربية.

والتي استدعت قرابة 5000 زيارة على قوقل في اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام. إن وسائل الإعلام (ومن ضمنهم الناشرون)، كما جربتُ طويلا، يميلون إلى تشجيع الأكاديميين على التعبير بمثل هذه الطريقة، في مسعى لا نهاية له إلى «المشاهدات» (أو زيارات الصفحة). يوجد الكثير من الكتب، فلا بد للمرء من الجعجعة الصاخبة قليلا. إن المقالات الصحفية - وكلمات الغلاف - التي تصنع الدعاية للكتاب سيكون لها دوما نوعية معينة مفرطةُ الحماس لا يمكن تقريبا أن يجسدها أي نص فعلي.

غير أن العبارات المماثلة للعبارة المتعلقة بشاغال لها تأثير يفوق تأثير الكتاب نفسه، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الاهتياج المتأصل للفكرة الوورفية، وهي توحي بشيء لا تشير إليه الدراساتُ بكل بساطة. هل حقا افتقاد كلمة تدل على «الأزرق» يؤثر على تجربة المرء لرسومات شاغال أكثر من التعليم، أو الخبرة، أو حتى مجرد التفاوت الفردي بين الناس في تلقي الفن؟ لقد قالت المقالة «إلى حد ما»، ولكن دعنا نواجه الأمر، فتحوطٌ مثل هذا يضيع وسط الجاذبية المغرية للعبارة الأساسية. والسؤال الحقيقي هو إلى أي «حد»؟ 124 مللثانية؟.

من الغريب أن قبيلة بلا ورق وأقلام لا تجيد فن البورتريه[42]

هناك مزاعم حول كون اللغة تؤثر في الفكر والثقافة، قد تشير، إن كانت سديدة، إلى تأثيرات أكثر دراماتيكية بكثير من الفروق متناهية الصغر في المعالجة الذهنية. غير أن ما تبيّنه هو أن السمات الثقافية تنعكس في اللغة، مثل الكلمات التايلندية الدالة على الضمير «أنت»، لا أن السمات اللغوية تشكل الثقافة بطريقة سحرية.

وما كنت لتعرف ذلك في صيف عام 2004م. فذلك الصيف متحدد في ذاكرتي بثلاثة أشياء. أحدها هو النغمة التي أداها جوالي حينما وردتني رسالة عن طريقه، فذلك الصيف هو الذي بدأت فيه باستعمال الرسائل النصية. والثاني هو نبات المنزل الجميل، من النوع الرائج آنذاك في مدينة نيويورك، الذي أخذ ينشر أوراقه الخضراء الفاتحة في جميع أنحاء نافذة مكتبي وصولا إلى الأرض. والثالث هو تقارير إعلامية لا حصر لها عن أناس لا يستطيعون التعامل مع الرياضيات لأن لغتهم ليس فيها أعداد.

لقد بدا لي ذلك نشازا، كأغنية تؤدى بألحان نافرة، أو كآيس كريم موضوع في الثلاجة بجوار بقايا مكرونة بالمحّار، بحيث أن الرشفة الأولى من الفراولة أو الشوكولاته تحمل مقدارا من الثوم. لقد كان عمل عالم النفس في جامعة كولومبيا بيتر جوردن على لغة قبيلة أمازونية صغيرة تدعى «بيراها» هو الذي أطلق شرارة التغطية الإعلامية، وكانت

(42) البورتريه من فنون الرسم المعروفة، وفي العنوان شيء من التهكم الذي سيكرره المؤلف عدة مرات في هذا الجزء.

النتيجة اليوم هي أن لغة مغمورة من لغات غابات البرازيل قد نوقشت في العديد من الكتب المكتوبة لعامة الناس، وتمت الدعاية لها من قبل دانيل إيفرت على وجه الخصوص[43]. إنه لمن الجيد دوما أن ترى لغة مختلفة جدا عن اللغات الغربية تحظى بكثير من الاهتمام. ومع ذلك، فقد ظل محيرا أن ترى منشورا تلو الآخر يهتف بمدى مناقضة الحدس لوجود أناس ليس لديهم أعداد، ولا يحسبون الأشياء، ولا يجيدون ذلك حتى لو حاولت جعلهم يفعلونه. «قبيلة دون أسماء للأعداد لا يمكنها أن تحسب» (مجلة نيتشر، 19 أغسطس، 2004). «يتفق الخبراء على أن النتيجة المذهلة تقدم أقوى دعم حتى الآن للفرضية الخلافية القائلة بأن اللغة المتاحة للبشر تحدد أفكارنا» (مجلة نيو ساينتست، نفس اليوم).

ليست المشكلة أن بيراها الأمازونية قد صُوِّرَت تصويرا خاطئا. فهم حقا لا يحسبون، ومن المتعذر عليهم تقريبا أن يتعلموا الرياضيات. فلا تستطيع حقا امرأة من بيراها أن تخبرك كم لديها من الأطفال، لأن اللغة ليس فيها كلمات للأعداد. ويوجد شيء من الخلاف بشأن مدى الأمية

(43) لغة بيراها/ Pirahã تتكلمها قبيلة معزولة في الأمازون لا يتجاوز عدد أفرادها 360 شخصا، وقد اشتهر دانيل إيفرت بدراستها والدعاية المكثفة لها (انظر مثلا: كتابه «اللغة: تلك الأداة الثقافية»، ترجمة: عبدالعزيز أبانمي، ص152 وغيرها من المواضع). وقد بين عدد من اللسانيين أن بعضا من مزاعمه بهذا الخصوص مغلوطة، لا سيما ما يتعلق ببساطة تركيب هذه اللغة (انظر مثلا: «هل بعض اللغات أفضل من بعض» لروبرت ديكسون، ترجمة: حمزة المزيني، ص189، و«أسس اللسانيات النفسية» لإيفا فيرنانديز وهيلين كيرنز، ترجمة: عقيل الشمري، ص118).

العددية في بيراها. أما أنا فقد جعلتني الأدلة المقدمة متشككا في أنه ليس لديهم حقا تصور لـ «واحد» و«اثنين»، رغم أنه يبدو أن «واحد» بالنسبة لهم يعني ما قد نعنيه بـ «ذاك هناك»، وأن «اثنين» في الأغلب من قبيل «زوج وربما واحد أو أكثر معهما»[44]. غير أنه إنْ كان هناك شخص قد عاش مع بيراها لعدة سنوات كما هي حال دانيل إيفرت، فإنه يمكننا، حتى لو كان هناك مدى يجعل الناس يرون ما يرغبون في رؤيته، أن نأخذ بكلامه في أن متكلمي بيراها لا يتحدثون عن رقمي 5 و42. وحتى لو كان لدى البيراهيين بالمصادفة ألعاب للعد كانوا يخفونها عن إيفرت (متهامسين: «لا، لا، ليس أمامه»)، فإنه إذا كان كل ما لديهم هو «ذاك هناك» و«اثنان وشيء»، فإنه يمكن أن نفترض أن اللعبة لا تكاد تبلغ ما نعتبره عدا («هذه موزة، يا صغيري، طيب، هاااااذا كأنه موزتان، صح!!!»)[45].

(44) المقصود أنهم لا يستخدمون الكلمات المقابلة لكلمتي «واحد» و«اثنين» استخداما دقيقا، بل استخداما تقريبيا يشبه استخدام كلمة «بضع» في العربية، أو كلمة «couple» في الإنجليزية التي قد دل على اثنين أو ما هو أكثر من ذلك بقليل.

(45) مقصد المؤلف أنه يوجد خلاف بشأن وجود الأعداد في لغة بيراها. فدانييل إيفرت بحسب ما عرف عنه من مبالغة في هذا الصدد يقول إنه لا يوجد لديهم أي كلمة تدل على العدد، ولا حتى «واحد» أو «اثنان» (انظر مثلا: «اللغة تلك الأداة الثقافية»، ترجمة: عبدالعزيز أبانمي، ص354). وغيره ينكر ذلك ويقول توجد كلمات للدلالة على «واحد» و«اثنين» و«كثير». والمؤلف يقول إنه ليس ثمة ما يمنع من قبول كلام إيفرت، رغم ما هو معتاد من مبالغته، وحتى لو افترضنا وجود ما يدل على «واحد» و«اثنين» في لغتهم - وهو ما يميل إليه المؤلف -، فإن ذلك=

إن المشكلة هي الإعلان: «قبيلة دون أسماء للأعداد لا يمكنها أن تحسب»، مع تكهنات لاهثة عن الكيفية التي تشكل بها اللغة وجودهم. وعلينا أن نتخيل ادعاءات نظيرة: «قبيلة دون حروف لا يمكنها أن تكتب»، ولاحظ كيف يبدو مثل هذا العنوان مستبعدا. إذ يبدو أن عدم وجود الحروف هو جوهر عدم الكتابة. فحينما نلتقي بمجموعة لا تكتب، فإننا سنقوم بتخمين الأسباب التاريخية والثقافية التي تشرح سبب عدم اتخاذها للكتابة. فما الذي سنظنه بشخص يكون منبهرا بدلا من ذلك بأنّ هذه المجموعة ليس لديها تصور عن الحروف، ويرى من الأفكار القيّمة أن هذا الجهل بالحروف هو ما يمنع أولئك الناس من كتابة أي شيء، أو من أن يجيدوا محاولة ذلك فيما لو طُلِب منهم؟ وتعلن العناوين الصحفية أن «الأمية تمنع الكتابة» - فنتساءل ما إذا كنا قد أصبنا بجلطة دماغية خفيفة.

من المؤكد أن عدم وجود أعداد في لغتك سيجعل تعلم الرياضيات أمرا صعبا. ولكن افتقار اللغة إلى الأعداد ليس متغيرا مستقلا بالطريقة نفسها التي يكون بها امتلاك كلمتين مختلفتين للأزرقين الغامق والفاتح، أو قول «ليلة كبيرة» بدلا من «ليلة طويلة» من المتغيرات المستقلة. فبيراها تفتقر للأعداد لسبب: فثقافةٌ معزولة لمتصيدين لَقَطة[46] ليست

=ليس من قبيل العد الذي اعتاد عليه الناس، واعتادوا أن يستخدموه مع أطفالهم حينما يحاولون تعليمهم الأعداد. ومد كلمة «هاااااذا» تشير إلى طريقة تحدث الكبار مع الأطفال، وانتظارهم لهم لتخمين الكلمة المقصودة.

(46) المتصيّدون اللَّقَطَة/ hunter-gathers مصطلح يشير إلى نوعية من المجتمعات البدائية التي تعتمد في غذائها على جمع ثمار النباتات البرية،=

بحاجة لكلمة لـ 116، أو لتجري قسمة طويلة، أو لتتكهن بشأن طبيعة الصفر.

ولو كانت، على أية حال، بيراها هي اللغة الوحيدة التي تفتقر للأعداد، لكان هناك سبب لمعاملة ذلك باعتباره أمرا تصادفيا له عواقب تصادفية. أي أننا قد نفترض أنه توجد قبائل ليس لديها كلمات للأعداد، ولكنها ما تزال تعد إلى 7 أو 54 بصمت، إما بالأصابع، أو من خلال صف براعم صغيرة على الأرض. غير أن مجموعات المتصيدين اللَّقَطة الصغيرة، كما يمكن أن نتوقع، لا تملك في كثير من الأحيان أعدادا تتجاوز عدد اثنين أو نحو ذلك. ولا يذيع ذلك كثيرا، فقط لأن هذه المجموعات مجموعات صغيرة غير معروفة فيما وراء المكان الذي تقيم فيه. وكثير منها، في الحقيقة، تعيش في الأمازون. فليست المسألة أن افتقارا غريبا للأعداد في لغة مجموعة ما هو ما يجعلهم ضعافا في الرياضيات. بل الدرس المستخلص هو أن العد، بالنسبة للبشرية، أمرٌ كماليٌّ، رغم ما يبدو من جذريته بالنسبة لنا. فالسكان الأصليون من المتصيدين اللَّقَطَة لا يحتاجون للعد، ولذا فغالبا لا يوجد في لغاتهم كلمة للعدد (307)[47].

=ومطاردة الحيوانات البرية، في مقابل المجتمعات الزراعية التي تعتمد على المحاصيل المزروعة والحيوانات المدجنة.

(47) مقصد المؤلف هو أن مفهوم الأعداد صناعة حضارية. ومع ذلك فإن البشر يمكنهم الإحاطة الدقيقة بالأعداد الصغيرة لحد ثلاثة أو أربعة - وإن لم يوجد في لغاتهم كلمات دقيقة لهذه الأعداد - وتقدير الكميات الكبيرة تقديرا تقريبيا. وهذا من الكليات الإدراكية لدى البشر، مهما كانت =

ومن المثير أن تعرف ذلك، ولكن أن يُبنى عليه دعوى بكون اللغة «تشكل الفكر» فأمر تذروه الرياح. فعبارة «قبيلة من دون سيارات لا تسوق» تبدو كما لو أنها جزء من كوميديا «مونتي بايثون»[48]، كما تبدو، حقا، فكرة التعجب من كون الناس بلا أعداد لا يتمكنون من الرياضيات. فالثقافات تختلف، مثلا، في الدرجة التي يتفق أن تُعِدّ بها موسيقاها، أو فنونها، أو طعامها. إن الناس جميعا يمتلكون هذه الأشياء ويعتزون بها إلى حد ما، ولكن بعض المجموعات تأخذ الطِّباخة، مثلا، إلى مستوى أكثر غضارة وفتنة للجميع من غيرها. ولعلنا نأخذ إيطاليا في مقابل رومانيا مثلا. نعم، أدري أن للطعام الروماني لحظاته. وتعرض قوائم الطعام في نيويورك شيئا لم تتهيأ لي أبدا فرصة تناوله يسمى «ستيك روماني». وأيا يكن، [فشتان ما بينهما].

لنفترض أننا التقينا بقبيلة منهجها في الطعام منفعي نسبيا[49]، فوجدنا أن في لغتهم كلمة واحدة تشمل اللحم، والخضار، والنشويات،

=درجة وضعهم الحضاري، بل يوجد أيضا لدى الرضع والقردة العليا. وتوجد مناقشة موجزة لمسألة الأعداد في اللغات، بما فيها بعض اللغات الأمازونية الصغيرة التي يقال إنها تفتقر تماما إلى كلمات تدل على الأعداد، انظر الفصل السابع من كتاب «عندما تموت اللغات» لكي ديفيد هاريسون، ترجمة: محمد مازن جلال.

(48) فرقة «مونتي بايثون» فرقة كوميدية بريطانية مشهورة، لها العديد من المسلسلات والأفلام المليئة بالقفشات والطرائف اللغوية من شاكلة ما يعرّض به المؤلف.

(49) أي قائم على المنفعة الأساسية للأكل فحسب، من دون تلذذ أو تأنق في إعداد الطعام.

والفواكه. إن الشخص الذي يُبْعِد النجعة قائلا إن السبب في أن هؤلاء الناس ليسوا ذوّاقين هو أنه ليس لديهم كلمات لأنواع الطعام المختلفة من المحتمل أن يكون طفلا ذكيا، سنصحح كلامه بابتسامة ودودة[50]. فمن الجلي أن السمة الثقافية هي التي تخلق السمة اللغوية.

وذلك يعيدنا إلى أشياء مثل «قبيلة ليس لديها موسيقى بسبب افتقارها إلى آلات موسيقية». إن الانجذاب الحميم لدى كثير من الناس للفكرة القائلة بأن اللغة تشكل الفكر هو الذي يدفعهم إلى التعامل مع هذا النوع من الاستدلال باعتباره سويّا حينما يتعلق الأمر باللغة. ولقد عبر ستيفن بنكر عن ذلك تعبيرا صحيحا تماما: «إن الفكرة القائلة بأن الإسكيمو يولون اهتماما أكبر لأنواع الثلج لأن لديهم كلمات أكثر للثلج فكرة مقلوبة رأسا على عقب (هل يمكنك التفكير بسبب آخر يجعل الإسكيمو يهتمون بالثلج؟)، لدرجة أنه من الصعب التصديق أنها يمكن أن تُؤْخذ على محمل الجد لولا ما تمنحه من شعور بذكاء يسمو فوق الحس السليم».

---

(50) الأطفال معروفون بالانتباه إلى أشياء اعتباطية أو أنه اتفق وجودها بمحض الصدفة في اللغة، فيتخيلون أنها تدل على أشياء لا وجود لها. ومن أمثلة ذلك أن أحد أبنائي كان يعتقد، حينما كان صغيرا، أن «السويد» و«السودان» دولتان متجاورتان، وأن سكانهما متشابهون، لمجرد أن اسميهما متقاربان. وربما يكون ذلك من شاكلة الاحتجاجات التي يعرضها المؤلف، ويسخر منها هنا.

الأمر يعتمد على مكانك

ويصعب تجنب الحكم نفسه بشأن قضية كان غالبا ما يتم الترويج لها باعتبارها القضية التي يتعين على المتشككين التغلب عليها حينما بدأ العمل في الوورفية الجديدة يجذب اهتماما متزايدا يتجاوز علماء النفس الأكاديميين في أواخر التسعينيات من القرن الماضي. وكما هي الحال دائمًا، تبدأ الأدبيات بشيء لا ترغب في أن تمضي حياتك دون أن تطلع عليه، ولكنها تجنح بعد ذلك إلى ما يشبه آيس كريم الثوم.

هناك مجموعات في أستراليا لا يتصورون الأشياء باعتبارها موجودة أمامهم، أو خلفهم، أو عن يمينهم، أو عن شمالهم. بل يتصورونها باعتبار الشمال، والجنوب، والغرب، والشرق. دائما. وليس حينما يتجهون شمالا فحسب، ولا حينما يرد سبب يستدعي تحديد الوجهة بصراحة فحسب. فبالنسبة إلى مجموعة غوغو إمذر[51] (والاسم يعني في لغتهم تقريبا «التحدث بما يشبه ذلك»)، إذا كان هناك شجرة أمامهم وإلى جهة الشمال، فإنهم يقولون إنها شمالٌ منهم، وحتى لو استداروا فإنهم لا يقولون إنها خلفهم - بل يقولون إنها شمال، حيث لا تزال كذلك. والذي يكون أمامهم عندئذ هو الجنوب، وربما يصفون جدارا قد يكونون مواجهين له حينها بأنه «جنوب». وهذه هي الطريقة التي يصفون بها مكان الأشياء في الداخل، والخارج، وفي الظلام، وفي

(51) لغة غوغو إمذر/ Guugu Yimithirr من لغات السكان الأصليين في أستراليا، وهي أول ما كتب منها، وتنتمي لهذه اللغة كلمة «كنغارو» التي دخلت في اللغات جميعا للدلالة على الحيوان المعروف.

غرفة لم يدخلوها من قبل قط: فبإمكانهم دائما أن يتبينوا الأمر فورا أينما اتجهوا باعتباره شمالا، أو جنوبا، أو شرقا، أو غربا.

وذلك منطقي تماما، ولكنه فقط ليس ما نفعله نحن. فهنا حقا مثال مذهل للتنوع البشري. بيد أن الباحثين الذين يروّجون هذا المظهر عن غوغو إمذر يقولون إنه دليل مدهش على الوورفية. أي أنهم لا ينظرون إليه باعتباره شيئا مثيرا للاهتمام عن أهل غوغو إمذر من حيث كونهم بشرا، بل باعتباره شيئا مثيرا للاهتمام عن لغتهم. فالأمر بالنسبة لهم ليس أن متحدثي غوغو إمذر يعالجون الاتجاه معالجة مختلفة عن معالجة الآخرين - بل أن لغتهم تجبرهم على ذلك.

وما أشبه ذلك بقول: «قبيلة من دون كلمات للملابس لا يرتدون الملابس». تخيل أن يقال: بحسب ساينتفك أمريكان، «الدليل المراوغ سابقا على أن اللغة تشكل الفكر قد تم اكتشافه في بابوا نيو غينيا، حيث وُجِد أن قبيلة ستنابون، التي اعتادت على عدم ارتداء الملابس، تَظْهر لديهم هذه السمةُ لأن لغتهم ليس فيها كلمات للملابس». ما أبعد ذلك! - بل نفترض أن عدم ارتداء الملابس كان أولا، ومن ثم فإن اللغة بصورة عادية لم تطور كلمات للملابس.

وعلى هذا النحو، فإن الشخص المتحدث لغوغو إمذر يعالج الاتجاه بالطريقة التي يعالجه بها لأن بيئته تجبره على ذلك. وأما الجزء اللغوي فمجرد نتيجة. وما من شك أن هذه لغةٌ قلما تحثّ الشخص على أن يفكر في «خلف» و«بجانب». ولكن تماما كما أن لدى الإسكيمو سببا للتركيز على الثلج، فإن لدى غوغو إمذر سببا للاعتماد بشكل

كبير على الإحداثيات الجغرافية: فهم يعيشون على أرض مستوية في الأدغال. والحق أن هذا النوع من التقدير شائع في اللغات الأسترالية للسكان الأصليين.

ولستُ أول من يرى الأمر على هذا النحو، ولكن المدافعين يصرّون على أن اللغة يجب أن تكون هي القوة الموجهة لأنه توجد ثقافات مماثلة لا تعتمد على الإحداثيات الجغرافية[52]. ويفترضون أن ذلك يعني أن الثقافة لا يمكن أن تكون هي ما يخلق هذا التوجه، مما يترك اللغة بمثابة المبدأ لكل ذلك. غير أن هذا الاحتجاج لا يمكن أن يصمد عند المحاكمة.

فلم يدّع أحد أبدا أن سمة ثقافية معينة لا بد أن تعبر عن نفسها دائما في لغة المجموعة. ولو كان الأمر كذلك، لكان لكل لغة تتحدثها مجموعة ذات شعور قوي بالطبقية الاجتماعية سبع طرق لقول «أنت» - بما فيها اللغات الأوروبية الإقطاعية. ولكن لم يتم أبدا تسجيل لغة أوروبية واحدة على هذه الشاكلة.

إن كل ما يبينه الدليل هو أن الناس المشابهين لمتحدثي غوغو إمذر يعالجون العالم بالطريقة التي يعالجونه بها بسبب بيئتهم، لا بسبب لغتهم. وليس الأمر أيضا، كما قد يظن البعض، من قبيل مسألة البيضة والدجاجة حيث يكون الطرفان على حق. **والمستند أ**: لا توجد لغة مشابهة للغة غوغو إمذر تُتكَلم، على سبيل المثال، في غابة أو في

(52) لقد تطرق لذلك غاي دويتشر في مقالته الملحقة في خاتمة هذا الكتاب، وبتفصيل أكثر توسعا في الفصل السابع من كتابه «عبر منظار اللغة».

مدينة. فالناس لا يعتمدون على الاتجاهات الجغرافية إلى هذا الحد إلا في البيئات التي تجعل ذلك أمرا ملحّا بالطبيعة. فلا يوجد أناس محاطون بالبنايات والطرق من أمامهم ومن خلفهم ويصرون بشكل غريب على النظر فيما يتجاوزها ليقولوا «شمال» و«جنوب».

والمستند ب: من الموثّق أن هذا التوجه الجغرافي ينهار بسرعة، فيما بين أجيال غوغو إمذر الذين ينشؤون خارج بيئاتهم الأصلية - وقد حدث ذلك فيما يبدو مع عدد لا يحصى من مجموعات السكان الأصليين. فمرة أخرى، ما يدفع إلى هذه الطريقة من الكلام هو مكان متحدثي اللغة، لا اللغة نفسها.

ولكن ألا يمكن أن يكون للغة دور؟ هذا ممكن، غير أن الدلائل تشير إلى عدم وجود ذلك على نحو مهم. فثمة لغات، مثلا، تفهرس جوانب البيئة بطرق أخرى. ففي لغة تزيلتال المایاوية[53] في المكسيك،

---

(53) لغة تزيلتال/ Tzeltal إحدى لغات شعوب المايا في أمريكا الوسطى، ويتجاوز عدد متحدثيها حاليا 350 ألف شخص في جنوب المكسيك، ويقطنون في منطقة جبلية تنحدر من الجنوب باتجاه الشمال. وتَستخدم هذه اللغة في تحديد الاتجاهات والمواضع كلمات: «ajk'ol» التي تنطق «أهكأول» وتعني «بالمرتقى» أو «صُعداً»، و«alan»، التي تنطق «ألان» وتعني «بالمنحدر» أو «حُدُرا»، و«jejch» التي تنطق «هِهس» وتعني «بالمثناة» أو «بالمعترض». وتُستخدم هذه الكلمات استخدامات متعددة ومعقدة نحويا ودلاليا، فهي تُستخدم باعتبارها أسماء أحيانا، وباعتبارها ظروفا أحيانا أخرى، وتدل على الاتجاه إما بشكل مطلق، أو بالنسبة إلى المتحدث أو المخاطب أو مرجع آخر، على نحو يشبه استخدامنا لكلمتي «فوق» و«حدر» و«بالمثناة» في بعض لهجاتنا المحلية لتحديد الاتجاه=

يشير المرء إلى «المرتقى» و«المنحدر» و«المثناة» وإلى أسماء الأماكن بدلا من «أمام» و«خلف» ونحوها. وسيهبّ الجماح الوورفي قائلا: «ما أروعها من لغة توجه متحدثيها إلى التفكير بهذه الطريقة!». ولكن مما يهمنا، على نحو أكثر مسايرة للبديهة، أن نعرف أيضا أن متحدثي تزيلتال يعيشون على سفح جبل.

وفي حين قد يحاول البعض هنا إنقاذ التحليل الوورفي عن طريق إيجاد مجموعة من الناس يعيشون على سفح جبل في مكان ما، ومع ذلك يتحدثون بمعايير اليسار واليمين - «اللغة تحدد نمط الفكر» - فإن هناك مجموعة أخرى تغلق القضية إلى حد كبير لصالح الادعاء. فالمستندج بناء على ذلك: تعيش تزوتزيل[54] بجوار تزيلتال في نفس البيئة من سفح الجبل. وكما قد تخمن من تشابه الاسمين (فلا بد للمرء أن يعترف وهو يشعر بالذنب أن المجموعتين تبدوان كمجموعتين خلقهما د. سيوس[55])، فإن تزيلتال وتزوتزيل في أساسهما تنويعتان للغة واحدة: فواحد، واثنان، وثلاثة في تزيلتال هي: «hun، cheb،

=بحسب مجاري السيول، ولكن الفرق أنه لا يوجد في هذه اللغة أي طريقة أخرى لتحديد الاتجاه والموضع، فلا يوجد فيها مثلا ما يدل على «الشمال» أو«الجنوب» ولا «اليمين» أو«اليسار»، ولا «الأمام» أو «الخلف».

(54) تزوتزيل/ Tzotzil لغة أخرى من لغات شعوب المايا، يتحدثها قريب من 330 ألف شخص في جنوب المكسيك أيضا.

(55) د. سوس كاتب ورسام كرتون أمريكي، اشتهر بكثير من أفلام الكرتون الموجهة للأطفال التي تحتوي على كثير من الشخصيات الطريفة والأماكن الخيالية. ومقصد المؤلف هو أن اللغتين اللتين يتحدث عنهما لغةُ واحدة في الحقيقة، واعتبارهما لغتين أشبه بالأمر المختلق.

oxeb» وفي تزوتزيل، هي: «jun، chib، oxib». ومع ذلك، فإن تزوتزيل تختلف عن تزيلتان في أنّ متحدثيها يستخدمون اليمين واليسار والأمام والخلف لغويا - غير أنك إذا أخضعتهم لتجربة نفسية، يتبين أنهم يعالجون الاتجاه تصوريا بمعايير الإحداثيات الجغرافية مثل متحدثي تزيلتال وغوغو إمذر.

فلو قُدِّم لأشخاص من تزوتزيل ثلاثة أشياء موضوعة في صف واحد على طاولة، ثم طُلِب منهم أن يستديروا إلى طاولة خلفهم، ويرتبوا الأشياء «بالطريقة نفسها»، فإنهم سيضعونها بطريقة قد نعتبرها مقلوبة، كما لو كان ترتيب الأشياء على الطاولة الأولى منعكسا. فالعالم بالنسبة لهم لا يتغير حينما يتحركون - تماما كما هي الحال مع تزيلتال في التجربة نفسها. إن ما يشترك فيه متحدثو تزيلتال وتزوتزيل هنا هو الثقافة، لا ما تجعلهم اللغة - وهي واحدة من الناحية العملية - يفعلونه[56].

---

(56) تحدث غاي دويتشر عن التجارب القائمة على قلب الطاولة بشكل موسع في كتابه «عبر منظار اللغة» (انظر ص196 من الترجمة العربية)، ولكنه لم يتطرق أبدا إلى التجربة المناوئة التي يذكرها المؤلف هنا! وملخص التجربة أن يُعْرض على المبحوثين ثلاثة مجسمات لأشياء مختلفة في صف واحد على طاولة معترضة أمامهم، ثم يُطلب منهم الاستدارة إلى طاولة أخرى خلفهم، ويطلب منهم ترتيب المجسمات كما كانت. فبعضهم يرتبها بحيث أن ما كان على يمينه يظل على يمينه، وما كان على يساره يظل على يساره، بغض النظر عن التحول الحاصل في الجهة الجغرافية. وبعضهم لا يراعي ذلك، بل يرتبها بحيث أن ما كان في جهة الشمال يظل في نفس الجهة، ولو تحول من يمينه إلى يساره. والحق أن التجربة المناوئة تبين أن=

إن المنظر الخلاب متعلق بالعالم، لا بما تجعلك اللغة تراه فيه. معالجة الاتجاه جغرافيا شيء متعلق بالثقافة، وهو ما يمكن أن يحدث سواء أكان متغلغلا في اللغة أم لا. وجعل ذلك من قبيل كون اللغة تشكل الفكر قد يبدو مقبولا بالنسبة إلى تزيلتال، ولكنه ينهار حينما نوسع دائرة الصورة قليلا ونستحضر تزوتزيل. وجعل ذلك من قبيل كون اللغة تشكل الفكر قد يبدو مقبولا بالنسبة إلى غوغو إمذر، ولكنه ينهار حينما نوسع دائرة الصورة قليلا ونستحضر عددا افتراضيا من مجلة ذا أونيون[57] بعنوان: «قبيلة بلا أرجل، لا تستطيع المشي، لأنهم لا يملكون كلمة تدل على المشي».

أمي، الحديقة يغطيها السنجاب! هل يمكنني الذهاب لتغذية بعضها؟

وهكذا دواليك. فلم أطلع على دراسة من دراسات الوورفية الجديدة لا يصدق عليها أحد هذين الأمرين: فإما (1) أنه يصعب تبين أي علاقة لها بالوضع البشري؟ أو (2) أن الادعاء كله يشبه القول بأن افتقار قبيلة لكلمة (عِجْل) هو سبب عدم تربيتهم للماشية؟ إن الدراسات نفسها لمثيرة للاهتمام دوما، ولكنها إن كانت تبين

=متحدثي الإنجليزية أنفسهم يمكن أن يرتبوا الأشياء بأي من الطريقتين، تبعا للظروف المختلفة، فلا شأن للغة بذلك. ولكن المساحة لا تسمح هنا بالتفصيل.

(57) مجلة تنشر مقالات ساخرة فيها تعليق على الأحداث الجارية بعناوين مضحكة.

شيئا من قبيل العدسات المختلفة في الحياة، فإن اختلاف العدسات أشبه بالاختلاف بين العدستين اللتين يعرضهما عليك أخصائي النظارات أثناء فحص النظر، حيث يتعين عليه التبديل بين النظارات عدة مرات لتقرر ما إذا كانت رؤيتك أفضل بهذه أو تلك، لأن اللوحة تبدو حقا متماثلة بهما معا. فيقول: «هذه أفضل أم هذه أفضل؟ هذه أفضل أم هذه أفضل؟». فيمثمث المرء: «حسنا، آه..» E. ،T X P R E ،GJNBC[58]... «أهذه أفضل أم هذه؟» - وأنت في الواقع سترى الحياة بالطريقة نفسها بأي نظارة مزودة بأي من العدستين.

إن ثنائي على هذه الدراسات في حد ذاتها ليس مجاملة مداهِنَة. فهناك، على سبيل المثال، عمل عن اليابانية حظي باهتمام أقل مما ينبغي، لأنه جاء قبل مصادفة التقاط وسائل الإعلام للوورفية الجديدة. وهي توضح تماما كيف يمكن أن تكون الوورفية الجديدة عملا عظيما، رغم أنها تقدم القليل، أو لا شيء، للمتولعين بالأسرار.

إنك في اليابانية حينما تتحدث عن عدد شيء معين، فلا بد أن يكون العدد مصحوبا بلاحقة صغيرة. وتختلف اللاحقة بحسب نوع الشيء أو مادته. فكلمة «اثنان» في اليابانية تنطق «ni/ ني»، و«كلب» تنطق «inu/ إينو». غير أن «كلبين» لا تكون «ni inu/ ني إينو»، بل «ni-hiki no inu/ ني - هيكي نو إينو». فاللاحقة «hiki/ هيكي» تُستعمل حينما تتحدث عن حيوان صغير مستعملا العدد. ولكنك إن أردت قول «بِيْرَتَين [أي قارورتي بيرة]»، فإن قول «ni biru/ ني بيرو»

(58) المقصود بهذا هو الحروف التي تكون على لوحة فحص النظر.

سيكون غير مكتمل، وقول «ni-hiki no biru/ ني - هيكي نو بيرو» سيجعل البيرة حيوانا صغيرا. والمرء لا يربت على البيرة، ولا يعلفها، ولا يلطمها. فالصحيح أن تقول «ni-hon no biru/ ني - هون نو بيرو»، لأن «hon» تستعمل للأشياء المديدة المستدقّة كالقوارير.

والمعنى الحرفي لذلك في اليابانية هو «مخلوقان صغيران من كلب» و«ضُمُوران من قارورة». فـ «كلب» و«قارورة» يُعاملان في اليابانية معاملة الماهيات، تماما كما نقول في الإنجليزية [والعربية] «two ounces of water/ أوقيتان من ماء»، أو «three pounds of meat/ ثلاثة أرطال من لحم»، غير أنه يتعين عليك في اليابانية أن تفعل ذلك مع جميع الأسماء حينما تكون مصحوبة بعدد[59]. وبعض الأسماء فقط تكون من قبيل الماهيات في الإنجليزية: فنقول «three pounds of meat/ ثلاثة أرطال من لحم»، ولكننا نقول: «I have two desks in my office/ لدي منضدتان في مكتبي»، وليس «I have two woodnesses of desk in my office/ لدي ثلاث خشبات من منضدة في مكتبي»[60]، ونقول

(59) هذا في العربية يشبه التمييز الذي يستخدم للدلالة على الجنس في العدد والمقدار كما في «اشتريت رطلين لحما» أو «رطلين من لحم». ومن أمثلة المصنفات في العربية أنه لا يمكنك أن تقول: «*اشتريت أربع أثاثات»، بل «اشتريت أربع قطع من الأثاث». أما في اليابانية فيستخدم ذلك في كل اسم يصحبه عدد، ولكل نوع من أنواع المعدودات لاحقة معينة تخصه كما وضح المؤلف.

(60) غيرت الجملة العربية إلى «ثلاث خشبات» تجنبا لاستعمال المثنى فهو غير مقصود هنا، لأنه لا وجود له في الإنجليزية ولا اليابانية أيضا.

«there are a lot of acorns/ يوجد الكثير من الجوز»، وليس «behold, there are many seednesses of acorn/ انظر، يوجد حبوب كثيرة من جوز». وأما في اليابانية فإن استعمال «خشبات» و«حبوب» هو الوضع الطبيعي كلما كان هناك عدد.

وتوجد العشرات من هذه اللواحق في اليابانية. وإتقانها - بعد التعود على الترتيب المختلف للكلمات(61) - من أصعب الأشياء بالنسبة لمتحدثي الإنجليزية، لأن تحديد اللواحق التي يتعين استعمالها مع كل اسم قد يكون اعتباطيا بعض الشيء. فهل القوارير حقا ممتدة مستدقة بالطريقة التي تكون بها أقلام الرصاص كذلك؟ وحينما تكتشف أن «hon» لابد أن تُستعمل أيضا مع المكالمات الهاتفية والأفلام، فإن عليك أن تبتلع ذلك فحسب(62).

وتسعى الوورفية، على أية حال، إلى معرفة ما إذا كان لهذه الخاصية النحوية، حيث يوسم كل شيء باعتباره ماهية كيانية لا شيئا متجسما، أي انعكاس وراء ذلك. وإنها لكذلك. ففي تجربة هي بالتأكيد أزكى تجارب الوورفية رائحة حتى الآن، عرضت موتسومي إيماي ودفري جنتري على المبحوثين تجميعات ثلاثية من الأشياء، مثل: كتلة على

---

(61) ترتيب الكلمات في الجملة اليابانية هو: فاعل، مفعول، فعل. فالفعل يأتي في نهاية الجملة. وإتقان ذلك يصعب على من يكون ذا لغة لها ترتيب مختلف للكلمات.

(62) ما يقصده المؤلف هنا هو أن اللاحقة «hon» في العدد تستخدم في القوارير وأقلام الرصاص والمكالمات الهاتفية والأفلام رغم ما بينها من اختلاف كبير يجعلها لا تنتمي إلى جنس واحد.

شكل C من النيفيا (هل سبق لك أن شممتَ النيفيا، لطالما اعتقدت أنها من الجنة)، وكتلة على شكل C من دبتي - دو (جِلّ شعرٍ كان أكثر رواجا فيما مضى، رائحته جيدة أيضا، رغم أنهم يروجون في الوقت الحالي لنوع غير معطر منه)، ونقط صغيرة متناثرة من النيفيا. أو مثل: عصّارة ليمون خزفية، وعصّارة ليمون خشبية، ثم بعض من القطع الخزفية (وهي ذات منظر رائع).

نعم، كل ذلك له علاقة بالوورفية. فبسؤال الأطفال عن الشيئين المتلائمين من بين الثلاثة، كان الأطفال اليابانيون أكثر ميلا إلى تجميع كتلة النيفيا مع قطراتها الصغيرة، في حين كان الأطفال الأمريكان أكثر ميلا إلى تجميع كتلتي النيفيا والدبتي - دو المشكّلتين على نحو متشابه. ورأى الأطفال اليابانيون أن عصّارة الليمون الخزفية تشكل زوجا مع قطع الخزف، في حين قام الأطفال الأمريكان بتجميع العصّارتين وتركوا كِسَر الخزف الجوفاء جانبا. فالأمريكان يصنّفون بحسب الشكل، واليابانيون بحسب المادة.

وهذا هو أكثر الأشياء متعة، لأنك إن كنت أمريكيا فستشعر بيقين تقريبا أن الاختيار الأمريكي هو الأكثر طبيعية، حتى لو كنت ترى مغزى اختيار الأطفال اليابانيين. فالنيفيا تكون مع النيفيا، حسنا، هذا مؤكد!. ولكن بالنسبة لأمريكي، فإن الذي «يلوح» أكثر - نوعا ما - هو كون كتلتي النيفيا والدبتي - دو متشكلتين تشكّلا متماثلا.

ومن يدري فربما كان الناس الذي يتحدثون لغات تعمل أعدادها بالطريقة التي تعمل بها اليابانية - حينما يسمعون عن مثل هذه

التجارب - يميلون إلى اعتبار التجميع بحسب المواد أكثر بداهة. بل إن هذا قد أُكِّد علميا في تجارب أجريت على لغات أخرى تعامِل الأشياء كلها معاملة الماهيات. فقريبا من لغتي تزيلتال وتزوتزيل في المكسيك توجد قريبتهما لغة «يوكاتك»[63]، ولدى متحدثيها لواحق للأعداد كاليابانية. وقد قام 8 من 10 منهم، حينما أُعطوا ورقةَ علبةِ شريطِ كاسيتٍ (كان ذلك في الثمانينات)[64]، بجمعها مع قطعة صغيرة من الورق المقوى، في حين قام 12 من 13 من متحدثي الإنجليزية بجمعها مع العلبة البلاستيكية. فذهب متحدثو لغة «يوكاتك» بحسب المادة، في حين ذهب متحدثو الإنجليزية بحسب الشكل.

ولا يمكن للمرء أن يقيّم الوورفية من دون أن يكون مطلعا على دراسات كهذه. ومع ذلك فلا بد من العودة إلى الصورة الكبرى. فمن الواضح أن تجربتي اللغتين اليابانية ويوكاتك تُظْهِران أن اللغة يمكن أن تشكل الفكر. والسؤال هو ما المقصود بالفكر؟. إذ يسعى كثيرون إلى قراءة تجارب كهذه باعتبارها تلقي الضوء على قضايا أكبر: عن واقع الحياة، والحالة الإنسانية. ولكن ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك حقا استنادا إلى بيانات من هذا النوع؟ فلا بد أن يبلغ أي فرق في الفكر

---

(63) لغة يوكاتك/ Yucatec هي أكبر لغات المايا، إذ يزيد عدد متحدثيها في جنوب المكسيك على 800 ألف شخص.

(64) الورقة المقصودة هنا ورقة تصنع على شكل خاص يسمح بأن تستخدم كظِهارة لأغلفة أشرطة الكاسيت، لتكتب عليها معلومات الشريط. وربما لن يفهم المقصود من لم يتعامل مع أشرطة الكاسيت التي كانت تقنية شائعة جدا في السبعينيات والثمانينيات، وانقرضت الآن.

حجما معيّنا لكي يستحق من الناحية الواقعية أن يكون «رؤية مختلفة للعالم».

فهل يوجد أي شيء قد فعله شخص ياباني على مدى 1800 عام، منذ أن بدأ استخدام عيدان الطعام في ذلك البلد، أو هل يوجد الآن أي شيء مما يفعله بعيدان الطعام شخصٌ من اليابانيين البالغين 125 مليونا، أو هل يوجد أي شيء سيفعله أو حتى يفكر فيه بالنسبة لعيدان الطعام شخصٌ سيصبح يابانيا يوما ما، يمكن أن يبدو حتى ولو من بعيد عائدا إلى التفكير بعيدان الطعام باعتبارها ماهية لا شيئا؟ أي ما التأثير، مهما كان نوعه، الذي يمكن أن يكون قطّ لهذه السمة الذهنية على سلوك الشخص الياباني، أو نظرته، أو صحته، أو مهارته الجدلية، أو حساسيته الفنية، أو نشاطه الجنسي، أو أي شيء يتعلق به على الإطلاق؟ «يا إلهي، إن هذه الغرفة لمزدانة تماما بالأعوادية»[65].

إلى أي شيء يجب أن نوجه تجاربنا اللاحقة لمعرفة كيف تؤثر هذه التغضّنات الوورفية على الحياة والناس كما نعرفهما؟ لا يسع المرء إلا أن يلاحظ مدى قلة وجود مثل تلك التجارب في الواقع فيما يبدو. وإن كان ثمة شيء ينم في مكان ما، وبطريقة ما، بأن اليابانيين يفكرون في عيدان الطعام باعتبارها ماهية كالماء والجنس، على نحو

(65) مقصد المؤلف أن اليابانيين لا ينظرون إلى عيدان الطعام وما يشببها من الأشياء الموجودة في الواقع نظرتهم إلى الماهيات، ولا يقولون مثل هذه الجملة، كما نقول مثلا «هذه الغرفة مليئة بالأثاث»، حتى ولو أظهرت التجارب الدقيقة وجود شيء من الميل عندهم إلى تصنيف الأشياء بحسب ماهياتها.

ضئيل وغامض للغاية - من النوع الذي من المحتمل أن يجد الباحثون أنفسهم صعوبة في الاتفاق - فلماذا، بالحق، يجب أن يشغل اهتمامنا على المدى الطويل؟

إن كل دراسة وورفية تشير إلى تأثير على «رؤية العالم» أقل تلاشيا من ذلك تواجه مشكلة. إن «الشهر المقبل/ next month»، على سبيل المثال، في الماندرين الصينية هو «الشهر الأسفل» و«الشهر الماضي» هو «الشهر الأعلى». فهل يعني ذلك أن الصينيين يفكرون بالزمن باعتباره يمتد امتدادا عموديا لا أفقيا؟ قد يكون ثمة «رؤية للعالم» هنا - وبحسب ما تقوله ورقةُ لعالمة النفس في جامعة ستانفور ليرا بورودتسكي (التي التقينا بها آخر مرة في الحديث عن الزرقة في الروسية) فإن الصينيين يشعرون حقا بالوقت باعتباره صعودا وهبوطا، وغالبا ما ترد هذه الدراسة في المحادثات المتعلقة بوجاهة الوورفية. لقد كان متحدثو الماندرين، في تجربة بورودتسكي، أسرع في الإجابة عن سؤال مثل «يسبق أغسطس أكتوبر» حينما يكونون قد شاهدوا للتو أشياء متوجهة عموديا (كرة فوق أخرى، مثلا)، منهم بعد مشاهدة أشياء متوجهة أفقيا (ديدان تتبع إحداها الأخرى، مثلا). غير أنني ألحظ غالبا أن الصينيين الذين أسألهم عن ذلك يقولون بأنهم لا يشعرون بالوقت كما لو كان يجري صعودا وهبوطا، ولقد اتفق أن عددا من الباحثين لم يكونوا قادرين على معاودة نتائج بورودتسكي[66]. ومن أكثر الأشياء

(66) المعاودة/ replication هي تكرار التجربة على مبحوثين آخرين، واستعادة النتائج نفسها. والمعنى أنه لم يستطع أحد من الباحثين الحصول=

دلالة، أن أداء متحدثي الإنجليزية بالنسبة إلى جمل مثل «أغسطس يسبق أكتوبر» كان متساويا تقريبا في إحدى الدراسات سواء أكانوا قد رأوا للتو كرات مرتبة عموديا أو ديدانا تزحف أفقيا.

ولأن التخلي عن فرضيةٍ بعد أول وابل من النقد سيكون غير علمي، صقلت - كما هو متوقع - بورودتسكي آلياتها التجريبية. فطُلِبَ من المبحوثين في النسخة الأخيرة أن يضغطوا على زرّي قبل/ بعد المرتبين إما عموديا أو أفقيا على سبيل الاستجابة لبعض الصور (مثل صورة وودي آلان في صغره وبعد كبره)[67]. فكان متحدثو الماندرين أسرع حينما يكون الزرّان مرتبين عموديا، على نحو يضارع تعبيرات الزمن في لغتهم.

ولكننا نعود إلى السؤال عن مبلغ «أسرع» هذه وما الذي تعنيه؟ وقد كان متحدثو الماندرين أسرع بـ 170 مللثانية في ضغط «الأعلى» لتحديد الأسبق. وهي نتيجة معتبرة دون شك. ولكن كان متحدثو الإنجليزية أسرع بنحو 300 مللثانية في ضغط ما تَسِمُه لغتهم باعتباره الأسبق، أي «الأيسر» قبل «الأيمن». بل حتى متحدثو الماندرين

=على النتائج التي حصلت عليها بورودتسكي رغم أنهم طبقوا التجربة نفسها.

(67) وودي آلان ممثل كوميدي معروف، والمقصود هنا هو أنْ تُعرض على المبحوثين صورتين لشخص يعرفونه، واحدة تلو الأخرى، فيقررون إن كانت الصورة الثانية بعد الأولى من الناحية الزمنية أم لا، بالضغط على زرين أحدهما يدل على (قبل) والآخر يدل على (بعد)، ومرتبين في إحدى المجموعات ترتيبا أفقيا، وفي مجموعة أخرى ترتيبا عموديا. وكل مجموعة منهما تتضمن معا عددا من الناطقين بالماندرين والإنجليزية.

ضغطوا على «الأيسر» باعتباره أسبق بما يقرب من 230 مللثانية أسرع - وهو أمر متوقع، إذ إن التوجه الزمني ليسار - يمين موجود إلى جانب أعلى - أسفل في الماندرين. وبذا، فإن متحدثي الإنجليزية قد سجلوا طريقة لغتهم تسجيلا أسرع من تسجيل متحدثي الماندرين لطريقة لغتهم - ومن يدري ما السبب؟ - ولكن حتى متحدثو الماندرين سجلوا الطريقة الإنجليزية تسجيلا أسرع من تسجيلهم لطريقتهم الرئيسية.

إذن نحن لسنا على دراية بأن الصينيين «يعايشون الزمن على نحو عمودي»، بل إنه لمن الواهن أيضا أن نقول بأن معايشتهم للوقت «عمودية بصورة أكبر»[68]، بمعنى يجعلهم يفعلون ذلك على نحو قطعي، فالعادة الذهنية، إن أردنا الصراحة، تشجع على انزلاق هذا التقييم الملطف إلى التقييم الأسهل، وهو: «يشعر متحدثو الماندرين بالوقت باعتباره صعودا وهبوطا»، وانتهى. إن ما تظهره الدراسات هو أن متحدثي الماندرين يستشعرون الوقت على نحو أفقي، مع وجود قابلية كامنة لاستشعاره على نحو عمودي، يمكن أن تُسْتَخرج بواسطة التجريب الدقيق جدا جدا.

فهل هذه الاختلاجة الثانوية الكامنة تشكل «رؤية للعالم»؟ لتقرير ما إذا كان الأمر كذلك أم لا لابد أن نسأل: إلى أي مكان في الأرض يشير متحدثو الماندرين بعنفوان حينما يقولون: «أوه، إن ذلك لن يكون جاهزا لسنوات وسنوات؟»[69].

---

(68) وهذا ما قالته بردوتسكي والباحثون معها في التجربة التي يشير إليها المؤلف هنا، وسيحيل إلى بياناتها في هوامش هذا الفصل.

(69) المؤلف يسخر هنا، ومتحدثو الصينية لا يفعلون ذلك بطبيعة الحال.

اللغة متعلقة بنا جميعا

ومع ذلك، لا ينكر أحدٌ أن الثقافات البشرية متنوعة جدا، ولا ينكر أي شخص أن هذا التنوع يعني أن البشر المنتمين للمجموعات المختلفة يعايشون الحياة معايشة مختلفة. بيد أن بنية اللغة ليس ما يخلق هذا الاختلاف في المعايشة. ولا شك أن الثقافة تتسرب إلى اللغة من فجوة أو أخرى. ولم لا، فالذين يتحدثون اللغة أناس ذوو ثقافات؟ بيد أن اللغة هي التي تعكس الثقافة، من ناحية المصطلحات، بطبيعة الحال، وكذلك من ناحية أشياء مثل المستويات التوقيرية للضمائر، والمناحي الجغرافية لِمَوْضَعة النفس. ولكن الضمائر والتعبيرات الموقعية، هي نفسها، مصطلحات على نحو معين. فهي تابعة لما تكون عليه الحياة بالنسبة لمتحدثي لغة معينة.

إن ما لا تفعله اللغة هو أنْ تشكّلَ الفكرَ بذاتها، من ناحية تقسيمات الجنس الخالية من المعنى من شاكلة ما يجعل الشُّوَك مؤنثة، والملاعقَ مذكرة، والسكاكين شيئا فيما بينهما في الألمانية (die Gabel/ الشوكة، der Löffel/ الملعقة، das Messer/ السكين[70])، أو من ناحية الكيفية التي يرى بها الناس الألوان في العالم، أو من ناحية ما إذا كنا نرى القطة باعتبارها كتلة من الظرافة بالطريقة نفسها التي نرى بها كرة بيضاء ذات رائحة بهية باعتبارها كتلة من النيفيا. إن كل المحاولات

(70) تتغير أداة التعريف في الألمانية بحسب الجنس النحوي للاسم المعرف، فهي مع الاسم المذكر (der)، ومع المؤنث (die)، ومع المحايد (das)، والملعقة مذكر، والشوكة مؤنث، والسكين محايد فأخذ كل اسم منها أداة التعريف المناسبة له في الأمثلة أعلاه.

للعثور على خلاف ذلك كانت عبية. وحتى لو استطعت، إن جاز التعبير، أن تحتال على شخص ليكشف عن شيء ضئيل وغريب من التحيز في تجربة دقيقة ومصطنعة بشكل مدروس، فإنه لا علاقة لهذا التحيز الضئيل جدا بأي شيء يمكن لأي عالم في النفس، أو الإناسة، أو السياسة أن يبيّنه لنا بشأن الكيفية التي يدبّر بها الناس المقصودون الوجود.

وإياك أن تخطئ: فاللغات كالثقافات تختلف اختلافا هائلا، على نحو يتجاوز كثيرا السمات المصطلحية التي تنساق إليها من الثقافات. ولقد كتبتُ عن مدى اختلاف اللغات اختلافا كبيرا، وسنرى شيئا من ذلك في الفصول التالية. ودرجة التباين مذهلة حقا: فثَمّ لغاتٌ ليس فيها إلا حفنة من الأفعال فقط (ككثير من اللغات الاسترالية)، ولغاتٌ ليس فيها أفعال منتظمة (كلغة نافاهو[71])، ولغاتٌ يختلف فيها معنى الكلمة تبعا لتسع نغمات مختلفة تنطقها بها (كالكانتونية[72])، ولغات ليس فيها إلا عشرة أصوات (كلغة بيراها، مرة أخرى[73])، ولغات ذات جمل كاملة لا تحتاج إلا إلى كلمة واحدة لنطقها

(71) من لغات شعوب الأباتشي في أمريكا الشمالية، سبق التعريف بها، وسيعود المؤلف إلى الحديث عنها عدة مرات.

(72) لغة صينية تختلف نوعا ما عن الماندرين، ويتحدثها قريب من 72 مليون شخص في جنوب شرق الصين، وبعض الدول الآسيوية الأخرى.

(73) لغة بيراها تحدث عنها المؤلف سابقا، في سياق مناقشته للأعداد، إذ لا يوجد في هذه اللغة سوى (واحد) و(اثنين)، وهي لغة على وشك الانقراض إذا لا يزيد عدد من يتحدثها عن 360 شخص فقط.

(كلغات الإسكيمو)، ولغات فيها عشرات الأصوات التمطقية (هل قرأت مرة عن لغة «الكونغ/ kung» و«شعب بوشمن» في درس الإناسة؟ إن كلمة «كونغ» في الحقيقة نطق غربي كسول مكان لـ (Xûû!) حيث يعبر الرمز ! عن الصوت التمطقي[74])، ولغات ليس فيها زمن نحوي على الإطلاق (كلغة مايبرات في نيو غينيا[75])، ولغات فيها مئتا جنس (كلغة ناسيوي[76]، في نيو غينيا أيضا)، ولغاتٌ ليس فيها لاحقة للزمن الحاضر إلا للمفرد الغائب (الإنجليزية[77]).

ولكـن العجب هو كيف أن هذه اللغات في تنوعها هذا كله تعبر عن الأساس البشري نفسه. وما الجوانب الثقافية إلا زخارف متناثرة. وقد يبدو ذلك ساذجا لكثيرين - إلى أن يتمعّنوا فيما يعنيه تعلم لغة

(74) الكونغ لغة مكونة من لهجات متعددة تتكلمها قبائل متعددة في جنوب أواسط أفريقيا، والصوت التمطقي/ click sound صوت ينطق عن طريق جذب الهواء، وله أنواع مختلفة، بعضها يشبه صوت التمطق الذي يستخدمه الناطقون بالعربية للتعبير عن الانزعاج أو استنكار شيء ما، وبعضها يشبه الصوت الذي يستخدم لسوق الدابة الحارن، وبعضها يشبه صوت الطقطقة التي تنشأ عن قرع اللسان بسقف الحنك.

(75) لغة مايبرات/ Maybrat لغة معزولة يتكلمها قريب من 20 ألف شخص في الجزء الغربي التابع لأندونيسيا من جزيرة نيو غينيا.

(76) لغة ناسيوي/ Nasioi تقع في دولة بابوا نيو غينيا التي تحتل الجزء الشرقي من جزيرة نيو غينيا، وهذا الدولة تتضمن أكبر عدد من لغات العالم، إذا يوجد فيها ما يقرب من 820 لغة، تنتمي إلى 50 أسرة لغوية مختلفة، رغم أن عدد سكانها لا يتجاوز خمسة ملايين ونصف.

(77) يشير إلى القاعدة المعروفة في الإنجليزية التي تتطلب إلحاق (s) بالفعل حينما يكون مسندا في الزمن الحاضر إلى فاعل مفرد غائب.

ما، حيث يصبح واضحا كم هو ثانوي الجانب الثقافي من اللغة. فما المقدار الذي كان «ثقافيا» من الإسبانية أو الروسية أو الصينية التي شققت طريقك نحوها؟

إنْ أردت أن تعرف مبلغ اختلاف البشر، فادرس الثقافات. أما إذا أردت أن تتبصر فيما يجعل جميع البشر في العالم أجمع متماثلين، فإنه لا يوجد، فيما عدا الجينات، موضعٌ لتبدأ منه أفضل من الكيفية التي تعمل بها اللغة. وسنرى السبب في الفصول اللاحقة.

يجب علينا، في ضوء ذلك، أن نعيد النظر في بعض الأسئلة المغرية للغاية في مقالة غاي ديوتشر المعتمدة على كتابه: هل للجنسين المتضادين لـ «الجسر» في الإسبانية والألمانية[78]، على سبيل المثال، أثر على تصميم الجسور في إسبانيا وألمانيا؟ هل للخرائط العاطفية التي يفرضها نظام الجنس النحوي تبعات سلوكية ذات مستوى أعلى بالنسبة إلى حياتنا اليومية؟ وهل تشكل تلك الخرائطُ الأذواقَ، والموضات، والعادات، والتفضيلات في المجتمعات المعنيّة؟ ويقول: إن ذلك في ظل معرفتنا الراهنة عن الدماغ ليس شيئا يمكن قياسه بسهولة في مختبرات علم النفس. ولكن سيكون من المستغرب إن لم يكن لها ذلك التأثير.

حسنا، وما القول يا تُرى إن لم يكن لها ذلك الأثر؟

(78) الكلمة الدالة على الجسر في الألمانية «die Brücke» من قبيل المذكر، ولكنها في الإسبانية « el Puente» من قبيل المؤنث. وهذه التساؤلات التي يذكرها المؤلف هنا مأخوذة من مقالة غاي دويتشر التي ترجمناها في ملحق هذا الكتاب.

هوامش الفصل الأول:

- دراسة كاساسانتو:

Daniel Casasanto, "Space for Thinking," in Language, Cognition, and Space: State of the Art and New Directions, edited by V. Evans and P. Chilton, 453-78 (London: Equinox Publishing, 2010).

- كلام بنكر عن نفسه أثناء كتابته لكتاب «كيان الفكر»:

Steven Pinker, The Stuff of Thought: Language as a Window into Human Nature (London: Allen Lane, 2007), 124.

- عن شعب هيريرو[79]:

Guy Deutscher, Through the Language Glass: Why the World Looks Different in Other Languages (New York: Metropolitan Books, 2011), p. 62, citing Hugo Magnus, Untersuchungen über den Farbensinn der Naturvölker (Jena: Gustav Fischer, 1880), 9.

(79) وهو موجود في الترجمة العربية من كتاب «عبر منظار اللغة» لغاي دويتشر في ص79.

- الذي بدأ العاصفة الإعلامية عن لغة بيراها كان مقال بيتر غوردون:

Peter Gordon, "Numerical Cognition without Words," Science 306 (2004): 496-99.

- وأما الصورة الأكثر عمومية عن لغة بيراها وخصوصيتها مقارنة باللغات الغربية فكانت لدى دنييل إيفرت[80]:

Dan Everett, "Cultural Constraints on Grammar and Cognition in Pirahã: Another Look at the Design Features of Human Language," Current Anthropology 46 (2005): 621-46.

- عن بيراها والأعداد: المصدر الأسهل للاطلاع على الجدل المتعلق بذلك هو:

Andrew Nevins, David Pesetsky, and Cilene Rodrigues, "Pirahã Exceptionality: A Reassessment," Language 85 (2009): 355-404, esp. 384-85.

- ورد إيفرت، وهو مهم بنفس القدر في تقييم القضية، موجود في[81]:

(80) ويوجد في كتابه «اللغة: تلك الأداة الثقافة» حديث موسع أيضا عن لغة بيراها، وهو مترجم إلى العربية كما ذكرنا سابقا.

(81) ويوجد له كلام بهذا الخصوص في كتاب «اللغة: تلك الأداة الثقافية» ص353 فما بعدها. وقد علقنا فيما مضى على الجدل المتعلق بهذا الموضوع.

Daniel Everett, “Pirahã Culture and Grammar: A Response to Some Criticisms,” Language 85 (2009): 405-42, esp. 424-25.

- كلام بنكر بشأن الثلج[82]:

Pinker, The Stuff of Thought, 125-26.

- عن لغة غوغو إمذر، انظر:

Stephen C. Levinson, “Relativity in Spatial Conception and Description,” in Rethinking Linguistic Relativity, edited by John J. Gumperz and Stephen C. Levinson, 177-202 (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 180-81.

- عن لغة تزيلتال، انظر:

Penelope Brown and Steven Levinson, ““Uphill” and “Downhill” in Tzeltal,” Journal of Linguistic Anthropology 3 (1993): 46-74.

- عن تجربة الطاولة مع تزيلتال، انظر:

Peggy Li and Leila Gleitman, “Turning the Tables: Language and Spatial Reasoning,” Cognition 83 (2002): 265-94.

(82) ولبنكر كلام مشابه لذلك في الفصل الثاني من كتابه «الغريزة اللغوية» ترجمة حمزة المزيني.

- ومع تزتزيل، انظر:

Leila Gleitman, Peggy Li, A. Papafragou, C. R. Gallistel, and L. Abarbanell, "Spatial Reasoning and Cognition: Crosslinguistic Studies," University of Pennsylvania Department of Psychology presentation slides, 2005.

- عن التجربة اليابانية، انظر:

Mutsumi Imai and Dedre Gentner, "A Crosslinguistic Study of Early Word Meaning: Universal Ontology and Linguistic Influence," Cognition 62 (1997): 169-200.

- عن كيفية شعور الآخرين من أصحاب اللغات ذات الأعداد المختلفة بحسب المادة، انظر:

John A. Lucy, Language Diversity and Thought: A Reformulation of the Linguistic Relativity Hypothesis (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), 146.

- عن لغة يوكاتك، انظر:

Lucy, Language Diversity and Thought, 140-41.

- عن الجدل بشأن لغة الماندرين، انظر:

Lera Boroditsky, "Does Language Shape Thought? Mandarin and English Speakers' Conception of Time," Cognitive Psychology 43 (2001): 1-22.

- وانظر التعقيب في:

David January and Edward Kako, "Re-evaluating Evidence for Linguistic Relativity: Reply to Boroditsky (2001)," Cognition 104 (2006): 417-26.

- ولرد بوروديتسكي، انظر:

Lera Boroditsky, Orly Fuhrman, and Kelly McCormick, "Do English and Mandarin Speakers Think about Time Differently?" Cognition (2010) (online publication).

الفصل الثاني
«فيها قولان»

من الأسباب التي قد تجعل نفيَ كونِ «اللغة تشكّل الفكر» تشكيلا مهما يبدو أمرا معارضا للبديهة أنه من الطبيعي أن يُفْتَرض أن ما تكون عليه اللغات يوازي في جذوره ما عليه متحدثوها.

فيمكننا أن نفترض بصورة يقبلها العقل أن آليات ودقائق اللغة البورمية مشاكلة نوعا ما لكون المرء بورميا لا أيسلنديا مثلا. فقد نشكك في الفكرة القائلة بأن اللغة بنفسها تشكل الفكر على نحو مهم، لا سيما بعد قراءة الفصل السابق. بيد أننا، على الرغم من ذلك، قد نفترض أن أنماط الفكر الثقافية لا بد أن تتشاكل بطريقة ما مع اللغات التي تصاغ بها. فلا يمكن على أية حال - كما ذكرتُ - القولُ بأن الثقافة لا تؤثر في كيفية عمل اللغة أبدا. ويمكن للمرء أن يبدأ بالأمية العددية لدى البيراهيين، التي تعني عدم امتلاكهم للأعداد، ثم يفكر بعدها في الاحتياجات الجغرافية لمتحدثي غوغو إمذر، والكيفية التي يعالجون بها «أمام» و«خلف»، فينتقل من ذلك إلى افتراض أن ما يكون عليه الناس إجمالا هو ما يحدد كيفية عمل لغاتهم. ليس في بقع هامشية، بل بصورة شاملة. ولم لا، حقا؟ فكل لغة جزء من ثقافة، وكونك تتكلم،

أو تعبر عن نفسك، هو ما يجعلك ما أنت عليه[83]. فمن المتيقن فيما يبدو أن الطريقة التي تعمل بها اللغة لا بد أن تعكس ما عليه أهلها. واللسانيون معتادون بوفرة على سؤال الطلاب والجمهور لهم في المحاضرات الموجهة للعامة عما إذا كانت هذه الفكرة صحيحة أم لا، وهي نابعة إلى حد ما من الأدبيات المتنامية التي تلفت الانتباه إلى كثرة ما ينقرض من اللغات غير المعروفة.

وبحسب هذه الحالة الذهنية، التي تسعى لفهم الأشياء، فإنه من الطبيعي أن نفترض بأن نوعا من التوازي بين اللغة وما عليه متكلموها قابل للإنقاذ بشيء من التعديل. فيفضي عندئذ الجدلُ بشأن الوورفية إلى مقاربة طالما كانت مفيدة: «ألا يمكن أن يصح الوجهان؟».

وعليه، ربما كان القول بأن اللغة تخلق الفكر، أي ما يكون عليه الناس، مفرطا في التبسيط. بيد أنه يمكن للغة والفكر أن يوجدا في علاقة تكاملية. فربما يكون لأفكار أناس معيّنين، أي لثقافتهم، أثر على كيفية عمل لغتهم، وعندئذ لن يكون مستبعدا أن تعزز اللغة من ثّم تلك

(83) لتوضيح ما يقصده المؤلف هنا يمكن الإشارة إلى ما ذكر ديفيد جستس في كتابه «محاسن العربية» (ترجمة: حمزة المزيني، ص563)، بقوله: «هناك توجهان اثنان من حيث المبدأ في الدينامية الوورفية: فواحد يذهب من اللغة إلى الحياة (وهو التوجه الذي يؤكده وورف نفسه)، والثاني من الحياة إلى اللغة». ويسوق مثالا على الثاني قول أحدهم بأن صيغ التعدية في اللغات السامية تشاكل نمط حياة الساميين الذي دأبوا على جعل الحيوانات والعبيد ينفّذون الأشياء التي يريدون تنفيذها، في مقابل صيغ المشاركة التي تدل على التنظيم الديمقراطي. والمؤلف قد رد على التوجه الأول في الفصل الماضي، ويريد أن يرد على التوجه الثاني وما يتضمنه من ادعاءات مشاكلة لهذا الادعاء في الفصل الحالي.

الأفكار والثقافة المتصلة بها. وبذا يمكن أن نفهم السبب في إخفاق المحاولة لرؤية الأشياء تسير باتجاه أحادي من اللغة إلى الفكر: فالواقع يمكن أن يكون أكثر كلّانية[84].

وهذه حجة معقولة. بل إنها، على نحو أكثر تحديدا، جذابة. فهي تُشْعِر المرءَ بالبهجة لأنه تعرّف على نسق لا مجرد سبب ونتيجة في اتجاه أحادي. إننا نسعى - وطالما نُبِّهْنا بألا نكون اختزاليين، وأن ننغمس في الثقافة الفكرية التي تشدد على الشبكات، وحلقات الارتجاع، والعلاقات التكاملية في مجالات كعلم البيئة، والتطور، والفيزياء الكمومية - إلى المقاربة التي تقتضي تعزيزا متبادلا، أو «تعاونا» بمعنى لا يقاوم من إسقاط صفات الإنسان على الخارج. وهاهنا سلطة خطابية هادئة ولكنها طاغية. حاول أن تتصور الإيماءة التي تصاحب غالبًا مثل هذه المقترحات، وتدوير الأيدي بعضها حول بعض، ولاحظ كيف أن مجرد رؤية شخص ما يفعل ذلك يجعلك ترغب في الإيماء بالموافقة.

وسيبدو مُقْنِعا لكثيرين، حتى مع اطلاعهم على اللغات واللسانيات، أن اللغات تتطور لتدعم ثقافات من يتحدثونها. فاللغات تتطور، كالحيوانات، عبر الزمن: فالديناصورات أصبحت طيورا، واللاتينية أصبحت فرنسية. وللغات، كما للحيوانات، علاقات أسرية: فكما أن خراف البحر[85] والأطومات[86] فرعان لشجرة الثدييات الواحدة،

---

(84) كلانية ترجمة لـ «holistic» الرؤية القائلة بأنه يجب النظر في النظام بمجموعه، لا الاقتصار على أجزاء معينة منه فحسب.

(85) خروف البحر/ manatee، حيوان ثديي مائي ضخم الحجم يعيش في المياه الساحلية الضحلة.

(86) الأطومات/ dugongs جمع «أطوم»، والأطوم البحري أو بقر البحر=

فإن الفرنسية والإسبانية جِراء من نسل اللاتينية. ويمكن أن تنقرض الحيوانات، وكذلك اللغات.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنه كما أن الحيوانات تتطور بحسب حاجات بيئتها، ألا تتطور اللغات إذن بحسب الحاجات الخاصة داخل ثقافة متحدثيها؟.

الجواب في الحقيقة هو: لا. فليس الأمر كذلك بأي وجه مهم.

الكلمات في مقابل الوورفية

إن ذلك فيما يبدو معارض للبديهة. فما الذي يمكن أن يكون مسلّما أكثر من كون «*اللغات تتطور تبعا لحاجات متكلميها*»؟ ومع ذلك، فإنه كلما زادت معرفة المرء باللغات على نطاق عالمي، أصبح هذا المقترح أكثر تعذّرا.

وليس من السهل دوما قبول ذلك. فلقد سألني طالب جاد في محاضرة ألقيتها ذات مرة عن الوورفية: «ولكن لماذا يكون في لغة الناس شيء إن كانوا لا يحتاجون إليه»، فكان من الواضح أن اكتشاف أن الأمر بخلاف ذلك مزعج تقريبا. وذلك سؤال جيد، إذ يشير إلى المنعطف الرئيسي لسوء الفهم، وهو: الفكرة القائلة بأن اللغة في الأصل أداة ثقافية(87)، وليست في الأصل تكدّسا رائعا على نحو فوضوي لعادات عشوائية.

=حيوان ثديي مائي أيضا، يتغذى على الأعشاب، ويختلف عن خروف البحر في شكل ذيله، رغم تشابههما الكبير.

(87) يعبر عن هذه الفكرة كتاب دانيل إيفرت «اللغة: الأداة الثقافية»، وربما كان المؤلف يلمح له هنا، وقد ذكرنا سابقا أنه مترجم إلى العربية.

لاحظ أنني كتبت «في الأصل»[88]. فيجب أن يكون واضحا أنني لا أدّعي أن اللغة منفصلة تمامًا عن المناحي العملية، أو حتى عن خصائص معينة لمتحدثيها. فكل اللغات بالطبع تخدم الحاجات الأساسية للتواصل. ولكني أشك أن كثيرين سيجدون ذلك معارضا للبديهة، وهو ليس موطن التركيز في الوورفية. فمن الذي يبهره أن يكون في اللغة كلماتٌ للأشياء، بما في ذلك التمخّض عن كلمات جديدة حينما تظهر أشياء جديدة في الثقافة؟ من المؤكد أن بنجامين لي وورف لم يكن يبهره ذلك - فلقد كان يروم شيئا أكثر تحديدا بكثير.

فيوجد في الإنجليزية كلمة لنوع معين من الكلبيات[89]، وهي: «dog/ كلب». ويوجد فيها كلمات لأشياء أكثر خصوصية مهمة في الثقافات التي تتحدث بها، مثل: «computer/ حاسوب»، «upload/ تحميل»، «blog/ مدونة»[90]، ولأشياء أكثر طرافة أيضا، مثل: «inferiority complex/ عقدة الدونية»، و«jump the shark»[91]. وعلى هذا النحو، تستعمل لغةُ غوغو

---

(88) الكلمة التي استخدمها المؤلف هي «primarily»، وترجمناها «في الأصل»، أي في أساسها، وقبل أي شيء آخر.

(89) الكلبيات/ canines فصيلة حيوانية تنتمي إلى اللواحم من الثدييات، وتضم الكلاب، والذئاب، والثعالب ونحوها.

(90) التمثيل بهذه الكلمات ليس مقصودا بذاته، بل المقصود هو الإشارة إلى أن الأشياء توجد فيصحب ذلك وجود كلمات تعبر عنها، والنقطة التي يشير إليها بالنسبة للإنجليزية تنطبق على العربية (وعلى كل لغة أخرى) إذ تستحدث الكلمات بحسب الحاجة تبعا للقوانين اللغوية الخاصة بها، إما بالتوليد أو الاقتراض أو غير ذلك.

(91) المعنى الحرفي لهذه العبارة هو «قفز سمكة القرش» وهي تشير إلى حادثة =

إمذر كلمات «شمال» و«جنوب» و«شرق» و«غرب» بكثافة، لأن الاتجاه مهم للغاية لمتحدثيها. وهذا النوع من الأشياء، أي مصطلحات الوقائع، لا يخص لغة صغيرة يُتَحدّث بها في غابة من الغابات دونا عن أخرى يُتَحدث بها في لوس أنجلس. وهو مختلف تماما عن الفرضية الغامضة والدرامية التي تقول إن الأشياءَ ذات التعين الخفي في لغة ما يمكنُها أن تجعل العالمَ يبدو أكثر تلونا، أو تجعل الزمنَ يُحَسّ على نحو عمودي بدرجة أكبر. وقد كان وورف واضحا في هذا الصدد، بإشارته إلى:

«الانتظامات المتعقّدة المنطوية في اللغة الخاصة بشخص ما - التي تنكشف بسهولة انكشافا كافيا من خلال المقارنة والمقابلة الصريحة مع لغات أخرى، لا سيما ما ينتمي منها إلى أسرة لغوية مغايرة. فتفكير الشخص نفسه يوجد داخل لغة معيّنة - داخل الإنجليزية، أو السنسكريتية، أو الصينية. فكل لغة نسق شاسع من الأنماط، مختلف عما سواه، ترتسم فيه ارتساما ثقافيا الأشكالُ والفصائلُ التي لا تقوم

=معينة في سلسلة تلفزيونية تم فيها إقحام مشهد للقفز فوق سمكة القرش في الجزء الخامس من السلسلة بدون داع، فقط لخلق شيء من الإثارة التي تجذب المشاهدين بعد أن بدأت تلك السلسلة تفقد شعبيتها. ثم استخدمت العبارة بعد ذلك في الإشارة إلى أي وسيلة تحايلية تلفت اهتمام الجمهور نحو شيء معين بعد انخفاضه. وهذه العبارة أشبه بكلمة «جحلفة» و«تجحفل» التي شاعت في لهجة المجتمع السعودي مدة معينة، لتدل في الأصل على حادثة معينة سجل فيها اللاعب «جحفلي» هدفا في مرمى الفريق الخصم في آخر لحظة من المباراة، ثم وُسّع مدلول المفردة لتعني كل ما يدل على قلب الموازين في آخر لحظة.

الشخصية بالتواصل بواسطتها فحسب، بل تحلل الطبيعة، وتلاحظ أو تهمل أنواعا من العلاقات والظواهر، وتحدد قنوات تعقلها، وتبني بيت وعيها».

لقد كان وورف إذن يشير إلى شيء أعمق، وأكثر إثارة للاهتمام من كون الناس في الغابات المطيرة يمتلكون أسماء لأشياء تهمهم. فلقد كان يُفْترض أن الجوهر نفسه للكيفية التي تعمل بها لغة أولئك الناس، أي أبنيتها، أو أنماطها النحوية العامة، وما يمثل تحديا في محاولة تشكيل جملة فيها، يتطابق بعمق مع ما يحدد كيانهم دونا عمن سواهم.

وإن كان للتشديد بدلا من ذلك على الحقيقة العادية المتمثلة في أن لدى أناس الغابات المطيرة كلمات لأدواتهم، وعاداتهم، واهتماماتهم =[92] أيُّ مَطْمحٍ، فإنه لن يكون دعم الوورفية، بل الزجر عن الرؤى المزدرية للغات الأصلية غير المكتوبة. وإياك أن تخطئ، فهذه المشكلة حقيقية: فلقد كان لدى رحالة إلى جزيرة روسيل قبالة بابوا نيو غينيا مرةً ما تقوله عن «اللهجات» التي سمعتها هناك: «**إن كل ما سمعناه بالكاد يشبه الكلام البشري من ناحية الصوت، وكان من الواضح أنه فقير ومحدود جدا من ناحية التعبير. أشكالٌ من الضجيج تشبه العطاس، والزمجرة، والمراحل الأولى من الاختناق - من المستحيل تدوينها على الورق - تمثل أسماء القرى، والأشخاص، والأشياء»**.

(92) هذه علامة نستخدمها للدلالة على أحد ركني الجملة حينما يطول الفصل بينهما. وقد عُرِف باستخدامها شيخ العربية الأستاذ محمود شاكر، ونحن نسير على هداه في ذلك، ونعتقد أنه توجد مواضع تقتضي إضافتها إلى علامات الترقيم، كالموضع الموجود هنا.

غير أن «اللهجات» التي اعتقدتْ أنها قد سمعتها كانت لغة جليلة، تسمى «يلي دني»[93]، ولا يعبر عنها بالعطسات، بل بتسعين صوتا مختلفا، مقارنة بأصوات الإنجليزية الأربع والأربعين الزهيدة. وفيها أكثر من ألف سابقة ولاحقة، ومن الصعب التسليم بالتعبير «المحدود» للغة فيها، على سبيل المثال، إحدى عشرة طريقة مختلفة لقول «على» بحسب ما إذا كان الشيء واقعا على سطح أفقي، أو سطح عمودي، أو على الذروة، وبحسب ما إذا كان الشيء متفرقا، أو ما إذا كان معلّقا بالسطح، وهلم جرا.

ومع ذلك، فإني أسمح لنفسي بافتراض أن أي شخص يقرأ هذا الكتاب من السهل عليه أن يرى الخطأ في التشويهات السخيفة، كالتشويه الذي مر معنا بشأن لغة «يلي دني». رغم أنه لا يزال هناك انطباع حتى بين المتعلمين أن اللغات الصغيرة غير المكتوبة من المحتمل أن تكون أقل تعقيدًا من اللغات «الحقيقية» كالإنجليزية والفرنسية (وهو الانطباع الذي تصديت له في كتاب «ما اللغة»[94]). ومهما يكن، فإنه لا يوجد أحد مهتم باللغة يعتقد أنه يمكن لأي أحد أن يتصرف بلغة أفضل قليلا مما حُصِرَت به الحيوانات. ومن هنا، فإن اهتمامنا بما إذا

(93) يلي دني/ Yélî Dnye لغة معزولة للسكان الأصليين في جزيرة روسيل التي تقع شرقا من نيو غينيا، وشمالا من أستراليا، وكان عدد من يتكلمها في التسعينيات قريبا من 4 آلاف شخص فقط.

(94) كتاب للمؤلف صدر عام 2011م، وفيه يبين أن اللغات الصغيرة والمعزولة أكثر تعقيدا بكثير من اللغات ذات الانتشار الواسع. بيد أن ذلك لا يعود إلى أسباب ثقافية، بل إلى سبب آخر سيتحدث عنه لاحقا في الفصل التالي.

كانت اللغة تتطور بحسب أغراض متحدثيها سيتعلق بالتوجه الوورفي السمين. فليس السؤال هو «هل تُطَوِّرُ اللغاتُ كلماتٍ للأشياء التي غالبا ما يتكلم عنها متحدثوها؟». إذ هي بالطبع كذلك، فيمكننا المضيُّ إلى السؤال الأكثر تشويقا الذي يهمنا حقا، وهي: «هل اللغاتُ تتطور تبعا لمناحي التفكير؟».

فهاهنا موضع لفهم «تكاملي» للوورفية قد يبدو مفيدا، خاصة وأننا نعرف أن الظروف الخارجية يمكن أن تؤثر في اللغة - مثل كلمات الاتجاه في لغة غوغو إمذر - وأن اللغة على نحو معاكس يمكن أن تؤثر في كيفية معالجة الناس لتلك الظروف الخارجية، كواسمات المادة في اللغة اليابانية ولغة يوكاتك.

وقد نذهب إلى أنه مثلما تمتلك لغة غوغو إمذر ما فيها من واسمات الاتجاه بسبب بيئة متكلميها، فلا بد أنْ تكون اللواحقُ الدالة على المادة في لغة يوكاتك موجودةً بسبب شيء في بيئتهم جعلهم يفكرون بهذه الطريقة في الأساس. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أنه يجدر التحقيق فيما إذا كانت لغة غوغو إمذر «تعزز» أيضًا إحساسهم بالاتجاه تمامًا مثلما أن شعورهم بالاتجاه يشكّل لغتهم. وبذا فإنه يمكننا أن نرى حلقة من التغذية الراجعة - فالثقافة تؤثر في اللغة، واللغة تؤثر في الثقافة في علاقة تبادلية لا يوجد فيها نقطة تحدد الدجاجة والبيضة، على الأقل ليس في المدى المنظور.

إن جاذبية هذا المعنى «الكلاني» لعلاقة اللغة بالفكر قد تكون في الإقرار بأن اللغة لا تخلق بنفسها «رؤيةً للعالم»، مع أنه يظل محافِظا

على معنىً تكون فيه اللغات مشابهة لمتحدثيها، فتكون من ثَمّ من أعراض التنوع بنفس الطريقة التي تكون بها الثقافات كذلك. ولكن هناك هشاشة بالمجازفة التي تُحِيْلُنا إلى الواقع. فما الشيء المتعلق ببيئة متحدثي لغة يوكاتك الذي قادهم لأن تكون حساسيتهم تجاه ما تُصنع منه الأشياء أكثرَ من حساسية من الأستونيين، أو المنغوليين، أو بصورة خاصة، ما لا حصر له من مجموعات الأمريكان الأصليين الأخرى ممن لغاتهم ليست حساسة تجاه المادة بنفس طريقة لغة يوكاتك؟

أي لو قيل لنا إن أي شعب من هذه الشعوب الأخرى قد كان في الواقع - وهي في الحقيقة ليست كذلك - أكثر حساسية من الناطقين بالإنجليزية تجاه ما تُصْنع منه الأشياء، فهل سنجد ذلك أكثر أو أقل منطقية من سماعنا إياه عن متحدثي اليوكاتك؟ وفي الوقت نفسه، ما الذي يمكن أن يكون متعلقا بالروس فيجعل عندهم اسمين للأزرق خلافا لبقية البشر؟

حاول أن تربط ما عليه الناس بكلمات وتعبيرات معينة تتعلق بسمات ثقافية واضحة في لغتهم وستجد الكثير. لا أحد أبدا يعتقد خلاف ذلك. ولكن حاول أن تربط ما عليه الناس بكيفية عمل لغتهم بمعنى عام، على غرار «الانتظامات المتعقّدة المنطوية» لدى وورف، مثل ما إذا كانوا يصنفون الأشياء بحسب شكلها أو مادتها، أو ما إذا كان لَديهم زمن نحوي للمستقبل، وكل ما ستحصل إليه هو مسالك زائفة وحكايات مرتجلة[95]. إذ يبدو الأمر مغريا للغاية، فتستمر في التطلع

(95) حكايات مرتجلة/ just-so stories مصطلح يشير إلى قصص بهذا=

إليه، ولكنه دائما وباستمرار ينفجر ويتلاشى. إنه لأشبه بمحاولة القبض على فقاعة صابون.

إن التنوع بين لغات العالم من ناحية كيفية عملها لا علاقة له بالتنوع بين شعوب العالم، فلا يمكن إنقاذ الوورفية باختلاق علاقة ديناميكة ذات مسارين بين الثقافات واللغات التي يُعَبّر عنها بها. ولا يمكن لهذا إلا أن يكون إعلانا غريبا للوهلة الأولى فيما يبدو، ولكنني سأبين موجِبَه التجربي في هذا الفصل.

قواعد الغابات المطيرة؟

واسمات التوثّق[96]

من الحالات المغرية للغاية لربط كيفية عمل اللغة وما عليه

= العنوان للكاتب الإنجليزي روديارد كبلنغ (1865-1936)، وهي حكايات للأطفال تشرح بطريقة أسطورية وخرافية الكيفية التي حصلت بها الحيوانات على بعض خصائصها وصفاتها، ثم أصبح لاحقا يستخدم في فلسفة العلم من أجل الإشارة إلى الادعاءات المرتجلة بلا دليل في علم النفس التطوري ونحوه لتفسير سلوكيات الإنسان والكائنات الحية الأخرى وخصائصها الأحيائية.

(96) واسمات التوثّق/ evidential markers هي العلامات اللغوية التي تستخدم لبيان ما إذا كان العلم بمضمون القول حاصلا بالمشاهدة أو بالسماع أو بالاستنتاج من قرائن ومؤشرات أخرى. وفي حين أن جميع اللغات تملك أساليب اختيارية معينة للتعبير عن ذلك، فإنه يوجد في بعض اللغات لواحق صرفية إلزامية لا بد من استعمالها للدلالة على هذه الجانب. وللاطلاع على مناقشة مفصلة لهذا الموضوع وطرائق التعبير عن هذا المعنى في العربية، انظر: المعاني الجهية والمظهرية: بحث لساني في المقولة الدلالية، لعبدالعزيز المسعودي، ص113.

متحدثوها حالة مُثيرة للاهتمام حول لغة أخرى من لغات الأمازون تدعى «تويوكا»[97]. فلكي تدلي بقول عادي في هذه اللغة يتعين عليك أنْ تضمّنه كيف عرفت أنه حق، أو كيف توصلت إلى معرفته؟ وذلك منحفر بعمق في الطريقة التي تعبر بها عن نفسك في لغة تويوكا، بحيث إنك لا تشرح كيفية معرفتك بشيء ما بواسطة عبارة مثل «سمعت» أو «هكذا يقولون»، بل بلواحق معينة تغرزها في الجمل. وذلك مشابه للطريقة التي اعتدنا على عملها للتعبير عن الزمن الماضي في الإنجليزية «ed-»، أو الجمع «s-».

ولـذا فإن المرء عندما يتحدث بلغة تويوكا بصورة صحيحة لا يقول «he is chopping trees/ هو يقطع الأشجار» فحسب. بل يتعين عليك أن تضيف إحدى اللواحق التالية. وسأعرض اللواحق ملحقة بجمل إنجليزية من أجل التوضيح فقط - فمن البديهي، أنه يندر أن يقوم شخص من متحدثي تويوكا بالتعبير عن نفسه بالإنجليزية[98].

(97) تويوكا/ Tuyuca لغة من اللغات الأمازونية تتحدثها قبيلة تحمل نفس الاسم، ويقدر عدد أفرادها بحوالي 100 شخص، وتسكن قريبا من الحد الفاصل بين البرازيل وكولومبيا.

(98) عملنا بطريقة المؤلف في الترجمة، فأضفنا اللواحق المقصودة إلى جمل عربية للتوضيح.

معنى اللاحقـة		
هو يقطع الأشجار-غي	سمعتُ	He is chopping trees-gí
هو يقطع الأشجار-ي	رأيتُ	He is chopping trees-í
هو يقطع الأشجار-هي	في الظاهر، ولا أستطيع الجزم	He is chopping trees-hɔi
هو يقطع الأشجار - ييغي	فيما يقولون	He is chopping trees-yigï

وهذه مجرد عينة. فهناك تنوعات مختلفة للواحق بالنسبة للزمن الماضي، وبحسب ما إذا كنت تتحدث عن امرأة، أو عن رجل، أو عن الشخص الذي تتحدث معه، أو عن نفسك، وهلم جرا.

ويسمّي اللسانيون هذه اللواحق «واسمات التوثّق». ولكل لغة طرقها في أداء ما تؤديه واسمات التوثق إلى حد ما. فحينما نقول بالإنجليزية بعد قرع جرس الباب «that must be the indian food/ لا بد أنه الطعام الهندي»، فإن «must/ لا بد» تعني تقريبا لاحقة تويوكا التي تستعمل في الإشارة إلى أنك قد علمت شيئا لأنك سمعته(99). غير أن لغة تويوكا تأخذ ذلك إلى أقصى حد.

وهذا موضع قد تُستدعى فيه المقاربة «الكلانية». فربما يكون الفصل السابق من ناحية قد ألقي بظلال من الشك على التعامل

(99) ربما تكون اللاحقة الثالثة التي تدل على الاستنتاج بحسب ما يظهر من القرائن هي المقابل الأنسب هنا.

الوورفي الكلاسيكي مع مثل هذه البيانات. فقد نستنكف عن الفكرة القائلة بأن وجود واسمات التوثّق يجعل الناس حساسين على نحو سحري تجاه مَأْتى المعلومات. والعلم يدعمنا بهذا الصدد. فلقد بينت آنا بابافراغو وزملاؤها في جامعة ديلاوير أن الأطفال الكوريين، رغم أنهم تعلموا واسمات التوثّق في لغتهم الكورية، لم يكونوا أفضل من الأطفال الإنجليز فيما يخص التفكير بشأن مصدر المعلومات(100).

ومع ذلك، قد يظل هناك ما يغري بافتراض أنه لا بد من وجود شيء ما متعلق بكون المرء من تويوكا يؤدي إلى هذا الانتباه الشديد إلى مصادر المعلومات: فالثقافة تتصبب في اللغة. فيمكن أن يفترض المرء أن ذلك لا بد أن يكون له علاقة بالعيش في الغابات المطيرة حيث لا بد أن يكون المرء دائما في حالة تأهب للحيوانات الخطيرة، أو لوجود حيوانات أخرى مما يعتمد عليه المرء في قُوْتِه. ألا يبدو أن كون المرء من تويوكا يتطلب انتباها مستمرا لما إذا كان الشخص قد سمع شيئا، وما إذا كان الشخص يمكنه أن يعتمد على إفادة شخص آخر عن وجود مصدر جديد لقوت معين في مكان ناء، ونحو ذلك؟

قد يبدو ذلك معقولا للغاية حينما نفكر في لغة تويوكا وحدها. بيد أنه بقدر ما تبدو واسمات التوثّق غريبة لمن يتحدث الإنجليزية، فإنها في الحقيقة شائعة في جميع أنحاء العالم(101). فتصورُ أي نوع من

(100) تطرق غاي دويتشر لهذه المسألة في كتابه «عبر منظار اللغات» (ص173 من الترجمة العربية)، وفي مقالته المترجمة في ملحق هذا الكتاب، وبنى على ذلك من الادعاءات ما ينفيه المؤلف هنا.

(101) يقدّر بعض الباحثين أنها موجودة في ربع لغات العالم (أي قريبا من=

الارتباط بين الثقافة وواسمات التوثّق من منظور عالمي صعب للغاية - وهذا هو أيسر ما يقال في ذلك.

فالربط بين واسمات التوثّق وما عليه الناس هو بشكل أساسي كالقول بأن بعض المجموعات أكثر تثبّتا(102) من غيرها. بيد أن هذه الافتراض أكثر حراجة مما قد يبدو. فواسمات التوثق نادرة في أوروبا، على سبيل المثال، وإلى ذلك يعود معظم السبب الذي يجعلها تبدو غريبة جدا بالنسبة لنا. ولكن من منا مستعد للقول بأن اليونانيين القدماء، الذين أنتجوا بعضا من أوائل الأطروحات الفلسفية التي تتفحص بشيء من الوسوسة جميع الفرضيات مهما كانت أساسية، والذين عاشوا في مجتمع كان دائما تحت الحصار سواء من إمبراطوريات أخرى أو من منافسيهم الآخرين من اليونان أنفسهم، قد كانوا أناسا قانعين، وغير متثبتين نسبيا، ولا يهتمون إلا اهتماما يسيرا بمصادر المعلومات؟

أو ربما أجازف بالقول: إن كنت تعرف يونانيا اليوم، فهل ترى فيه شيئا خاصا من عدم التثبت؟ أنا عن نفسي سأقول: لا. ومع ذلك فإنه ليس في اليونانية واسمات توثّقٍ على غرار ما يوجد في لغة تويوكا. لم يوجد فيها ذلك، ولا يوجد فيها الآن، ولا تبدي أي إشارة إلى أنه

=1500 لغة)، وللمزيد عن بعض اللغات التي توجد فيها هذه الظاهرة، انظر كتاب (هل بعض اللغات أفضل من بعض) لديكسون، ترجمة: حمزة المزيني، ص125.

(102) الكلمة التي استخدمها المؤلف هنا، وفي النقاش التالي هي «skeptical» ويمكن أن تترجم بـ«تشكك»، ولكن «التشكك» في العربية يحمل شحنة سلبية لا يقصدها المؤلف، بل يقصد عكسها تماما، ولذا ترجمناها بـ «تثبّت».

سيوجد فيها ذلك لاحقا. ومن الحق أنه حتى لو كان فيها ذلك، فمن المؤكد أن كثيرين سيربطون واسمات التوثق بالتقليد السقراطي القديم وأثره على الفكر اليوناني.

ومن ناحية أخرى، إذا كان يوجد في لغة تويوكا واسمات توثق بسبب أن ثقافتهم تتطلبها، فلماذا بالله اللغة البلغارية هي اللغة الأوروبية الوحيدة التي فيها شيء مماثل؟ لقد اتفق لي أنني أعرف بعض البلغار، ويمكنني القول إنهم متثبتون إلى حد ما بحسب طبيعة الناس - ولكن ليس إلى حد يتجاوز البشر في كثير من البلدان الأخرى. فما الذي يشترك فيه البلغار من الناحية الثقافية مع أفراد قبيلة تويوكا؟ أو بشكل أكثر تحديدا، ما الذي يشتركون فيه مع أفراد قبيلة تويوكا مما لا يوجد لدى التشيك، والمقدونيين، والبولنديين؟ لاحظ: لن يفيد أن تقول ربما احتاجت البلغارية واسمات التوثّق في ماضي الأزمان حينما كان البلغار يعيشون بالقرب من أرض ذات تقنية أقل. فإن كانت اللغات تلبي «حاجات» المتحدثين، فلماذا لم يتم التخلي عن واسمات التوثّق منذ فترة طويلة بمجرد حصول البلغار على التدفئة المركزية والأطعمة المعلبة، ولم يعودوا «محتاجين» إليها؟

«تتطور اللغات تبعا لحاجات متحدثيها»: تلذذ بهذه الجملة، ولكن تجرأ أن تسأل من بعد عن كيفية انسجام ذلك مع كون البلغار هم الأوروبيون الوحيدون الذين «احتاجوا» واسمات التوثّق. حقا: لماذا لم يحتج، على سبيل المثال، الفلسفيون الفرنسيون، المدافعون دوما عن وضعهم الجيوسياسي، إلى واسمات التوثّق؟ ولكن لا، فقط

البلغارية - البلغارية فحسب! - هي التي تطورت تبعا لتلك «الحاجة»؟

وانتقل شرقا لتجد لغة أخرى فيها واسمات التوثّق وهي التركية. ومرة أخرى، لمَ الترك بالتحديد، إن كان لوسم التوثّق أي شيء له علاقة بالثقافة؟ لقد التقيت حقيقة بغربي أمضى بضع سنوات في تركيا يفترض بجذل - ولكن بشيء من الإصرار - أن ذلك بسبب كون الأتراك مفرطي الحساسية تجاه مصادر المعلومات. ولكنه قد توصل إلى هذا الاستنتاج بناء على وجود وسم التوثّق في لغتهم، وليس بناء على كونه قد لاحظ على نحو مستقل أن الأتراك يصعب إقناعهم بأي شيء. هل الأتراك حقا أكثر احتراسا تجاه مصادر المعلومات من الفرس، على سبيل المثال؟ لن تثيرَ هذه الفكرةُ أيَّ صدى في ذهن أحدٍ ممن يعرفون أناسا من الأَرومتين، ولا توجد دراسة إناسية أعرفها تقول بمثل هذه الملاحظة، أو حتى تصنف الأتراك باعتبارهم متسمين بالاحتراس الشديد من الشائعات. بل، إن كان هناك شيء من هذا القبيل، فإن الثقافة الفارسية هي المعروفة على نحو صريح بأنها متفردة في تشككها. ولكن الفارسية ليس فيها واسمات للتوثّق.

إن المعطيات المتعلقة بأماكن عثورنا على واسمات التوثّق تشير فوق ذلك إلى أن اعتبارها أمرا ثقافيا فيه ازدراء لعدد هائل من شعوب العالم. فالتثبّت في أساسه شكل من أشكال الذكاء. وهو بالتأكيد من أركان التفكير المحنّك. بل قد لا يكون من غير المناسب أن نقول، لأغراض عامة، أن التثبت - بمعنى تكريس الذهن لقياس الأشياء قبل التوصل لحكم بشأنها - هو لبّ الذكاء. فنحن من ناحية نحتفي

بواسمات التوثق لدى التويوكيين[103] باعتبارها تشير إلى تثبتهم الدؤوب. ولكن بعدها سيواجهنا شيء ما: فواسمات التوثق في حكم ما ليس له وجود في أفريقيا وبولينيزيا[104].

لا بد أن نعيد ذكر تلك الفرضية البهيّة هنا: «تتطور اللغات تبعا لحاجات متحدثيها». ولكن ماذا بشأن كون الاعتزاز بهذه الفرضية هذه المرة يعني أن الأفارقة والبولينيزيين ليسوا مفرطي الحساسية تجاه مصادر المعلومات؟ فهم ليسوا متثبتين. إنهم فيما يظهر - ولنقلها، فهذا ما يأخذنا إليه المنطق - ليسوا نبهاء جدا. لقد أنعمنا على التويوكيين بالذكاء، ولكننا لا بد أن نحرم منه الأفارقة والبولينيزيين. لاحظ أن ذلك يستلزم اعتناق فكرة من هذا القبيل بالرغم من كثرة من عاش من الأفارقة والبولينيزيين في بيئات مليئة بالتحديات، فعاشوا معيشة مشابهة تماما لمعيشة التويوكيين. ولكن يبدو أن التويوكيين في نهاية المطاف قد ارتفعوا إلى مستوى التحدي بواسمات التوثق، في حين أن الأفارقة والبولينيزيين كانوا يكتفون بهز أكتافهم ويأملون في حدوث الخير.

وقليل من يروق لهم التوقف هاهنا، وبذا، فإننا قد نُشْرِع الباب لنفترض أن واسمات التوثق أقل ارتباطا بالثقافة مما قد يبدو عليه الأمر حينما نصادفها لدى مجموعة مثل تويوكا. والأدلة على هذا

(103) التويوكيون هم المتحدثون بلغة تويوكا التي سبق التعريف بها.

(104) بولينيزيا/ Polynesia منطقة في وسط المحيط الهادي فيما بين أستراليا والأمريكيتين تشتمل على مئات الجزر.

المنظور في الحقيقة وافرة. فإن كانت واسمات التوثّق تنبثق تبعا لـ «حاجات» متحدثي اللغات، فلماذا هي شائعة إذن في لغات الأمريكان الأصليين في غرب أمريكا الشمالية، وليس في اللغات الموجودة في شرقها؟ هل حقا أنّ الأمريكان الأصليين الذي عاشوا في منطقة الخليج[105] - وهي بيئة ليس فيها من المشقة شيء - كانوا «محتاجين» لأن يكونوا مفرطي التيقظ لمصادر المعلومات من المناطق التي تكبد عناءها الحُجّاج[106] في تلك الشتاءات القارسة الطويلة في الشمال الشرقي؟ (يقول سكوانتو توجد أشجار توت لا تزال تنبت على بعد ثلاثة أميال بهذا الاتجاه....[107]).

---

(105) منطقة الخليج/ bay area هي المنطقة المحيطة بخليج فرانسيسكو شمال كاليفورنيا على الشاطئ الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية.

(106) الحجاج/ Pilgrims مصطلح في التاريخ الأمريكي يشير إلى مجموعة الانفصاليين الذي انتقلوا عام 1620م من إنجلترا لتأسيس مستعمرة بليموث في ماساشوستس على الساحل الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية، فكانوا من أوائل المستوطنين على الأرض الأمريكية، وواجهوا ظروفا معيشية صعبة جدا.

(107) سكوانتو/ Squanto (1585-1622)، أحد السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، وكان له فضل كبير في مساعدة المستوطنين الأوائل على البقاء على قيد الحياة بعد الصعوبات التي واجهوها في أعوامهم الأولى. فعلمهم زراعة الذرة وغيرها من المحاصيل، ودلهم على التقاط التوت وغيره من الثمار البرية. كان يعرف الإنجليزية لأنه كان قد اختطف قبل ذلك واقتيد للعيش عبدا في أوروبا، قبل أن يهرب ويعود إلى بلاده، فاتصل بالمستوطنين الأوائل، فكان يترجم بينهم وبين السكان الأصليين.

علاوة على ذلك، ستجد في جميع أنحاء العالم لغةً معيّنة فيها واسمات للتوثق، في حين لا وجود لتلك الواسمات في لغة أخرى تجاورها، يتحدثها أناس يعيشون في ظروف مماثلة. ففي أستراليا توجد لغة من لغات السكان الأصليين تسمى «كاياردلد»[108] فيها واسمات للتوثق - ولكنها إن كانت قد انبثقت بسبب «حاجة» المتحدثين لها، فلماذا لا توجد واسمات للتوثق في لغة «يوكولتا» الموجودة على الضفة الأخرى من المياه؟ (ولغة يوكولتا[109] منقرضة الآن، ولكنها قد وُصِفَت حينما كان بعضُ متحدثيها ما يزال على قيد الحياة). فأهل يوكولتا عاشوا حياة مماثلة لحياة أهل كاياردلد، بل إن لغتيهما كانتا في الأساس تنوعين للغة واحدة، مثلما أن السويدية والنرويجية كذلك.

والأدلة من هذا النوع تطول وتطول. فرغم المعقولية الأولية للتفكير في أن تويوكا تمتلك واسمات التوثق لأنه قد كان لمتحدثيها حاجة خاصة لها، فإننا حينما نوسع دائرة الصورة يكون واضحا أن واسمات التوثّق ليست متوزعة تبعا لما تكون عليه الثقافات. والحق أنه

(108) كاياردلد/ Kayardild لغة على وشك الانقراض في شمال أستراليا، ففي آخر تعداد للسكان عام 2016م كان عدد من يتحدثها بطلاقة ستة أشخاص فحسب. وهي معروفة بما فيها من حالات إعرابية معقدة تصل إلى قريب من 19 حالة، وسيذكر المؤلف لاحقا مثالا آخر على التعدد الكبير للحالات الإعرابية.

(109) يوكولتا/ Yukulta من اللغات المنقرضة للسكان الأصليين في أستراليا كما ذكر المؤلف، وتعرف أيضا باسم «كنغكاليتا/ Ganggalida» وبهذا الاسم ذكرت في موقع إثنولوغ/ Ethnologue.

يوجد تفسير محكم للأماكن التي نجد فيها واسمات التوثّق، والأماكن التي لا نجدها فيها. غير أن هذا التفسير ليس مرتكزا على الاحتياجات الثقافية. فالتفسير، بكل بساطة، هو الصدفة.

لا علاقة للضرورة بالأمر

وتشير الأدلة أيضا إلى أن واسمات التوثّق من شأنها الانتقال من لغة إلى أخرى كنوع من الميم(110) النحوي الذي يحمله ثنائيو اللغة، بما يجعل واسمات التوثق متفرقة على نحو رخيّ عبر طائفة واسعة من الثقافات بصورة ليس لها علاقة تقريبا بمدى يقظة كل واحدة منها تجاه الإشاعات وأصوات الحيوانات. وهذا في جوهره تسليم آخر بالصدفة.

وثمة عزاء في هذه الحقيقة. ففي المحصّلة، ما مبلغ الإشادة الموجودة في مديح شخصٍ غربيٍ لمجموعة ما بأنهم متثبّتون؟ هناك شيء من الاستعلاء في ذلك، لا يبعد قيد أنملة عن قول أحدهم: «يا للروعة، إنكم كلكم أذكياء مثلنا». ولقد أثنى كاتبٌ لن أسميه على شعب من العالم الثالث في صفحة الشكر من كتابٍ له لكونهم، من بين أشياء أخرى، حصفاء و«غير مستكينين» - وهذا هو ما يندرج غالبا ضمن عنوان «التثبت». ولكن لم لا يكونون حصفاء وغير مستكينين؟ هل يوجد من ينتمي إلى فصيلة «الإنسان العارف»(111) وهو ليس

---

(110) لقد سبق التعريف بمفهوم «الميم/meme» في التعليق على مقدمة المؤلف، ويمكن الرجوع إليه في ذاك الموضع.

(111) الإنسان العارف/Homo sapiens هو السلف المشترك للبشر المعاصرين، وما يجمعهم من صفات مشتركة، وللمزيد حول هذا=

كذلك؟ إن هذا النص متعجرف جدا. ومع ذلك، فإن لغة هذا الشعب، على أية حال، ليس فيها واسمات للتوثّق.

ولكن فيها أدوات للتعريف والتنكير، أي كلمات تقوم مقام «the» و«a»[112]. إذ تسمح هاتان الكلمتان الصغيرتان لمتحدثي لغة ما بالتمييز بين شيء سبق ذكره، وشيء جديد في الخطاب. فلعله يمكننا إنقاذ هذه المجموعة غير المتثبتة[113] من خلال الاحتفاء بتمييزها الذكي بين المعرفة والنكرة؟ وقد لا يمكننا ذلك، لأن وجود أدوات التعريف والتنكير، بقدر ما يبدو طبيعيا جدا لمتحدث الإنجليزية، هو إجمالا أمر ذو صبغة أوروبية. فشرقا من البلطيق والبلقان تقريبا لن تجد كثيرا من أدوات التعريف والتنكير.

وعليه، إن كانت أدوات التعريف والتنكير مرتكزة على احتياجات

=المفهوم، انظر: «علم الإناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة»، لكريستوفر فولف، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، ص53.

(112) يشير المؤلف إلى أداتي التعريف والتنكير في الإنجليزية بطبيعة الحال. وأما في العربية فأداة التعريف هي «أل»، ولا يوجد أداة خاصة للتنكير غير خلوه من أداة التعريف، رغم أن «التنوين» يدل على التنكير غالبا. وتنفرد العربية عن بقية اللغات السامية بوجود هاتين العلامتين معا. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف سيستمر في استخدام «the» و«a» في الإشارة إلى التعريف والتنكير. وهذا لا معنى له في الترجمة لأنه خاص بالإنجليزية، ولذا فسنذكر «أدوات التعريف والتنكير» في كل موضع يذكر فيه المؤلف «the» و«a» إلا إذا اقتضى السياق خلاف ذلك.

(113) يقصد الشعب الذي ذكر في الفقرة السابقة أنه لا يوجد في لغته واسمات للتوثّق.

المتحدثين، فإنه يتعين علينا أن نقول إن الأوروبيين الغربيين ميّالون أكثر من معظم شعوب العالم إلى التمييز بين الأشياء المذكورة سلفا، والأشياء التي اجتلبت للتو. ومع أن هذا ليس له معنى، بل هو غطرسة صبيانية فيما يبدو، فإنه يخلق أيضا مشكلات على المستوى الدقيق. فما أتعس الإثنوغرافي الـمُعنّى بتحديد السبب في عدم كون الفنلنديين «محتاجين» للتمييز بين المعرفة والنكرة في حين أن الهولنديين محتاجون لذلك. يضاف إلى ذلك، أننا حتى لو تمكنا من ترقيع حل لهذين اللغزين (كأن نقول: الفنلنديون أكثر تكتما من الهولنديين، ولذا فهم ليسوا بحاجة.... لأن يكونوا... محددين مثلهم؟؟)، فإن واقع الأشياء سيوقعنا في متاهة. فوجود أدوات للتعريف والتنكير من ناحية أخرى شائع في شريط من اللغات الموجودة في وسط أفريقيا. ليست في الساحل الغربي ولا في الجزء الجنوبي، وإنما، وانتبه لذلك، في حزام عبر الوسط، مؤلّفٍ من أناسٍ ليس لديهم قطعا سوى القليل من القواسم المشتركة مع الناس الموجودين في برشلونة أو كوبنهاغن، بل لم يكن لهم، من الناحية التاريخية، كبيرُ اتصالٍ معهم. ومرة أخرى، إن التفسير هنا ليس الثقافة بل الصدفة.

إن الصدفة، بحد ذاتها، هي النمط الحقيقي الوحيد الواضح في العلاقة بين اللغات وما عليه متحدثوها من منظور عالمي. وكثيرا ما يَؤُولُ ما يبدو أنه أشبه بروابط محتملة إلى خلافِ ما قد نتوقع، ومن غير المرجح أبدا أن يكون محفزا للدراسة العلمية. ومن الأمثلة الأساسية على ذلك الحالات التي تدفعنا إلى افتراض أن أناسا لا «يحتاجون»

إلى شيء ما مما هو مع ذلك موجودٌ لديهم، ويفعله الناس كافة. وعلى سبيل المثال، من الشائع جدا في نيو غينيا أن يكون في لغة من لغاتها كلمةٌ واحدة تشمل كلّا من «أكل» و«شرب» (و«دخّن» أيضا في بعض الأحيان). ولكن ما «الحاجة» التي يراعيها ذلك؟ من غير المحتمل أن يقترح شخصٌ أن عشرات القبائل المنعزلة على هذه الجزيرة الضخمة لا تعبأ حقا بالاختلافات بين الأطعمة (وكأنّ لسان حالهم يقول: «كم مرة يجب عليّ أن أخبرك بالتوقف عن لفت الانتباه إلى حقيقة أن الفاكهة تختلف عن المرق؟؟»). والحق أن التوصيفات المتعلقة بمنظور تلك المجموعات للطعام غالبا ما تتضمن مجموعة واسعة من أنواع المأكولات وطرائق التحضير، مع كون الولائم مظهرا منتظما في حياتهم المجتمعية.

ويكشف ذلك أيضا عما قد نتأوله بشأن حالة أكثر يُمْنا فيما يظهر على السطح. فلغة نافاهو تتطرف في الاتجاه المضاد: فالكيفية التي تقول بها «أكل» تعتمد على ما إذا كنت تأكل فقط بشكل عام، أو ما إذا كان ما تأكله صلبا، أو لينا، أو ليفيّا، أو مدوّرا، أو حفنة من أشياء صغيرة، أو لحما. ويمكن للبحث المستقبلي أن يحدد كيف يختلف موقع الطعام في ثقافات الأمريكان الأصليين عنه في الثقافات الموجودة في نيو غينيا؟ لعل وعسى، ولكن ماذا سنصنع بكونه يوجد لدى مجموعة من السَكان الأصليين في كوينزلاند[114] على الشاطئ المقابل لنيو غينيا،

---

(114) كوينزلاند إحدى ولايات أستراليا، في الجزء الشمالي الشرقي منها، قبالة نيو غينيا.

وهم متحدثو لغة «ديربال»[115]، الذين عاشوا على مدى آلاف السنين حياة يجدها سكان نيو غينيا مألوفة جدا، ثلاثةُ أفعال لـ«أكل» تستعمل لأكل السمك، واللحم، والخضراوات؟ أو أن مجموعة أمازونية تدعى «جاراوارا»[116]، تعيش أيضا حياة مشابهة تماما لحياة أقوام نيو غينيا، تقول «أكل» بطرائق مختلفة، بحسب ما إذا كان يتعين عليك أن تمضغ شيئا ما مضغا كثيرا أو قليلا، أو ما إذا كان عليك أن تبصق بذوره، أو ما إذا كان عليك أن تمصّه[117].

---

(115) ديربال/ Dyirbal من لغات السكان الأصليين في أستراليا، وهي على وشك الانقراض، إذا لم يبق ممن يتحدثها إلا عدد قليل جدا لا يتجاوزون 30 شخصا، وقد اعتنى بتوثيقها ودراستها روبرت ديكسون في نهايات الستينيات من القرن الماضي، ولذا فقد ذكرها في مواضع عديدة من كتابه (هل بعض اللغات أفضل من بعض)، ترجمة: حمزة المزيني.

(116) جاراوارا/ Jarawara لغة أمازونية في غرب البرازيل، مهددة بالانقراض أيضا، فلم يبق ممن يتحدثها إلا قريب من 170 شخصا فقط، وقد اعتنى بتوثيق ووصفها روبرت ديكسون أيضا، وذكرها في مواضع عدة من كتابه (هل بعض اللغات أفضل من بعض).

(117) بل يوجد ما يشبه ذلك في ذلك في لغة قريبة جدا من لغة المؤلف، وهي اللغة الألمانية. ففي الألمانية توجد كلمتان مختلفتان تدلان على الفعل «أكل». الأولى «essen» وتستخدم حينما يسند فعل الأكل إلى إنسان، والثانية «fressen» وتستخدم حينما يسند فعل الأكل إلى حيوان. وليس لذلك أي علاقة بأحوال متحدثي اللغة وثقافتهم، بل هو أمر اعتباطي ناتج عن الصدفة المحضة، كما يشرح المؤلف. وانظر ما ذكره عن ذلك هدسون في كتابه «علم اللغة الاجتماعي» ترجمة: محمود عياد ص136 (مع ملاحظة أن إحدى الكلمتين نقلت خطأ في الترجمة العربية).

كل هذا رائع، ولكنه لا يبين لنا أي شيء من ناحية ما يحتاجه الناس في لغتهم. فلا تكتمل التكهنات بشأن الكيفية التي «لا بد» أن يعكس بها شيء ما في لغة معينة شيئا جوهريا لدى أهلها من دون النظر في توزّع ذلك الشيء في اللغات في جميع أنحاء العالم.

* * *

إن الحقيقة بشأن كيفية اختلاف اللغات هي أنها تختلف عموما في الدرجة التي تؤدي بها الأشياء نفسها. فبعضها تتخذ سمة معينة أكثر من اتخاذ الأخريات لها، ليس لأن متحدثيها يحتاجونها، بل لأنه قد اتفق صدفة أن تطفو الفقاعة في مكان معين من الحساء(118). ومن هذه الفقاعات في الإنجليزية ظهور كلمة «the». فلقد كانت بالأساس ناتجة عن استشراء كلمة «that»(119). فكلمة «that» تخصص شيئا ما، كما في: «not that cat, the other one/

(118) هذا تشبيه طريف سيكرره المؤلف في عدة مرات، فيشبه الظواهر اللغوية وظهورها في اللغات المختلفة بالفقاقيع التي تظهر على وجه الماء أو الشراب أو الحساء أو غيرها من السوائل، فهي قد تظهر صدفة في أي مكان.

(119) كلمة «that» في الإنجليزية كلمة إشارية تقع موقع اسم الإشارة والاسم الموصول، وكذلك الضمير الدال على الشخص أحيانا. وربما ما يقوله المؤلف هنا عن تطور «the» الدالة على التعريف عن «that» الإشارية ينطبق من بعض الوجوه على «أل» التعريفية في العربية، فالعربية تنفرد عن بقية اللغات السامية بهذه الأداة، ويوجد في بعض التحليلات ما يدل على أنها ترجع إلى أصل واحد مشترك مع أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، انظر مثلا: فقه العربية المقارن، لرمزي بعلبكي، ص247.

ليست تلك القطة، بل الأخرى». و«the» هي سليلة «that». وهي ما حصل حينما بَلِيَت «that»[120]. والبِلى يعني أن الكلمة أصبحت أقصر، من ناحية، وأن معناها أصبح أقل تصريحا أيضا: فـ «the» تُلقي شيئا من الضوء الخافت ولكنه مفيد على شيء ما: «I meant the green one, not just any old crayon/ أنا أريد الأخضر، وليس أي قلم ملون»[121]. فالإنجليزية محددة في وسمها للمعرفة حتى لو كان السياق يقوم بالمهمة أيضا. وكثيرا ما تظهر كلمات جديدة بهذة الطريقة: فـ «a» و«an» بدآ كـ «one»[122].

وأيّا يكن، فإنا قد رأينا أن مَوْلِد «the» لا يمكن أن يكون حدثا ثقافيا. فالفقاقيع عموما ليست كذلك. ولا يوجد ببساطة سبب يمكننا تحديده لكون كلمة تشبه «that» تبلى في كثير من الأحيان فتصبح

(120) «بلِى الألفاظ» يعني انكماشها وتبسيطها نتيجة لكثرة الاستعمال، ومن أشهر الأمثلة على ذلك في العربية كلمة «أيش»، وللاطلاع على العديد من الأمثلة الطريفة لبعض التطورات اللغوية الناتجة عن بلى الألفاظ، انظر: التطور اللغوي، لرمضان عبدالتواب، ص135-144.

(121) المقصود أن تعيين «the» التعريفية لمرجعها أقل تحديدا من تعيين «that» الإشارية، لأن الأخيرة تشير إلى شيء واحد موجود ويشار إليه، بخلاف «the» التي تدل على معهود أو جنس ونحوهما.

(122) «a» و«an» هما علامتا التنكير في الإنجليزية، وكلمة (one) بمعنى (واحد) وتستخدم كذلك استخدام الضمير. وكما ذكرنا سابقا، فإن «التنوين» يدل على التنكير في العربية، ويوجد في بعض التحليلات ما يدل على أنه قد تطور عن «التمييم» في اللغات السامية، الذي كان قديما يدل على الإفراد في رأي بعض الدارسين. انظر مثلا: «المدخل إلى علم اللغة» لرمضان عبدالتواب، ص246.

كلمة تشبه «the» في النصف الغربي من شبه الجزيرة التي تعرف بـ «أوروبا»، وفي حزام يمر عبر وسط أفريقيا، وإن كان قلّما يحدث ذلك في غيرها من الأماكن. ولا توجد على أية حال لغة تترك التعريف للسياق تماما، والمقصود فقط هو أنّ الإنجليزية قد اتفق لها أنْ اختطت هذا المسار واتبعته. وتستعمل كثيرٌ من اللغات أسماء الإشارة المعتادة (مثل: that/ ذاك، وthis/ هذا) لوسم التعريف حينما يكون ثَمّة حاجة للتصريح بذلك. وتقوم الصينية بذلك من خلال ترتيب الكلمات: فـ «قطار وصل» تعني أن القطار قد وصل، في حين أنك إذا قلت «وصل قطار» فإن ذلك يعني أن قطارا قد وصل[123]. فاللغات جميعا تحقق الأشياء نفسها، على الرغم من الاختلاف الهائل في الثقافات البشرية. ولكن قد يتفق أن يكون لكل لغة بالصدفة هوس عشوائي خاص، على نحو يشبه حالة غلام صغير يمكنه تسمية كل زوجات الرؤساء دون سبب حقيقي (وقد كان ذلك الغلام أنا نفسي حينما كنت صبيا).

وواسمات التوثّق من أمثلة ذلك، فهي قد ظهرت عبر العملية نفسها التي ظهرت بها أدوات التعريف والتنكير. وهي تبدو من وجهة نظرنا أمرا «ثقافيا» للغاية، ولكن كذلك أدوات التعريف والتنكير ستبدو أيضا أمرا «ثقافيا»بالنسبة إلى متحدثي تويوكا. وكلا السمتين فقاعتان في الحساء. إن جميع اللغات تسم التوثق إلى درجة ما. فالجملة الإنجليزية «that must be the indian food/ لا بد أنه الطعام

(123) أي حينما تقدم كلمة قطار يكون المقصود التعريف، وحينما تؤخرها وتقدم الفعل يكون المقصود التنكير.

الهندي» يوازيها في الإسبانية أداء ذلك باستعمال الزمن المستقبل «Sera juan». فالأمر لا يعدو كون بعض اللغات تختط طريقها كما يتفق وتسير فيه. وفي نفس الوقت، الناس جميعا يأكلون ويشربون، ويحبون ذلك. ويتفق فقط أن بعض اللغات تجيش مفقّعة مفقّعة بباقة من الكلمات بحسب الأنواع المختلفة من الأكل، وبعضها لا يطفو مفقّعا على سطحها إلا كلمةٌ لـ «أكـل» وأخرى لـ «شرب»، في حين أن بعضها لا تظهر فيها فقاقيع في هذه المنطقة أبدا، وتقنع فقط بكلمة واحدة لكل ما تضعه في فمك.

ومن طبيعة اللغة أن تظهر مثل هذه الفقاقيع، فكل اللغات تغلي، ولا شيء منها يظل قارّاً. والسؤال فقط هو أين سيصدف أن تحدث فقاقيع اللغة. وهو أمر مثير حقا - فثمة ما يشبه الترقّب، عند فحص هذه اللغة أو تلك، من ناحية ما سيظهر من سمات مثيرة للاهتمام في أي منها. ومن الطرق الأخرى لرؤية ذلك أنه نوع من البذخ. فثمة بعض الأشياء في كل لغة ترتقي إلى نوع من التفنن، كالتبختر بدلا من مجرد المشي، وكالتمثّل المبتدع للدور بدلا من مجرد التقيد بالحركات. «ماذا ستكون الموضات في السنة القادمة» قد يتساءل أحدهم - وقد تتساءل بنفس الطريقة ما المنزع العجيب الذي من المحتمل أن تتباهى به اللغة التي ستواجهها في المرة القادمة. ومع ذلك، وبقدر ما يبدو ذلك غير متوقع، فإن هذه المنازع ليست اقتفاء للثقافة. إنها أشبه بتفضيل شخص ما لارتداء وشاح معين في موسم ما لا لسبب واضح، ثم قد ينمو لديه

تَوَلّع بلون معين لمدة من الزمن بعدها بسنوات. إن المصادفة تلعب في اللغة دورا أكبر بكثير مما قد يظنه المرء.

ولا يوجد شيء يجعل ذلك واضحا أكثر من كون كثير من الأشياء التي نظنها أساسية تماما لإيصال أفكارنا هي - في النظرة الكبرى - مزيدٌ من الفقاقيع. فهناك لغات، على سبيل المثال، لا يجب عليك فيها أن تَسِم الزمن النحوي على الإطلاق - فليس فيها ماض، ولا مستقبل. إذ يتكفل السياق بكل ذلك، ومع ذلك فإن أهلها يعيشون حياة غنية كما نحيا. والذي يعنيه ذلك هو أنه حتى وجود الزمن النحوي هو، من الناحية التقنية، وشاح جميل، أو حِلْية - أو فقّاعة. وإنْ كانت معظم لغات العالم قد طورت، على أية حال، الزمن النحوي لأنها «احتاجته»، فإنه يتعين علينا أن نقول إن شعوبا متعددة لم «تحتج» لأن تعرف ما إذا كان الشيء المتحدث عنه قد حدث من قبل أو لم يحدث بعد. ولكن أي نوع من الناس هؤلاء؟ من سيكون مرتاحا للتبسم في وجوهم وإخبارهم بأنهم بخلافنا لا يحتاجون لأن يضعوا أنفسهم في الزمن؟ لا عليك، فإن هؤلاء الناس موجودون في نيو غينيا - وبحسب ما رأينا آخر مرة كان هناك من يتهمهم بأنهم ليسوا ذوّاقين.

ومن ناحية أخرى، ثمة لغات يوجد فيها ضمائر للمتكلم، والمخاطب، والغائب فقط، من دون أن يكون هناك فرق بين المفرد والجمع في أي منها. ونحن معتادون على ذلك في الإنجليزية في الضمير «you» الذي يصدق على الواحد وعلى من هو أكثر منه (وهذا

بالنسبة للغات أغرب مما نتصوره في الغالب)[124]. ولكن، تخيل لو أن «he» و«she»، و«it» و«they» كانت كلمة واحدة، وأن «I» و«we» كانتا كلمة واحدة[125]. هناك أناس لا يجب أن يتخيلوا ذلك، لأن هذا هو ما عليه لغتهم. غير أنه سيكون من الصعب إخبارهم بأنهم ليسوا بحاجة إلى التمييز بين «he/ هو» و«they/ هم، هن». ما الأسباب التي تجعل مجموعة من البشر «لا يحتاجون» إلى هذا التمييز؟ إن متحدثي لغة بيراها هم الذين يتعين علينا أن نعدهم في هذه المرة من بين أولئك الذي لديهم احتياجات زهيدة على نحو غريب. وإليكم هذا الخبر العاجل: «قبيلة، ليس لديها كلمات لـ «نحن» و«أنتم» و«هم»، لا يمكنها تمييز الجموع من الأفراد»؟. والحق أن معظم لغات العالم، بما فيها الإنجليزية، تقوم بهذا التمييز لأن كل اللغات فيها فقاقيع. فالسياق قادر على أن يتكفل بالكثير. واللغات جميعها تعبر عما يزيد بكثير جدا عن «حاجة» أي فرد من البشر.

---

(124) ضمير «you» في الإنجليزية يدل على المخاطب المفرد والجمع في التذكير والتأنيث معا، فيقابله في العربية الضمائر التالية: أنتَ، وأنتِ، وأنتما، وأنتم، وأنتن. فذلك بالنسبة لنا غريب جدا.

(125) المؤلف يقارن بالإنجليزية بطبيعة الحال. ولكن المقارنة بالعربية ستكون أيضا أكثر طرافة. فـ «He» في الإنجليزية يقابله «هو» في العربية، و«she» يقابله «هي»، و«it» لا مقابل له لأنه يستعمل للمحايد الذي لا وجود له في العربية، و«they» يقابله «هم» و«هن»، فالإنجليزية لا تفرق في ضمير الجمع الغائب بين المذكر والمؤنث، و«هما» الدال على المثنى الغائب للذكور والإناث لا مقابل له في الإنجليزية. و«I» يقابله «أنا» و«we» يقابله «نحن»، ولا وجود في العربية لضمير للمتكلم يخص المثنى، كما في المخاطب والغائب. أما الإنجليزية فلا وجود للمثنى فيها أصلا.

وبمجرد أن نفهم ذلك، فلن يظل مفاجئا أن اللغات تبدو جامحة تقريبا في مدى قلة ما يربط تكوينها بما عليه متحدثوها. فالأمر كله من قبيل الفقاقيع. إن شعبي النيوناميوت وتيروميوت من الإسكيمو لهما ثقافتان مختلفان بوضوح: فالنيوناميوت متقنّصون يعيشون في مجموعات أسرية، في حين أن التيروميوت صائدو حيتان يعيشون في قرى كبيرة. ومع ذلك فهما يتكلمان اللغة نفسها تماما. وإليك مثال آخر: فنحن غالبا ما نُسْقِط صوتي (t) و(d) حينما نتحدث بصورة عفوية، ويأتيان في نهاية الكلمة بعد صامت آخر. فالغالب جدا أن نقول: (wes' side story) لا (wes-t side story). وربما يقول الشخص أيضا (I tol' Allan not to) لا (I toll-d Allan not to). وهذا يصدق على جميع متحدثي الإنجليزية بدرجات متفاوتة. ومع ذلك، فإن سكان نيويورك، بالمصادفة، أكثر عرضة لإسقاط (t) و(d)، قبل الوقف، من الناس الذين لا يبعدون عنهم إلا مسافة ساعة وشيء في فيلادلفيا. أي إذا كانت جملة (you're gonna catch a cold) هي آخر ما سينطقه المرء قبل أن يتوقف لبرهة، فإن الغالب أن من هو في نيويورك سينطق ذلك (you're gonna catch a col) أكثر ممن هو في فيلادلفيا[126].

(126) والأمر نفسه ينطبق على اللهجات العربية المعاصرة. فقد تجد قريتين متقاربتين جدا، ولكل منهما خصائصها النطقية المختلفة عما لدى الأخرى. والأمثلة وافرة جدا لمن أراد أن يتتبعها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللهجات العربية القديمة، ويمكن الرجوع إلى كتاب «في اللهجات العربية» لإبراهيم أنيس، أو غيره من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع،=

حاول أن تستنج ما الذي يعنيه ذلك من الناحية الثقافية - هل أهل فلادلفيا أكثر إجادة للكلام من أهل نيويورك؟ ولاحظ أن الدراسة التي اكتشفت ذلك كانت تركز على الأشخاص العاديين، وليس على النخبة الفائقة التعليم. فسؤالنا هو ما إذا كان الناس الذين يمثلهم «فيلم روكي» أكثر عناية بالنطق من الناس الذي يمثلهم فيلم «حمى ليالي السبت»[127]. ونحن كذلك نعني تلك الحالة الطريفة فقط، التي تسبق الوقف. فأهل نيويورك وأهل فيلادلفيا معا يُسْقِطون عموما صوتي (t) و(d) في كل مكان مثلما يفعل غيرهم أيضار - رغم أن ذلك يختلف بلطف في جوانب لا يمكن لأي متكلم منهم أن يكون على دراية واعية بها. فالأمر كله مرة أخرى من قبيل الفقاقيع.

«*ما السبب الذي يجعل لغة ما تتضمن شيئا لا يحتاجه متحدثوها؟*[128]» يمكننا أن نرى الآن أن سؤال لماذا، المعقول بحد ذاته، يُغْفِل شيئا بشأن اللغة لا يتضح إلا عندما ننظر إلى اللغات جميعا في آن واحد: فمعظم آليات اشتغال اللغة ليست ناجمة عن الحاجة،

=للاطلاع على بعض الأمثلة.

(127) «روكي» و«حمى ليالي السبت» فيلمان سينمائيان عُرضا في نهاية السبعينيات الميلادية، وحظيا بشهرة واسعة وانتشار كبير، وأولهما يمثل الحياة في ولاية فيلادلفيا، والآخر يمثل نيويورك وبعض مظاهر العيش فيها آنذاك. وإشارة المؤلف لهما كناية عن ذلك قد يفهمها القارئ الأمريكي، وتخفى على غيره.

(128) هذا هو السؤال الذي ذكر المؤلف في بداية الفصل أن أحد الطلاب سأله إياه في إحدى المحاضرات، ويعود المؤلف للإجابة عنه بعد أن قدّم لذلك بالمقدمات السابقة في حديثه.

بل الصدفة. لقد كانت فكرة وورف عن «الانتظامات المتعقّدة» هي أنك بتعلّمك لنحو لغة ما، تتعلمُ كيف يفكر متحدثوها، وما هم عليه: فبإتقانك للأنماط النحوية للغة التبيتية[129] تتقن، إن جاز التعبير، الجوهر الذي يجعلك تبتيّا. موضع وجيه في الظاهر لأن يُبْدأَ به حينما تفكر في اللغة، ولكن جاذبيته للمكوث فيه أقل من ذلك. فمتحدثو لغة تويوكا ليسوا «محتاجين» لواسمات التوثّق إلا إذا كان الأوروبيون الغربيون والأشخاص في أوساط أفريقيا «محتاجين» لأدوات التعريف والتنكير. والسمات المشابهة لذلك في لغة معينة لا تنبثق بسبب طريقة تفكير متكلميها، وبناء عليه لا يوجد أيضا أي دافع لافتراض أن هذه السمات اللسانية تشكل بالتبعية جوهر ثقافة متحدثيها. وبقدر ما في هذه المقاربة «الكلانية» الأخيرة من إغراء، فإنها حين تسمح بالفكرة الجذابة عاطفيا والقائلة بأن متحدثي لغة تويوكا متناغمين تناغما فريدا مع بيئتهم، فإنها تقضي أيضا بأن ملايين البشر في نيو غينيا لا يعبأون بأن يأكلوا جيدا.

ليست هذه الأشياء؟

من الممكن أن يكون هناك وجهٌ لا تكون فيه السمات غير المنقادة بالأحرى انقيادا واضحا لأي تحليل ثقافي هي السمات التي تنطبق عليها الوورفية. ولكن من غير الواضح لماذا لا تكون كذلك. فإن كانت

(129) اللغة التبتية/ Tibetan هي اللغة الرسمية في إقليم التبت في غرب الصين، والمناطق المجاورة له في الهند ونيبال، ويبلغ عدد المتحدثين بهذا اللغة بما تتضمنه من لهجات متعددة قريب من 6 ملايين شخص.

الإحالة إلى الزمن بكلمتي (up/ أعلى) و(down/ أسفل) تجعل الصينيين يعالجون الحياة على نحو مختلف اختلافا مهما عن متحدثي الإنجليزية، فلماذا لا يعني وجود كلمةٍ واحدة لـ «أكل» و«شرب» و«دخّن» أن الناس في نيو غينيا يعالجون الاغتذاء بصورة مختلفة عن بقية البشر؟ بل يمكن للمرء أن يتخيل الفكتوريين ذوي النزعة العرقية المركزية[130] يطبخون فكرة - إن جاز التعبير - مفادها أن هذه الأفعال النحوية النيو غينية تشير إلى الأذواق/ الأحناك[131] البدائية التي نتوقعها من «المتوحشين». إننا سنرفض ذلك من دون ريب - ولكن على أي أساس لا تكون لغات الناس مشاكلة لثقافاتهم إلا في الجوانب المستحبة؟ بل على أي أساس يمكننا أن نحدد المستحب على نحو دائم في الصورة الكبرى للأشياء؟

---

(130) الفكتوريون نسبة إلى «العصر الفكتوري» الذي يمتد من عام 1837م إلى 1901م، إبان تولي الملكة فكتوريا على العرش البريطاني. وهي حقبة تزامنت مع توسع الإمبراطورية البريطانية، والاستعمار، والدراسات الاستشراقية. وكانت مشبعة بأفكار المركزية الأوروبية، وبعنصرية واضحة تجاه الشعوب غير الغربية. وللاطلاع على شيء من المزاج العنصري السائد آنذاك، انظر مثلا: «الاستشراق» لإدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، ص324.

(131) الكلمة التي استخدمها المؤلف هنا هي كلمة «palate»، وهي من المشترك اللفظي في الإنجليزية، إذ تدل على «الذوق» و«الحَنَك» معا. وفي ذلك شيء من التورية لم أستطع ترجمته إلا بوضع اللفظين معا. ومن الطرائف المتصلة بهذه الكلمة في سياق الوورفية ما ذكره ديفيد جستس ساخرا في كتابه «محاسن العربية» (ص110، ترجمة: حمزة المزيني) من أنه يمكن لمن أراد أن يستدل بهذه الكلمة على أن الإنجليز يعتقدون أن «الحنك» لا «اللسان» هو العضو المسؤول عن حاسة «التذوق»!

إن المنطق المحض يفرض استنتاجا بسيطا: فالفكرة القائلة بأن الأمازونيين لديهم واسمات تَوَثّقٍ لأنهم يحتاجون لأن يكونوا متنبهين لبيئتهم هي في كل مفاصلها قصة منمّقة تماما مثلما أن القصة القائلة بأن النيو غينيين لديهم فعل واحد لـ (أكل - شرب) لأنهم لا يعبأون باستطعام عشائهم كذلك.

«لا كلمة لكذا»: تحذير للقارئ

يسمع المرء من حين لآخر أشياء عن بعض اللغات توحي بتوافق حقيقي متين مع تصور متحدثيها بشأن الحياة، ولكن دائما ما يتبين أن ذلك، فيما وقفتُ عليه، مجرد أساطير.

فيوجد من دون شك ما لا عد له من الأشياء التي لا تملك كل لغة معينة على حدة كلمة واحدة لها، ولا يعني ذلك أي شيء عن طبع متحدثيها أو شعورهم[132]. فالشخص الفرنسي قد يتعجب

(132) الموضوع الذي يشير إليه المؤلف هنا هو أن اللغات تختلف جدا في تسميتها للأشياء فقد تسمي بعض اللغات أشياء لا يوجد في لغات أخرى كلمة واحدة تدل عليها. فكلمة «fortnight» في الإنجليزية مثلا تشير إلى مقدار من الزمن يبلغ أسبوعين، ولا يوجد في العربية، ولا في كثير من اللغات غيرها، كلمة معجمية مخصصة لهذا المعنى. وفي «ألفاظ القرابة» مثلا يوجد في العربية ألفاظ خاصة لـ «عم» و«خال»، ولـ «عمة» و«خالة»، ولكن الإنجليزية تجمع العم والخال في كلمة «uncle»، والعمة والخالة في كلمة «aunt». وفي المقابل، يوجد في الإنجليزية كلمات تسمي بعض العلاقات، مما ليس له كلمات خاصة في العربية، مثل: «cousin» (ومعناها ابن العم أو ابن الخال)، و«nephew» (ومعناها ابن الأخ أو=

إن كان هناك أناس ليس لديهم كلمة لنوع الشخص الذي يبدو دائما أنه يشعر بالبرد مثل كلمتهم «Frilleux». ومع ذلك فإن الإنجليزية ليس فيها كلمة كتلك[133] - فعلينا أن نقول «أنا دائما بردان»[134]. وقد يقترح قلة أن وجود مثل هذه الكلمة عائد إلى كون الفرنسيين أكثر حساسية تجاه النسائم من الآخرين.

من الواضح أن كون الفرنسيين يمتلكون كلمة «Frilleux» وأننا لا نملكها مجرد صدفة ظريفة، كما صادف أن السويدية لا تملك كلمة لـ «wipe/ تنشّف» - وأرجو أن لا يخطر ببالنا إخبار السويديين بأنهم لا يتنشفون، فكل ما في الأمر أنهم يستخدمون كلمات أخرى مثل «dry/ يجفف»، و«erase/ يمسح» مما يؤدي الغرض تماما.

=ابن الأخت). والمقصد الأساسي للمؤلف هنا هو التحذير من كثير من الادعاءات المتصلة بهذا الموضوع، وسيعود لذلك في مواضع أخرى من الكتاب.

(133) وكذلك العربية.

(134) ما دمنا في سياق الحديث عن الكلمات، تحسن الإشارة إلى أن الكلمة التراثية لمن يشعر بالبرد هي «مقرور»، كما في قول الأعشى:

تشب لمقرورين يصطليناها وبات على النار الندى والمحلق.

ولكن هذه الكلمة شبه منقرضة في الاستعمال المعاصر، و«بردان» كلمة مستحدثة في اللهجات المعاصرة للدلالة على هذا المعنى. وربما يكون اشتقاق هذه الكلمة ونحوها مثل «ذبلان» و«غرقان» على صيغة «فعلان» من باب القياس على التوهم، وهناك إشارة لذلك في كتاب «في اللهجات العربية» لإبراهيم أنيس، ص232.

إن الادعاءات التي من شأنها أن توحي حقا بتصور مختلف للحياة دائما ما تنهار. فيخبرنا فيلم «أميستاد»[135] أن اللغة الأفريقية المسماة «مِندي»[136] ليس فيها كلمة لـ «may/ قد، ربما». كانت الفكرة هي تسليط الضوء على البراءة الأصلية لإحدى الشخصيات الأفريقية، ولغتُه بحسب ما هو مفترض تُلْزِم الشخص بأن يحدد ما إذا كان قد حدث شيء ما أم لا، بلا وجود لمناطق رمادية. لقد كان الفيلم رفيعا من ناحية الدراما السردية، ولكنه مشوّه من الناحية اللسانية. وإنه لمن الآمن أن نقول إنه لا توجد لغة تفتقر إلى وسائل لنقل درجات الوثوق في الحقيقة، لكون الناس جميعا لديهم العُدّة العرفانية لإدراك مثل هذا التدرج، وهم بحاجة ماسة للتعبير عنه في كل حين. والحق أن لغة «مِنْدي» تمتلك أبنية احتمالية مفصلة ومكينة أكثر بكثير مما تملكه الإنجليزية. فالمرء في تلك اللغة لا يكتفي بـ «يفعل» و«لا يفعل» فقط، بل يعبر أيضا بـ «قد يفعل»، و«قد لا يفعل».

إن قسم «لا لكلمة لـ «س» في موقع «لانغوج لوغ»[137] أرشيف

---

(135) فيلم «أميستاد» فيلم سينمائي تاريخي عرض عام 1997م، وهو مسمى باسم سفينة إسبانية لتجارة الرقيق ونقل العبيد، ويحكي الفيلم قصة حقيقية وقعت أحداثها عام 1839م، يقوم فيها بعض المختطفين بالاستيلاء على السفينة، ويتمكنون في النهاية من الحصول على حريتهم والعودة إلى بلدهم.

(136) لغة مندي/ mende لغة أفريقية يتحدثها ما يقرب من مليون ونصف شخص في دولتي سيراليون وليبيريا.

(137) موقع لانغوج لوغ موجود على الرابط التالي: https://languagelog.ldc.upenn.edu/nll وهو مدونة متخصصة في مناقشة المسائل =

مفيد لكون هذه الأشياء ليست موفقة أبدا. وقد سمعتُ كذلك أن لهجة من لهجات البربرية، التي يتحدث بها في شمال أفريقيا أناسٌ عاشوا على تلك الأرض قبل وصول العرب بوقت طويل، ليس فيها كلمات لـ «win/ انتصر، ربح» و«lose/ هُزِم، خسر». ومن المفترض أن نتصورهم على اتصال بالجوهر التعاوني الجماعي الذي يستهوينا نحن الفردانيين الجشعين في الغرب. وهناك عبرة في هذا الدرس، ولكن سيتم التوصل إليها بصدق أكبر عن طريق تناول ما عليه البربر الشلحيون[138] من الناحية الثقافية، وليس لغتهم. وتخبرنا الإناسة أن جميع المجموعات البشرية لديها ألعاب، لا سيما لدى الأطفال. فهل البربر أجنبيون حقا عن المنافسات المشاكسة التي يخرج منها أحد الطرفين منتصرا، والآخر مهزوما؟ وإن لم يكونوا كذلك، فإننا نعرف عندئذ أنهم ليسوا أناسا لا تصور لديهم عن «الربح» و«الخسارة». فيصبح السؤال: هل يشاهدون الفوز والخسارة يحدثان طوال الوقت، ومع ذلك يفتقدون على نحو عجيب لكلمة تعبر عن ذلك. إن ذلك سيبدو غير معقول للغاية، ناهيك عما فيه من تنفّج.

=اللسانية المختلفة، أسسها اللسانيان مارك ليبرمان وجيوفري بولوم عام 2003م. ويوجد في الموقع قسم خاص يحتوي على مواد عديدة لمناقشة ادعاءات حول عدم وجود كلمات معينة في بعض اللغات، وتبين هذه النقاشات أن كثيرا من هذه الادعاءات التي تزعم أن الكلمة الفلانية لا توجد في اللغة الفلانية ليست صحيحة.

(138) اللهجة «الشلحية» من لهجات البربرية، الموجودة في المنطقة الوسطى من المغرب الأقصى.

وبعد ذلك، فإن قاموسا للهجة الشلحية من البربرية على وجه التحديد يكشف عن وجود كلمتين لـ «win/ انتصر، ربح» و«lose/ هزم، خسر». وربما أنهم لا يستخدمون الكلمتين مثلما نستخدمهما تماما - لا سيما أن المعجم بالفرنسية و«gagner» و«perdre» هما نفسهما لا يتطابقان إلا جزئيا مع الكلمتين الإنجليزيتين «win» و«lose»[139]. ولكـن المعجم نفسه يتضمن أيضا كلمتين لـ «conquer/ تغلب، ظفر» و«fail/ أخفق». وعلاوة على ذلك، لقد اتفق لي مرة أن ركبت مع سائقِ سيارةِ أجرةٍ يتحدث البربرية، وعندما سألته كيف يقول «win» و«lose»، تلفظ مباشرة بالكلمتين الدالتين على ذلك اللتين رأيتهما في المعجم. ولنعترف بذلك، فهؤلاء الناس لا يعرفون «الانتصار» و«الهزيمة» فحسب، بل يتحدثون عنهما بسهولة أيضا.

من الذي يعتقد خلاف ذلك؟

قد يتساءل بعض القراء على نحوٍ مفهوم إنْ كان يوجد حقا أشخاص لهم اطلاع على اللغات والثقافات ويجدون فيما أقدمه هنا أي جديد. نعم يوجد: والكيفية التي يفهم بها المرء مثل هذه الأشياء تتفاوت بحسب التدريب، والميول الثقافية، والقصد، وثمة نزعة مستحكمة في الأكاديميا الحديثة ملتزمة إلى حد كبير بالفكرة القائلة بأن اللغات تمثل أنماطا فكرية. فلقد زعم ك. ديفيد هاريسون من كلية سوارثمور[140]،

(139) وذلك ينطبق على العربية أيضا، ولذلك ترجمتُ الكلمتين بأكثر من مقابل.

(140) ك. ديفيد هاريسون لساني معني بدراسة اللغات المهددة بالانقراض=

على سبيل المثال، أن القولَ بأن تنوع اللغات عشوائي بصورة عجيبة، كما أقول أنا، أمرٌ «متبلد بشكل مذهل». وقد صادف أنه قال ذلك في نقد عابر لمقال كتبته في الوولد أفيرز[141]. وهذا الجانب الشخصي على أية حال ليس هو السبب لاستعمال موقفه كمثال هنا. فادّعاؤه مثلا أنني أعتقد أن التعقيدات اللغوية في بعض اللغات تجعلها غير مناسبة للعالم الحديث، وأنه سيكون من الأفضل لو كان الناس جميعا أحاديي اللغة معاكس تماما لأي شيء قد كتبته بحيث يكون الجواب المناسب هو الصمت.

بيد أن تصور هاريسون للصلة بين اللغة والثقافة مفيد للنقاش هنا لكونه يمثل تماما سوء التصور الغرير الذي وصفته في هذا الفصل. إن اللغات فيما يتعلق بالنحو، في مقابل ما تمتلكه من تسميات للأشياء، مختلفة بشكل مذهل، ولكن ليس بطرق مشاكلة لكيفيات اختلاف الشعوب. وهاريسون يعارض ذلك، فيقول: «إذا كان الأمر كذلك، فإن ستونهنج[142] وماتشو بيتشو[143] يختلفان بسبب اختلاف طرق

=وتوثيقها، لا سيما في سيبيريا ومنغوليا، وقد ترجم له كتاب بعنوان «عندما تموت اللغات: انقراض لغات العالم وتآكل المعرفة الإنسانية»، ترجمة: محمد مازن جلال، منشورات جامعة الملك سعود. وقد استعرض في هذا الكتاب كثيرا من وجوه الاختلاف المعجمي بين عدد كبير من اللغات، والدلالات المرتبطة بذلك من النواحي الثقافية والفكرية.

(141) الوورلد أفيرز/ world affairs مجلة فصيلة تصدر في أمريكا، وتعنى الشؤون العالمية والعلاقات الدولية.

(142) ستونهنج/ Stonehenge معلم صخري يعود إلى العصر الحجري، ويقع في سهل ساليسبري بمقاطعة ويلتشاير جنوب غرب إنجلترا.

(143) ماتشو بيتشو/ Machu Picchu بلدة محصنة بناها شعب الإنكا على=

البناء المتطورة عشوائيا فحسب، ولا يخبراننا بأي شيء مثير للاهتمام عن ثقافتي العصر الحجري الحديث أو الإنكا في القرن الرابع عشر».

ولكن هذا هو المقصود بالضبط - فاللغات ليست أشياء. وستونهنج وماتشو بيتشو، باعتبارهما معالم ثقافية، يخبراننا الكثير عن الناس الذين بنوهما. بيد أنه لو كان لدينا تسجيلات للغة التي كان يتكلمها بناة ستونهنج، فإن بنيتها لا يمكن أن تخبرنا أيّ شيء عما كانوا عليه، مثلما أن لغة الكيتشوا المبكرة(144) لا تخبرنا شيئا عن معنى كون المرء من الإنكا في القرن السادس عشر. يوجد في كلا اللغتين بطبيعة الحال كلمات لأشياء مهمة في الثقافتين. ولكن من أين لنا أن الذي يشكل الفكرة هو الكلمة المستعملة للدلالة على شيء معين، وليس الشيء نفسه؟

ويواصل هاريسون الاعتراض ضد الفكرة القائلة بأن اللغة تتغير عشوائيا، فيقول: «من الصعب أن نتخيل شيئا يتجاوز هذا القدر من قلة الاحترام لمنتجات العبقرية البشرية وما فيها من تنوع عظيم نشأ بأشكال مختلفة في ظل الظروف المختلفة. فالبشر، بانتشارهم وإعمارهم للكوكب، كانوا يتكيفون باستمرار، من خلال استعمال براعتهم في حل مشاكل البقاء المتفردة في كل موقع، وابتكار طرق متفردة لتصور

=جبال الإنديز في البيرو في القرن الخامس عشر الميلادي.

(144) لغة الكيتشوا/ Quechua لغة شعب الإنكا في أمريكا الجنوبية، وقد انقسمت حاليا إلى عدد من اللهجات المختلفة، ويقدر عدد من يتكلمون هذه اللغة بمجموع لهجاتها بما يقارب 8 ملايين شخص.

الأفكار. وكانت العزلة الجغرافية والصراع من أجل البقاء هما ما يوقد جذوة الإبداعية الهائلة».

ولكن اللغات ليست كلوحات الرسم. فلا تتطور من خلال تطبيق الناس لبراعتهم أو بسبب كونهم مبدعين. بل تتطور اللغات من خلال انجرافات تدريجية تجري تحت مستوى الوعي، وهذا ليس رأيا، بل حقيقة، أساسية في أي مقرر تمهيدي في التغير اللغوي[145]. وإلا فكيف انتهى الحال بالإستونية[146] إلى أربع عشرة حالة إعرابية.

اسم الحالة[147]	مثال	معناها
حالة الفاعلية	raamat / رامَتْ	كتاب
حالة الإضافة	raamat-u / رامَتـ-و	منسوبا للكتاب
الحالة التبعيضية	raamat-u-t / رامَتـ-و-ت	بعضا من كتاب
الحالة الحلولية	raamatu-sse / رامَتـو-س	إلى داخل الكتاب
الحالة الموضعية	raamatu-s / رامَتو-س	في الكتاب

(145) للاطلاع على نقاش مفصل عن أسباب تغير اللغات ومظاهره، انظر: «لماذا تتغير اللغات»، لـ «ر. تراسك»، ترجمة: محمد مازن جلال، منشورات جامعة الملك سعود.

(146) اللغة الإستونية/ Estonian هي اللغة الرسمية في جمهورية إستونيا شمال أوروبا، وهي قريبة من اللغة الفنلندية، ومن اللغات القليلة في أوروبا التي لا تنتمي إلى أسرة اللغات الهندو - أوروبية.

(147) مقصود المؤلف هو الإشارة إلى هذه الحالات الإعرابية فحسب، ولا يمكن هنا شرحها بما يتجاوز ذلك. وللاطلاع على المقابلات الإنجليزية للمصطلحات المستخدمة في تسمية هذه الحالات يمكن الرجوع إلى مسرد المصطلحات في نهاية الكتاب.

الحالة الصدورية	raamatu-st / رامَتو-ست	خارجا من الكتاب
الحالة الانتحائية	raamatu-le / رامَتو-لِ	إلى عند الكتاب
حالة المحاذاة	raamatu-l / رامَتو-ل	حول الكتاب
الحالة التباعدية	raamatu-lt / رامَتو-لْت	متباعدا عن الكتاب
الحالة التحولية	raamatu-ks / رامَتو-كْس	يشابه الكتاب
الحالة الانتهائية	raamatu-ni / رامَتو-ني	إلى حد الكتاب
الحالة الكنهية	raamatu-na / رامَتو-نا	بوصفه كتابا
الحالة الافتقارية	raamatu-ta / رامَتو-تا	من دون الكتاب
حالة المعية	raamatu-ga / رامَتو- گا	مع الكتاب

وعلاوة على ذلك، فإن الإستونية واحدة من اللغات التي يكون فيها الشذوذ هو القاعدة عمليا. فهل يوجد أحد خطط لمثل هذه الأشياء؟ إن كانت هذه إبداعية، فلست متأكدا أننا نمتدح الإستونيين.

وهذا الانطباع القائل بأن الناس «يصنعون» قواعدهم النحوية يُتَذَرع به بسهولة حينما نعجب من لغة مختلفة عن لغاتنا مما يتكلمه السكان الأصليون في بعض المناطق. فعندما تعمل لغةٌ ما بطريقة مختلفة للغاية عن لغاتنا، فإن انطباعا طبيعيا لا ندري كنهه يتولد عندنا بأن في ذلك خروجا عن السويّة، بل بأنّ هذا الخروج لا بد أن يكون قد أُحْدِث بشكل مِتعمد، أو أن يكون قد نشأ بسبب ظرفٍ مُلحّ من قبيل الخصوصيات الثقافية المثيرة للاهتمام. ولكن الفكرة تنهار حينما نوجّه العدسة إلى أنفسنا. فيوجد في الإسبانية علامات دالة على الاحتمالية[148]. فمن

(148) الاحتمالية/subjunctive من المعاني الجهية التي تخصص علاقة=

الذي «صنعها»؟ وبأي طريقة يشاكل ذلك الحياة في مدريد في مقابل الحياة في طوكيو؟ وإن قلنا إن في ذلك حمولة تاريخية من زمن آخر، فما الذي يجعل الاحتمالية نافعة في قشتالة القديمة - أو في روما القديمة، حيث كانت اللاتينية سلف الإسبانية التي تحتوي أيضا على الاحتمالية - دونا عن اليابان الإقطاعية؟

أما إن قيل إن التحليل الوورفي ليس من المفترض أن ينطبق على الاحتمالية، فلماذا؟ فليس واضحا من الأعمال الوورفية حتى الآن ما الذي ينحّي الصيغ الاحتمالية من التحليل، ويستبقي مصنفات الأعداد، ومصطلحات الألوان، والزمن المستقبل. فلو لم تكن الصيغ الاحتمالية موجودة في اللغات الأوربية، وصادفناها بدلا من ذلك في لغةٍ صغيرة يُتَحدث بها في غابة مطيرة، ألن تكون هي على أية حال أول شيء يُعامل باعتباره دليلا على منظور متحدثيها المتدرج لشروط الصدق؟

***

إن الروعة المتعلقة بكيفية انبناء لغةٍ معينة لا يعود إلى مشاكلتها للتقاليد الشعبية، أو التصورات بشأن الكون، أو أنماط التفكير، بل

=المحمول بالموضوع من ناحية الإمكان والضرورة والوقوع ونحو ذلك. فجملة (خرج زيد) تدل على شيء واقع من ناحية نسبة الخروج إلى زيد، وهو ما يسمى بالجهة التعيينية/ indicative، ولكن جملة (أعتقد أن زيدا خرج) لا تدل على ذلك، بل تدل على الاحتمال. فهذا هو المقصود بالاحتمالية. ولا يوجد في العربية صيغ تصريفية خاصة لهذا المعنى، كما توجد صيغة خاصة للدلالة على الأمر مثلا. أما في اللغة الإسبانية ونحوها من اللغات الأوروبية فتوجد صيغ تصريفية خاصة للدلالة على ذلك.

إلى تحررها من تلك الأشياء على نحو تبدّلي خصيب، يتبرعم دوما بحسب ما يطرأ من مساحات المعنى والتعقيد المستجدة، بما يُظهر ما لا يسع المرء إلا أن يراه نوعا من العنفوان الذي يتعذر التحكم فيه. والاعتقاد بأن أكثر ما يثير الاهتمام بشأن اللغة هو اعتبارها كاشفة عن علميات التفكير لدى متحدثيها يشبه الهيام بالسمفونية السابعة لبيتهوفن ليس لألحانها الرائعة، وتناغمها الثري، وتوزيعها الموسيقي الشجي، والتتابع العاصف لما فيها من موضوعات، بل لحفنة من الإلماحات الوامضة بشكل خافت التي يمكن أن تمدنا بها عن طبيعة بيتهوفن كشخص.

إن اللغة، بمعنى مشتقٍ من اندغام الحواس[149]، تعبق بما يشبه حشيشا مجزوزا أو غابةً غائمة. إنها تَطَّبِخ - تجيش بالفقاقيع، إن جاز التعبير. ولكنها لا تفعل ذلك بتكليف منوط باحتياجات الثقافة. فاللغة، كالثقافة، ولكن إلى حد كبير بمعزل عنها، هي حقا الأعجوبة بحد ذاتها.

---

(149) اندغام الحواس/ synesthesia ظاهرة إدراكية يؤدي فيها الإحساس بشيء معين عبر إحدى الحواس إلى الإحساس بشيء آخر عبر حاسة أخرى، كأن يرتبط الإحساس بلون معين بسماع صوت معين. ومعنى كلامه أن اللغة قد يوجد فيها شيء من «روائح» المكان الذي توجد فيه، ولكن سماتها وظواهرها تتطور بشكل مستقل عن ذلك.

هوامش الفصل الثاني:

- كلام وورف بشأن الأنماط:

John B. Carroll, ed., Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf (Cambridge, MA: MIT Press, 1956), 252.

- التعليق على لغة جزيرة روسل:

Beatrice Grimshaw, Guinea Gold (London: Mills & Boon, 1912), 191–92.

- واسمات التوثّق في لغة تويوكا:

Janet Barnes, "Evidentials in the Tuyuca Verb," International Journal of American Linguistics 50 (1984): 255–71.

- الأطفال الكوريون وواسمات التوثّق:

Anna Papafragou, Peggy Li, Youngon Choi, and Chung-Hye Han, "Evidentiality in Language and Cognition," Cognition 103 (2007): 253–99.

- توزع واسمات التوثّق:

Martin Haspelmath, Matthew S. Dryer, David Gil, and Bernard Comrie, The World Atlas of Language Structures (Oxford: Oxford University Press, 2005), 316–17.

- الأدوات في لغات العالم:

Frans Plank and Edith Moravcsik, "The Maltese Article: Language-Particulars and Universals." Rivista di Linguistica 8 (1996): 183–212.

- أفعال الأكل في نيو غينيا وجاراوارا:

Alexandra Aikhenvald, "'Eating,' 'Drinking,' and 'Smoking': A Generic Verb and Its Semantics in Manambu," in The Linguistics of Eating and Drinking, edited by John Newman, 91–108 (Amsterdam: John Benjamins, 1996).

- شعبا النيوناميوت والتيروميوت من الإسكيمو:

Allen Johnson and Timothy Earle, The Evolution of Human Societies: From Foraging Group to Agrarian State (Palo Alto: Stanford University Press, 1987).

- إسقاط صوتا (t) و(d) في الإنجليزية:

Gregory Guy, "Variation in the Group and the Individual: The Case of Final Stop Deletion," in Locating Language in Time and Space, edited by William Labov, 1–36 (New York: Academic Press, 1980).

- البربريـة:

E. Destaing, Vocabulaire Français-Berbère: Étude sur la tachelhît du soûs (Paris: Librairie Ernest Leroux, 1938).

- كلام هاريسون:

K. David Harrison, The Last Speakers: The Quest to Save the World's Most Endangered Languages (Washington, DC: National Geographic, 2010), 237–38.

الفصل الثالث

«استعادة عرش الثقافة»

قد يكون مفاجئا أن تدرك مدى ضعف الارتباط بين بنية اللغة والشعب [الذي يتكلمها]. وربما يشعر القراء بشكل مبرر عند هذا الحد بإيحاءٍ موجودٍ في احتجاجي يقول بأنّه لا علاقة للغة بالثقافة، أو على الأقل بأنه لا وجود لعلاقة مهمة أو مثيرة للاهتمام بينهما.

وليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك، فقبل أن أمضي قدما في قضية هذا الكتاب، لا بد أن أوضح أنني أشير فقط إلى مذهب محدد بشأن اللغة والثقافة، ولست أُلغي مثلا مجال الإناسة اللسانية برمّته.

الوورفية في مقابل الكلمات

من البديهي تماما لنا جميعا أن الكلمات والتعبيرات في لغتنا يمكن أن تكون ثقافية. وقد يسأل قارئ، على سبيل المثال: «كيف له أن يقول إن عبارة «إن شاء الله» ليست جزءا صميما من تعبير المسلم عن نفسه»؟

وأقول: نعم، هذه الأشياء ترجمات لغوية للثقافة. فالناس يعيشون في ثقافات، ولديهم لغة، ومن ثم فإن اللغة سيكون فيها كلمات وتعبيرات لجوانب من الثقافة. ولو كانت اللغة والثقافة لا يتقاطعان أبدا، لكانت مهمتنا هي استكشاف السبب العجيب في أنهما لا يتقاطعان، أو لم يتقاطعا قط.

بل يمكن أن تفرض الثقافةُ، بطريقة واضحة ومباشرة، تعبيرا معينا من خلال النحو بالإضافة إلى الكلمات. والجغرافيا هي المثال المعتاد. وكما رأينا، فإن وجود ثقافة في تضاريس أرضية مسطحة سيؤدي بمتكلمي غوغو إمذر إلى أن يقولوا «شمالا مني» بدلا من «أمامي»، في حين أن ثقافة موجودة في منطقة جبلية مثل تزيلتال ربما تقول «في المرتقى» بدلا من «يسار».

حسنا: سؤالي إذن ليس ما إذا كانت اللغة والثقافة يتقاطعان. إذ يمكنهما ذلك (رغم أن الأمر لا يتجاوز الإمكان، فأهل تزوتزيل الذين يعيشون في البيئة الجبلية نفسها ما يزالون يقولون «يسار» كأي شخص في ديترويت[150]). ولكن اهتمامي منصب على الوورفية، وهي شيء مختلف تماما عن وجود كلمات للأشياء البارزة، كالكيانات والمفاهيم والموقعيات الجغرافية. فالادعاء الوورفي يتجاوز ما إذا كان في اللغات مصطلحات لما يفكر فيه متحدثوها من الأشياء وما يحيط بهم.

فالوورفية تدّعي أن اللغة تجعل متحدثيها يفكرون بطريقة معينة - وبحسب ذلك فإن اللغة لا تقدم تسميات لأشياء وتصورات معينة في الثقافة فحسب، بل تجعل متحدثيها يفكرون وفق أنماط جامعة معينة، كمعالجة الزمن باعتباره صعودا ونزولا لا مرورا، أو تصور الأكل والشرب باعتبارهما شيئا واحد. فالمسألة التي أبحثها، كمسألة الوورفية،

---

(150) ديترويت مدينة أمريكية، والمقصود أنهم يستخدمون تعبيرات «يسار» و«يمين» ونحوها كما يستعملها أهل المدن من الناطقين في الإنجليزية، من دون أن يكون لاختلاف البيئة واللغة أثر في ذلك، وقد تطرق المؤلف للجوانب المتعلقة بهذا الموضوع في الفصل الأول.

متعلقة باللغة في المستوى الذي يتجاوز المستوى الأساسي المتعلق بإلصاق التسميات بالأشخاص والأماكن والأشياء والممارسات. فالتركيز منصبٌّ على كيفية عمل نحو اللغة، وخصوصياتها العشوائية في المفردات كالتمييز بين الأزرقين الغامق والفاتح، أو كأن يتفق ألا يكون فيها زمن نحوي للمستقبل، أو كأن يوجد فيها أدوات للتعريف والتنكير، التي يكون تعلمها في الإنجليزية صعبا على الروس مثلا (الذين لا تحتوي لغتهم على مثل تلك الأدوات).

ومعنى ذلك أن الوورفية ليست متعلقة بالأشياء التي يرى فورا متحدثو لغة ما أنها من خصوصيات لغتهم - من قبيل «نحن نقول «إن شاء الله»»، «نحن نعيش قرب جبل» -، بل بالأشياء التي يُغفلونها بلا مبالاة فيتبين أنها غير معتادة نوعا ما بالمقارنة باللغات التي لم يكن لديهم سبب يدعوهم لأن يعرفوا عنها شيئا. وهي نوعية الأشياء التي جعلت أفكار وورف غير مألوفة، وما تزال بعد عقود تحظى بالإقبال. فقد يَسأل أحد متحدثي لغة تويوكا مثلا: «هل يوجد أناس لا يتعين عليهم أن يلفظوا لاحقة تبين كيف عرفوا أي شيء يذكرونه؟»[151].

فهل «هذه» الأشياء - أي «الانتظامات المتعقّدة» لدى وورف - تعني أن متحدثي لغة ما يرون العالم بطريقة متفردة؟ حينما يقول

(151) في لغة تويوكا واسمات صرفية إلزامية للتوثّق، تبين كيف توصل المتحدث لمعرفة ما يقول، كما ناقش المؤلف سابقا. والمقصود هنا أن من يتحدث هذه اللغة سيرى أن هذا الأمر طبيعي جدا، لدرجة أنه قد يتعجب من عدم وجوده في اللغات الأخرى، كما نرى نحن مثلا أن التذكير والتأنيث أمر طبيعي جدا، ونتعجب جدا أن يكون هناك لغات ليس فيها ذلك.

شخص مسلم «إن شاء الله» فإن ذلك بالتأكيد تعبير عن ثقافته، فهي علامة لتوجه مندمج في الإسلام - ولكن السؤال هو ما إذا كان يوجد أي شيء متعلق بالعربية باعتبارها نظاما من النحو والمفردات - بما يتجاوز التسميات البسيطة للأشياء والتصورات - يتوازى مع ما في روح الشخص المسلم، بمعنى كلاني. وأحيّي كل من يتقن العربية. ولكن، كم من الأشياء التي يكدّون أنفسهم لكي يُحْسنوا فهمها كتصاريف أواخر الأفعال، والجنس، وأدوات التعريف والأصوات الحلقية - كم من ذلك، وليس فقط التعبيرات من قبيل «إن شاء الله» - له علاقة بفهم الكيفية التي يفكر بها المسلمون؟

لا شيء في الجوهر. فكل ما اتقنوه تكتل نحوي اتفق له أن يخرج بصورته تلك - أي لغة من بين ستة آلاف تنويعة لجذر واحد تمثل لغات العالم[152].

(152) هذا الكلام العلمي الرصين للمؤلف يتناقض تماما مع ما يساق من حين لآخر من ادعاءات بشأن اللغة العربية وأثرها على العقل العربي وشخصية الفرد العربي. ومن أشهر الأمثلة على ذلك مقالة بعنوان «أثر اللغة العربية على نفسية العرب»، لكاتب أمريكي من أصل لبناني يُدْعى إ. شوبي (وقد ترجمها إلى العربية عبدالرحمن القعود). وهي مقالة كثيرا ما يستشهد بها، رغم احتوائها على كثير من الترهات، من شاكلة أن صرامة النحو العربي والتقيد بها يضعفان المرونة والتسامح، وأن الولع بالغموض والحلية اللفظية شيء متأصل باللغة العربية التي تجعل متحدثيها كذلك. وهذا وشبهه بطبيعة الحال مجرد ترهات ليس لها أي مستند معرفي صحيح، وهو ما يتفق مع كلام المؤلف أعلاه (وللاطلاع على ردود مختصرة =

هناك كلمات وهناك كلمات

ومع ذلك، فإن التقاطع بين اللغة والثقافة يتجاوز في عمقه الحقيقة الساذجة المتمثلة في أن اللغات تحتوي على كلمات لأشياء يرى متكلموها أنها مهمة. فهذا الذي ذكرناه آنفا، على سبيل المثال، ليس إلا عَرَضا واحدا لمظهر لغوي أشمل، وأقل وضوحا، مما يجعله أكثر تشويقا: وهو ما يصطلح عليه غالبا بـ «الدلاليات الإثنية». وتستكشف الدلالياتُ الإثنية الكيفية التي يختلف بها استعمال اللغات لكلمة أو لمجموعة من الكلمات - مما يبدو على السطح كما لو أن له معاني متماثلة لدى الناس جميعا أينما كانوا - بحسب رؤية متكلمي تلك اللغات للعالم[153].

=على مقالة شوبي وما ورد فيها من ادعاءات، انظر: «الاستشراق» لإدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، ص486، و«محاسن العربية» لديفيد جستس، ترجمة: حمزة المزيني، ص59).

(153) الدلاليات الإثنية/ ethnosemantics هي بعبارة أبسط الوجوه التي يختلف بها تقسيم الجماعات الكلامية المختلفة للظواهر الاجتماعية والثقافية والبيئية بحسب التصنيفات والتسميات الشعبية السائدة في كل جماعة لغوية معينة. ومن موضوعات هذا المبحث مثلا التصنيفات الشعبية لأنواع النبات، وأنواع الحيوان، وكذلك التصنيفات المتعلقة بمراتب القرابة وألفاظها التي أشرنا إليها في التعليق على الفصل السابق، ونحو ذلك. وللاطلاع على أمثلة وافرة ومناقشات مستفيضة للمسائل المتصلة بهذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى كتاب «عندما تموت اللغات» لكي ديفيد هاريسون، ترجمة: محمد مازن جلال، وكتاب «الفكر البري» لكلود ليفي شتروس، ترجمة: نظير جاهل.

وإنه لمن المؤكد أنّ كون الصينيين قد أصبحوا يستخدمون ضمير «أنت» الرسمي «nin» بتكرار أكثر منذ 1980م مرتبط بأمر ثقافي، وهو التحول الاجتماعي حيث أصبحت الشيوعية تمنح مساحة أكبر للرأسمالية، مما يخفف من وطأة تركيز الشيوعية على المساواة لصالح نماذج أكثر تقليدية في التوقير الطبقي. وقلةٌ كذلك سيَفْصِلون بين هذه النزعة الموروثة التي تعود إلى آلاف السنين من التوقير الموجود في الثقافة، ووجود كلمات مختلفة في لغة الماندرين لمن يكبرون الشخص أو يصغرونه من الإخوة (أو الأخوات)[154].

ويمكن النظر إلى الوورفية في ضوء ذلك باعتبارها توسيع لمنظور الدلاليات الإثنية بما يتجاوز الحالات البديهية والجلية على الفور المماثلة لما ذكرناه في لغة الماندرين، وهذا التوسيع هو الذي يشكك فيه بياني هذا. فأنْ تُعْزى زيادةٌ في استخدام كلمة «أنت» الرسمية إلى نمط متنامٍ من الرسمانية شيء، وأنْ يُعْزى غيابُ كلمة للأزرق إلى رؤية السماء على نحو أقل زرقة مما يراها به متحدثو الإنجليزية شيءٌ آخر - ورغم أن أولئك الذين يدّعون هذه الدعوى لم تتهيأ لهم الفرصة ليتمعنوا - شبيهٌ بعزو افتقار مجموعة نائية لكلمتين

(154) المقصود أنه لا يوجد في الصينية كلمة تدل على الأخ أو الأخت هكذا بالمطلق، بل لا بد أن تشير الكلمة المستخدمة إلى مرتبة الأخ أو الأخت بالنسبة إلى المتكلم، من ناحية العمر. فللأخ الذي يكبر المتكلم كلمة، وللذي يصغره كلمة أخرى مختلفة، وكذلك العم والخال وما يشبهها من ألفاظ القرابة.

منفصلتين لـ «أكـل» و«شرب» إلى كونهم أقل قدرة على تذوق متع الطعام منّا.

ومعنى ذلك أن الوورفية تقترح أن منظور الدلاليات الإثنية ينطبق أيضا فيما يتجاوز الحالات الواضحة. وأنا على النقيض من ذلك أجادل بأنه ينطبق في المكان الذي يضعه فيه الحدس الأساسي بالضبط لا أكثر. ولكن ذلك لا ينفي بحال من الأحوال ثراء تحقيقات الدلاليات الإثنية في الواقع.

ما هذا الذي يسمى «ستاند أب كوميدي»[155]

ومن الجوانب الأخرى لتقاطع اللغة والثقافة، وهو جانب أرى أنه مفيد جدا لتناول الاختلافات البشرية بطريقة منهجية، ما يوجد في المقاربة المسماة بـ «إثنوغرافية التواصل»[156]. فيوجد لدى جميع الجماعات البشرية مجموعة معينة من المظاهر الأساسية للكيفية التي تُستعمل بها اللغة.

ووصفها على نحو مجرد يجعلها تبدو بديهية، بل مملة أيضا. فقد ينخرط في استعمال اللغة مثلا شخص وحده، أو شخصان

(155) «الستاند أب كوميدي» نوع من أنواع الكوميديا يلقي فيه الفنان الكوميدي النكات المضحكة والساخرة وهو واقف أمام حشد من الجمهور. ولم أترجمها لأن أصحابها الذين يمارسونها في المجتمع العربي يتداولون هذا الاسم.

(156) أثنوغرافية التواصل ميدان معرفي معني بتحليل وجوه استعمال اللغة وطرائقه داخل سياق الممارسات الثقافية والاجتماعية الخاصة بأفراد جماعة لغوية معينة. وسيتطرق المؤلف لبعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع.

معا، أو ثلاثة، أو أكثر من ذلك بكثير. وقد يحدث استعمال اللغة في مناسبة دينية، أو حفل زفاف، أو محادثة ودية. وقد يكون لاستعمال اللغة أهداف مختلفة: كالمساومة، والتسلية، والاحتجاج، والإغراء. وقد يكون استعمال اللغة على شكل تصريحات، أو استفهامات، أو اقتباسات. وقد تكون اللغة رزينة أو هازلة. وقد تأتي اللغة في شكل تيار متصل، أو تجري بين سكتات مطولة، أو تصوب تلقاء وجهك مباشرة. وقد تُنقل اللغةُ شفويا أو على الورق أو بطريقة أخرى.

نعم، إن هذا بحد ذاته لا يبدو تبصّرا كبيرا. غير أنه حينما ينظر إلى اللغة البشرية بحسب هذ العدة من الأدوات (كل الاحتمالات التناوبية أعلاه لها تسميات اصطلاحية خاصة، ويوجد ما هو أكثر منها)، فإن الممارسات التي تبدو «غريبة» في أنحاء العالم تصبح تنوعا طبيعيا تماما[157].

على سبيل المثال، يستمع شعب كونا في بنما[158] كل يومين خطابا لزعيمهم لمدة ساعتين يناقش فيه السياسة، أو الدين، أو التاريخ. ويوجد معقّب رسميٌّ يقول «إنه لكذلك» عَقِب كلِّ «مقطع» من الخطاب.

(157) يشير المؤلف بكلامه هذا إلى نموذج اللساني الأمريكي دل هايمز في عناصر الحدث الكلامي التي تحدد وجوه استعمال اللغة في المجتمعات المختلفة، وللاطلاع على قائمة بهذه العناصر، انظر: «الأنثروبولوجيا الألسنية» لألسندرو دورانتي، ترجمة: فرانك درويش، ص468 فما بعدها.

(158) شعب كونا/ Kuna قبيلة من السكان الأصليين في بنما وكولومبيا، يتحدثون لغة تحمل الاسم نفسه. ويبلغ عدد من يتحدثون لغة كونا حاليا في بعض التقديرات قريبا من 50 ألف شخص.

ويكون الخطاب مصوغا بطريقة متحفلة وتلميحية، يقوم بعد ذلك متحدثٌ باسم الزعيم بتفسيره بمصطلحات أوضح للجمهور. ويشير الزعيم إلى أن خطابه قد انتهى من خلال خفض صوته بشكل مفاجئ.

يبدو هذا بالنسبة لنا أشبه بـ «منسك ديني». ومع كل الاحترام له، قد يكون لدينا شعور بأنه مبالغ فيه نوعا ما، أو أنه اعتباطي على الأقل.فنحن، على سبيل المثال، لا نستمع على نحو متكرر بانتظام إلى خُطَب مدتها ساعتان عن «أحوال الدنيا». ولكن كثيرا ما كان الأمريكان يفعلون ذلك في القرن التاسع عشر - فلقد كان خطاب لينكون في غَتيسبيرغ[159] تتمة ملحقة بحدث مرتكز على الخطيب إدوارد إيفرت[160] الذي تحدث بشكل مفخم لمدة ساعتين بما يتعلق إلى حد كبير بـ «أحوال الدنيا». لقد كان الأمريكان آنذاك مثل شعب كونا، وإن لم يروا الأمر بهذا الشكل.

والأهم لمقصودنا هنا هو أنه لا فرق حتى في الوقت الحاضر بين الأمريكان وشعب كونا بالنسبة إلى تلك العظة إلا فيما يسمى بـ «الأداة» في مصطلحات إثنوغرافية التواصل. فشعب كونا يحصلون على جرعات مكررة من التعليقات المنقولة شفويا - ولكنّ كثيرا منا يحصلون على تعليق عن «أحوال الدنيا» لمدة ساعة يوميا في الأقل

---

(159) خطاب غتيسبيرغ/ the Gettysburg Address خطاب شهير جدا في التاريخ الأمريكي ألقاه الرئيس الأمريكي إبراهام لنكون عام 1863م، أثناء الحرب الأمريكية الأهلية.

(160) إدوارد إيفرت/ Edward Everett (1794-1865) سياسي وقس وخطيب أمريكي.

عبر المذياع، أو التلفاز، أو الإنترنت. فما يختلف هو الوسيط، أو الأداة[161]، وليس الجوهر.

ويتحدث زعيم كونا بسجلّة[162] مفخّمة على نحو متكلّف - ولكن كثيرا منا يتلقّون التعاليم الدينية بسجلّة مماثلة، والفرق فقط هو أنها تكون مكتوبة -، فما يختلف هو الأداة مرة أخرى. وتختلف سجلّة كلام زعيم كونا عن سجلّة الكلام العادي لدى قبيلة كونا بطريقة مشابهة لاختلاف إنجليزية إنجيل القديس جيمس[163] عن الإنجليزية المحكية الحديثة. فتختلف الثقافات في الموضع الذي تضع فيه اللغة العالية في مقابل الكلام العفوي - وهو ما يصطلح عليه في أعمال إثنوغرافية التواصل على نحو مبهم نوعا ما بـ «متوالية العمل»[164] -، لا في تضمنها لهما.

(161) الأداة/ instrumentality من مصطلحات هايمز التي أشرنا إليها أعلاه، والمقصود بذلك قناة التواصل وسبله المستخدمة فيما بين المتخاطبين.

(162) السجلّة/ register طريقة معينة في استعمال اللغة بحسب المقام وما يرتبط به من عوامل تجعل اللغة تتخذ سمات معينة من ناحية الأسلوب والتركيب واختيار المفردات ونحو ذلك، بشكل يميزها عن السجلات أو الطرائق الأخرى لاستعمال اللغة.

(163) إنجيل الملك جيمس أو القديس جيمس هو النسخة المعتمدة لدى كنيسة إنجلترا من الكتاب المقدس بالترجمة الإنجليزية، والتي صدرت عام 1612م، تحت إشراف الملك جيمس الأول، عاهل البلاد الإنجليزية آنذاك.

(164) متوالية العمل/ act sequence من مصطلحات هايمز أيضا، والمقصود بذلك شكل الرسالة اللغوية ومضمونها وما بينهما من تفاعل يؤثر على المكونات اللغوية المستخدمة في أداء العمل التواصلي.

ولدى شعب كونا مبلّغهم الذي يشرح اللغة. وسيتعرف كثير منا على معنى ذلك إذا ما قارنه بمدارس الأحد[165]، ولكنه ينطبق أيضا على الوظيفة التي يؤديها قدّاس الأحد[166] نفسه، أو على معلم المدرسة أو أستاذ الجامعة الذي يشرح ما قام الباحثون باكتشافه، في الحد الذي يكون فيه الحدث متعلقا بـ «أحوال الدنيا». وأما إن كنت تستغرب من خفض زعيم كونا صوتَه ليبين أن الحديث قد انتهى - حسنا، عندما تصبح مباراةٌ لكرة القدم حماسية ينزلق المعلقُ الرياضي إلى قول كل شيء بصوت أعلى، ويختم بصوائت ممدودة بشكل غريب. وتكون على هذا النحو:

Arlington goes for it, HE GETS RIGHT PAST PATTERSON, HE'S OFF LIKE A SHOT, IT'S ALL OVER, ARLINGTON SCORES THE TOUCH-DOWN AND THAT'S THE GAAAME, TWEN-TY ONE SEVEN.

[كوينتراو ممتاز في الاختراق...يعطي كورة يا سلام...وينه غارث بيل اهْرَبّ...غارث بيل اهْرَبّ..شَدّ شَدّ غارث بيل..يدخل منطقة الجزءااا...وقووووووووووول...قوووول..قووول..قوول..قوول... قول][167]

(165) مدارس الأحد شكل من أشكال التعليم الديني يقدم دروسا دينية للأطفال وغيرهم يوم الأحد من الأسبوع.

(166) القدّاس في مصطلحات المسيحية اجتماع للعبادة يتغنى فيه المجتمعون ببعض الترانيم والتراتيل الدينية.

(167) لم أترجم المقطع الذي وضعه المؤلف، وإنما وضعت مقطعا مماثلا من=

تأمل ذلك - إن المعلق ليس أحد المتبارين ليصل إلى هذا الحد من الحماس الصوتي، وتقنية الميكروفون [مكبر الصوت] تعفيه من أي حاجة لرفع صوته، أو مد الصوائت في كلامه كما كان إدوارد إيفرت محتاجا لذلك[168]. بيد أنّ المعلق الذي يكتفي بوصف ما يراه بصوت هادئ لن يتم توظيفه أبدا: فالمعلق الرياضي لا بد أن يتقن، بالمعنى الأدائي، «وتيرة»[169] معينة، بمصطلحات أثنواغرافية التواصل، مثلما يجب ذلك على زعيم كونا تماما.

وأما بالنسبة لمعقّب كونا الذي يقحم «إنه لكذلك» مرارا وتكرارا، فما مدى غرابة ذلك مقارنة بإد مكماهون مثلا؟ فـ «الرديف» في برامج حديث السهرة[170] لا يختلف عن «المعقّب» لدى شعب كونا، بحسب

=تعليق رؤوف خليف (المعلق الرياضي المعروف) على مباراة بين ريال مدريد وبرشلونة في نهائي كأس ملك أسبانيا عام 2014م، فالألفاظ نفسها ليست مقصودة، وإنما المقصود التمثيل بطريقة الأداء اللغوي للمعلق الرياضي، وهذا يوضحه المثال الذي وضعته، والكلام الذي تحته خط قيل بصوت مرتفع، كما أن كتابة النص الإنجليزي بحروف كبيرة تعني أنه قيل بصوت مرتفع.

(168) إدوارد إيفرت هو الخطيب الذي ذكره المؤلف قبل قليل، وحاجته لرفع الصوت عائدة لعدم وجود مكبرات الصوت آنذاك.

(169) وتيرة ترجمة لـ «manner»، والمؤلف لم يكن دقيقا هنا، فالمصطلح الذي يستخدمه هايمز لوصف هذا الجانب من جوانب الحدث الكلامي هو «المفتاح/ key» الذي يشير إلى الجانب المتعلق بالجَرْس المستخدم في أداء الحدث التواصلي، وما يدل عليه من ناحية الجد والهزل والحماس ونحو ذلك، والوتيرة من مظاهر ذلك.

(170) برامج حديث السهرة/ The late-night talk show نمط من=

مصطلحات إثنوغرافيا التواصل، إلا بـ «الحدث» الذي يشتركان فيه - عرض تلفزيوني في مقابل خطبة. وهما في الحقيقة ليسا بذلك القدر من الاختلاف الكبير.

إن الممارسة الأمريكية لما يسمى بـ «الستاند أب كوميدي» ستبدو من قبيل «الطقوس» حقا بالنسبة لشعب كونا، حيث يتم دفع مبلغ مالي لشخص ليقف أمام تجمع من الناس ويتلو عليهم تعليقات مؤلفة بعناية لجعل عيونهم تدمع من الضحك، ثم يشكرهم على ضحكهم، ويغادر المسرح. تبلغ هذه الممارسة في غرابتها وتشفيرها مبلغ أي ممارسة قَبَليّة قد نراها على قناة دسكفري، وترتكز على شبكة رقيقة من التوقعات من ناحية أسلوب الكلام والاستجابة والأدائية.

إن كوننا نجد أن «الستاند أبد كوميدي» أمرٌ عادي جدا هو بكل تأكيد مظهر مثير للاهتمام من مظاهر تقاطع اللغة والثقافة، وهو ما تجعلنا مقاربة إثنوغرافية التواصل نفهمه. ويمكن للمرء أن يجد مقاربة مشابهة تسمى «الوظائفية السيميائية» باعتبارها نهجا آخر

=البرامج التلفزيونية يقوم على الحديث الذاتي الساخر عن الأحداث السياسية الحاصلة، وقد ابتدأ هذا النوع من البرامج في قنوات التلفزة الأمريكية، ثم انتشر منها إلى بقية البلدان، ومن أمثلته الشهير في التلفزيونات العربية برنامج «دي إن أي» لنديم قطيش، وبرنامج «البرنامج» لباسم يوسف. وإد مكمهاهون (1923-2009) الذي ذكره المؤلف، ممثل كوميدي أمريكي كان يظهر بصحبة جوني كارسون (1925-2005) أحد الرواد الأوائل لهذا النمط من البرامج التلفزيونية، ودوره في ذلك دور الرديف الذي يساعد في إدارة الحديث والتعليق عليه.

لا يمكن لنا بحسبه أن نفهم الكيفية التي تُستعمل بها اللغة أبدا من دون تأطير ذلك في إطار التنوع الثقافي.

الثقافة تشكل النحو: قد يتفق ذلك

بل يوجد طريقة ترتبط بها الثقافة بما تكون عليه اللغات من الناحية البنيوية، لا في كيفية استعمالها فحسب. فاللغات التي تتحدثها مجموعات صغيرة من السكان الأصليين تميل لأن تكون أكثر تعقيدا من الناحية النحوية من اللغات المنتشرة على نطاق واسع، وتكون أكثر احتمالا لأن يكون فيها أصوات أغرب وأكثر صعوبة في إنتاجها كالأصوات التمطقية المشهورة في عائلة من اللغات التي يتحدثها شعوب خويسان(171) المتصيدون اللَّقَطة في جنوب أفريقيا. وذلك مفاجئ لمعظم الناس. فقد يتوقع المرء أن النحو المعقد مناسب أكثر للحضارات «المتقدمة». وغالبا ما يشير الإناسيون واللسانيون ذوو التوجه الاجتماعي إلى أنهم يتوقعون أن يكون للمجموعات الحميمة حاجة أقل للدقة في أشياء من قبيل الجنس والأزمنة الفعلية المفصلة، لأن السياق المشترك يمكن أن يعوض عن تشظي الحياة المدنية ولا شخصيتها.

---

(171) خويسان/ Khoi-San اسم جامع لشعوب وقبائل متعددة في جنوب أفريقيا من أصحاب اللغات ذات الأصوات التمطقية مما لا ينتمي إلى فصيلة لغات البانتو الموجودة في وسط وجنوب أفريقيا أيضا. وقد سبق التعريف بالأصوات التمطقيّة.

والسبب الذي يجعل اللغات ذات المتكلمين الأقل عددا أكثر تعقيدا ليس عائدا إلى كون التعقيد مناسبا لمتكلميها على نحو ما، بل لأن وجود عدد هائل من الناس يتحدثون لغة ما يعني غالبا أنها قد فُرِضت على متحدثين من غير الناطقين الأصليين في مرحلة ما، فتوطأت بواسطة الحقيقة العادية التي يكون فيها تعلم لغةٍ ما صعبا بعد المراهقة(172).

وبعبارة أخرى، إن النوع المعقّد من اللغات هو الأصل - وهو ما صارت عليه كل لغة تقريبا على وجه الأرض عبر ما لا يعد من آلاف السنين من التراكم المتدرج لـ «الخَبْص». أولا واسم التأنيث، ثم الجهة الاحتمالية، ثم بعض التوثّقيات، ثم لاحقا تصبح اللغة نغمية(173) - ولا يعلم المرء أبدا ما الذي يمكن أن يحدث، ولكن سيحدث شيء ما، ثم شيء غيره، ثم شيء آخر. بعد فترة من الوقت يكون لديك خبصة

(172) لقد تطرق غاي دويتشر بتفصيل موسع للمسائل المتعلقة بـ «تعقيد اللغات»، وما يتعلق بهذا الموضوع من إشكاليات، في الفصل الخامس من كتابه «عبر منظار اللغات». ورأي المؤلف هنا بشأن تعقيد اللغات الصغيرة مقارنة باللغات ذات الانتشار الواسع مشابه لما ذكره لسانيون آخرون مثل روبرت ديكسون، انظر الفصل السادس من كتابه «هل بعض اللغات أفضل من بعض»، ترجمة: حمزة المزيني.

(173) اللغات النغْمية هي اللغات التي تستخدم نغمات مختلفة في النطق للتمييز بين معاني الكلمات. فالكلمة نفسها حينما تنطق بنغمة صاعدة يكون لها معنى، ولكنها حينما تنطق بنغمة هابطة يكون لها معنى آخر مختلف. ويكثر هذا النوع من اللغات في شرق آسيا، وفي بعض جهات أفريقيا. وقد سبق التعريف بالجهة الاحتمالية، وواسمات التوثق.

رهيبة تسمى لغة. والشيء الوحيد الذي يعترض هذه السنّة هو الظرف الغريب الذي يتعلم فيها ناس اللغة كبارا لا أطفالا - وهو شيء أصبح يحدث غالبا في الألفية الأخيرة حيث أصبحت التقنية تسمح بالتنقلات السكانية الكبيرة والسريعة.

وبذا فإن اللغات الأكثر ملاسة هي الاستثناءات. فليس صدفة أن لا يكون في الإنجليزية جنس نحوي كما هو موجود في الإسبانية، مثل: «el sombrero/ القبعة» و«la luna/ القمر»[174]، وأن يكون فيها تصريفات فعلية ضعيفة تتكون بشكل كبير من (s-) و(ed-) متفرقتين. فحينما غزا الفايكنغ الإسكندنافيون إنجلترا بداء من القرن الثامن، تعلموا الإنجليزية القديمة - وهي لغة أكثر تعقيدا بكثير من الإنجليزية الحديثة - على نحو ما يتعلم الأمريكي الفرنسية والإسبانية. ولقد كان ثمة الكثير منهم، ممن تزوجوا النساء الإنجليزيات، بحيث أن أطفالهم كانوا يسمعون نسختهم من الإنجليزية القديمة بنفس قدر سماعهم للإنجليزية القديمة الأصلية. وفي غياب وسائل الإعلام والمعرفة الواسعة للقراءة والكتابة، أدّت طريقة الفايكنغ في تحدث الإنجليزية بعد فترة إلى تبّدل الإنجليزية عما كانت عليه.

وفي حين أن هذا بكل تأكيد مثال على كون اللغة تشكل الثقافة، إلا أننا يجب أن نلاحظ في سياق هذا الكتاب أن هذه العملية ليست متوقفة على «احتياجات» خاصة بثقافات معينة. فكون الإنجليزية

(174) تتغير أدوات التعريف في الإسبانية بحسب جنس الاسم المعرف، فالمذكر يأخذ أداة التعريف «el» والمؤنث يأخذ «la». لاحظ أن القبعة في الإسبانية مذكر، والقمر مؤنث.

ملساء نسبيا مقارنة باللغات الأخرى ليس أمرا عائدا إلى شيء متعلق بكون تحدث الإنجليزية يتطلب من المرء أن يكون أقل دقّة من راع يتكلم لغة مغمورة في سيبيريا، بل بسبب أمر غاشم أصابها أثناء مسيرتها التاريخية. ولم تكن «الاحتياجات» ذات صلة بالموضوع إلا بمعنى أن الكبار في مثل تلك الظروف «احتاجوا» للتواصل بقدر ما يستطيعون، وهو مختلف عن «الاحتياج» لعدم وجود جنس أو صيغة للماضي الأسبق.

والمعطيات مشابهة بالنسبة للماندرين الصينية، والفارسية، والسواحلية، والإندونيسية، وغيرها من اللغات السهلة على الكبار في أنحاء العالم(175). وبالعكس، فاللغات المشابهة للغات التمطقية،

---

(175) المقصود هو اللغات التي كان لها انتشار واسع في مراحل معينة من التاريخ، وللاطلاع على بعض الظروف الحضارية المرتبطة بتوسع بعض اللغات في فترات تاريخية معينة، انظر: «إمبراطوريات الكلمة: تاريخ اللغات في العالم»، لنيقولاس أوستلر، ترجمة: محمد توفيق النجيرمي. ولم يذكر المؤلف العربيةَ ضمن هذه اللغات، رغم أنه ينطبق عليها ما ذكره بشأن أثر تعلم الكبار على اللغة، وهو ما أدى إلى ظهور ما يسمى بـ «العربية المولدة» بسرعة كبيرة جدا إبان فترة الفتوحات الإسلامية، وما فيها من ظواهر تعد أصلا للهجات المعاصرة، التي هي من نواح كثيرة أقل تعقيدا من العربية الفصيحة (انظر مثلا: الفصل السادس من كتاب «اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها»، لكيس فرستيغ، ترجمة: محمد الشرقاوي). غير أن العربية الفصيحة لم يتم التخلي عنها نتيجة لهذه الظروف، بل استمرت المحافظة عليها في الكتابة والتعليم لأسباب دينية وحضارية مهمة جدا. وقد تتبعتُ بإيجاز بعض تلك المراحل التاريخية التي مرت بها العربية في بحث بعنوان: «العربية =

أو لغة نافاهو بأفعالها غير المنتظمة بالكليّة، أو لغة «يلي دني» بما فيها من آلاف السوابق واللواحق، ليست لغات معقدة لأن متكلميها يحتاجون أن تكون على ذلك النحو، بل لأن ذلك المستوى من التعقيد - الذي يتجاوز بشكل هائل ما يحتاجه البشر للتواصل - هو ما عليه جميع اللغات في العادة. وهذا يعني أن لغات مثل الإنجليزية نتجت عن تأثير ثقافي، بالمعنى الواسع، في كيفية انبناء النحو.

اللغة والكليات: توضيح

أرجو أن أكون قد وضحت أني، كمعظم الباحثين في اللغة، أرى أن الثقافة الأكاديمية التي تتعامل مع اللغات بمعزل عن ثقافات البشر الذين يتكلمونها ليست مجدبة فحسب، بل متعذرة تجربيا[176].

ويسمع البعض تلقائيا في الخطاب القائل بأن اللغات تبيّن ما هو كلي في البشر هتافا لمقترح تشومسكي عن «النحو الكلي»

=بين عوامل الازدهار والانحدار»، منشور في العدد السابع من مجلة «التخطيط والسياسة اللغوية».

(176) تجدر الإشارة إلى أننا نستخدم المصطلح «تجربي» المنسوب إلى «تجربة» بمعنى «empirical» الذي يدل على ما يستمد من معطيات الواقع والخبرة المعيشة، ويمكن نوعا ما إثباته أو دحضه إما بالرصد أو بالتجريب. فهو بذلك أعم من «تجريبي» المنسوب إلى «تجريب»، والذي نستخدمه بمعنى «experimental» ليدل على إجراء منضبط ومخصوص في التعامل مع معطيات الواقع والخبرة. وفي ذلك استثمار اصطلاحي لاختلاف مصدري «جرّب» في العربية لحل مشكلة اختلاف مدلولي المصطلحين الإنجليزيين.

الفطري الذي تشترك به جميع اللغات. وتلك النظرية، التي أصبحت مقبولة حاليا لدى جماعة منتشرة في أنحاء العالم من المتخصصين في التركيب، تنظر إلى اللغة باعتبارها مرتكزة على تكتل من الأبنية المشفرة تشفيرا عصبيا فتحدد الكيفية التي تنتظم بها الكلمات في الجملة. وتحديد الأبنية العصبية المفترضة أمر خارج عن قدرة العلم في الوقت الراهن، ولكن علم التركيب التشومسكي يحاول تبيانها عن طريق الاستنتاج، بمقارنة أنماط الجملة في لغات متعددة ونمذجتها بحسب تخطيطات خوارزمية مجردة من نوع ما يشتغل عليه علماء الحاسوب.

ومن المعتقدات الأساسية لهذا المشروع أن جميع اللغات مرتكزة على نمط نحوي كلي واحد، بحيث تكون تنوعاته عائدة إلى إعدادات تناوبية لـ «مُحَوِّلات» متعددة. وجه المحوِّل الذي يتحكم في ترتيب الكلمات على نحو معين وستحصل على الفرق بين لغة تقول (you took his book/ أخذت كتابه) وأخرى تقول (you book his took/ أنت كتاب هو أَخَذَ). ووجه محوِّلا آخر لتحدد ما إذا كان يتعين عليك أن تستعمل ضمير الفاعل أم لا: فتقول (I speak/ أنا أتحدث) [في الإنجليزية] حينما يكون مطفأ، و(hablo/ أتحدث) في الإسبانية بدون (yo/ أنا) حينما يكون مشتغلا. وكل ما يحتاج الطفل تعلمه هو الطريقة التي توجه بها لغتُه محوِّلاتها، فيشبك الكلمات فيها[177].

(177) المقصود هنا هو أن النحو الكلي الذي تشترك فيه اللغات يتكون =

فالتنـوع في أنحاء اللغات بالنسبة للتشومسكيين إذن نوع من الوهم: فهي كلها لغة واحدة في العمق، وكونك تدرس اللغات مذهولا من تنوعها، بدلا من تشابهها الكامن فأنت تخطئ الهدف. بل إن الممارسين الأقل تلطفا معروفون بأنهم ينبذون دراسة اللغة من الزوايا الأخرى باعتبارها «ليست لسانيات حقيقية»، وأقل صرامة فكرية من التبحّر في أدوات التركيب التشومسكي ذات الرطانة المكثفة.

وكما هو متوقع، يوجد قلة من اللسانيين يميلون إلى وجهة أخرى، ولا يشعرون أنهم يستحقون الاسم فحسب[178]، بل يشعرون أنهم يعتبرون المقاربة التي تدرس اللغةَ ولا تأخذ متكلميها وما هم عليه بعين الاعتبار قاحلة من الناحية الفكرية، بل متعذرة من الناحية التجريبية. فاللغة بالنسبة لهم، باعتبارها ظاهرة اجتماعية في أساسها،

=من مبادئ ثابتة في اللغات جميعا، وتنويعات معينة لتلك المبادئ تسمى «الضوابط» ويحددها النحو الكلي أيضا. فمن المبادئ مثلا أنه يوجد في اللغات جميعا مركبات مرتبطة بعلاقات بنيوية بين مكوناتها، ومن تنويعات هذا المبدأ أن يكون رأس المركب في الصدارة كما في الإنجليزية أو في المؤخرة كما في اليابانية، فيختلف ترتيب مكونات المركب (أو الجملة) بحسب هذا الضابط. ومن المبادئ الموجودة في اللغات جميعا أن الجملة لا بد أن تكون متضمنة لفاعل مرتبط بعلاقة إسنادية مع الفعل. ومن تنويعات هذا المبدأ أن بعض اللغات كالإسبانية والعربية تجيز استتار ذلك الفاعل، وبعضها كالإنجليزية لا تجيزه، وهكذا. وللمزيد، انظر الفصل الثاني من كتاب: أسس اللسانيات النفسية، لإيفا فيرنانديز، وهيلين كيرنز، ترجمة: عقيل الشمري.

(178) أي اسم اللسانيات الذي ينفيه عنهم التشومسكيون كما ذكر المؤلف في الفقرة السابقة.

لا يمكن أن يُتعامل معها كما لو كانت برنامجا حاسوبيا ببساطة. ورغم شيء من عامل الفتنة المحيط بعلماء التركيب التشومسكيين - فشهرة تشومسكي تساعد على ذلك، وقد قامت المقاربة في عقد الستينيات حينما كانت جديدة وأقل تجريدا مغلقا مما أصبحت عليه منذئذ، بثورة في اللسانيات كحقل معرفي -، فإن الحقيقة هي أن معظم اللسانيين يخالفون ما يتفرد به هذا التصور المتزمت بشأن وجود قالبٍ ذهني معقّدٍ متميزٍ على نحو غريب عن كل ما سواه مما يتضمنه العرفان.

وأنا أعد نفسي من بين هؤلاء: فادعائي بأن تنوع اللغات يعلمنا ما نشترك فيه ليس فيه تبنٍ لتصور النحو الكلي الذي وصفته للتو. وإنني كمعظم اللسانيين أعتقد أنه يوجد استعداد جِبلّي لاستعمال اللغة. غير أن الفرضية الواعدة فيما يخص هيئته العصبية ستكون أكثر توافقا مع أساسيات النظرية التطورية والعرفان البشري، على نحو لم يحاول مجرد المحاولة أن يكون عليه التركيب التشومسكي. علاوة على ذلك، فإن كثيرا من عملي اللساني يركز على كيفية تأثير الشروط الاجتماعية التاريخية على كيفية انبناء اللغات طوال التاريخ البشري، في حين أن بعضا من عملي الموجه لوسائل الإعلام قد تفحّص اللغة في السياق الاجتماعي الحديث.

إن التعلق التلقائي بالوورفية إجمالا لدى كثير من اللسانيين ومن يسير في ركابهم متجذر جزئيا في المقاومة العاطفية لشيء من الهيمنة الثقافية التي تَتّبِعُها اللسانيات التشومسكية. فالمرء لا بد أن يتشكك بلسانيات لا مكان فيها للشخص. ولكني أعتقد أن هذا الموقف نفسه

قد أصبح عكسيا ومفرطا في التبسيط - فدراسة الثقافات الأصلية، أو الكيفية التي يُشيد بها الناس هوياتهم من خلال اللغة، لا دور لها في اكتشاف الهيئة العصبية التي تسمح بالكلام الإنساني بغض النظر عن مكان ولادة المرء. ومع ذلك فإن بياني هذا ليس إيماءة خفية إلى التصورات التشومسكية عن نحو كلي مجرد ينمذج الإنجليزية واليابانية كلغة واحدة ذات مجموعة مختلفة من محولات التبديل. فالكيفية التي نتكلم بها مرتبطة دون شك بمن نكون.

التقدم للأمام

ويوجد بعد ذلك طرقٌ تتداخل بها اللغة مع الثقافة غير تلك التي ناقشتها هنا. وليس لدي اعتراض على مقاربات واستنتاجات أيٍّ منها، بل إن القضية منتهية حتى لو اقتصرنا على ما قُدّم في هذا الفصل الوجيز: ففي اللغة الكثير جدا فيما يبدو مما يتصل بالثقافة.

إن ما يعترض عليه هذا الكتاب هو سؤال محدد. وهو هل بنية اللغة، من ناحية ما تفعله بالكلمات والكيفية التي تضمها معا، تقوم على نحو خفي بتشكيل الفكر إلى حد يمكن لنا أن نصطلح عليه اصطلاحا مقبولا بـ «رؤية العالم»، أي منظورٍ للحياة مختلف اختلافا صارما عن منظور شخص تبني لغته الكلمات والنحو بناء مختلفا؟ هل لكل لغة، كما عبر جاك هيت، «لاهوتها وفلسفتها المندفنين» بهدوء ولكن على نحو مغيّر للذهن «في أوتارها».

يشعر كثيرون أن الجواب عن هذا السؤال هو نعم، ولكن مرتكزاتهم لهذه الخلاصة تخلق مشكلات بقدر ما تحلها. ويمكنني الآن أن أشرح

السبب، مع الاستصحاب الواضح لكوني لا أقول بأن اللغة والثقافة ليس بينهما علاقة، بل أقول إنهما منفصلتان في جانب محدد جدا، وإن كان يناقش كثيرا، وله استتباعات بالغة. ولنمض، على سبيل المثال، إلى الصين.

هوامش الفصل الثالث:

- ضمير «أنت» في الصينية:

Susan D. Blum, "Naming Practices and the Power of Words in China," Language in Society 26 (1997): 357-79.

- إثنوغرافية التواصل: مختارات كلاسيكية، تشتمل على مقال عن لغة كونا في بنما:

Richard Bauman and Joel Sherzer, Explorations in the Ethnography of Speaking (Cambridge: Cambridge University Press, 1974).

- لغة كونا: مناقشة تفصيلية، في مقابل المقالة التي وردت أعلاه موجودة في:

Joel Sherzer, Kuna Ways of Speaking (Austin: University of Texas Press, 1983).

- تبسيط الكبار للغات: ناقشتُ ذلك في كتابيّ:

Our Magnificent Bastard Tongue: A New History of English (New York: Gotham Books, 2008)

و

What Language Is (And What It Isn't and What It Could Be) (New York: Gotham Books, 2011).

وأنصح كذلك بالكتاب التالي:

Peter Trudgill, Sociolinguistic Typology: Social Determinants of Linguistic Complexity (Oxford: Oxford University Press, 2011).

الفصل الرابع

«ازدراء الصينية»

كثير من جاذبية الوورفية تكمن في الفكرة القائلة بأن لغات الشعوب الأخرى تقودهم لأن ينتبهوا لأشياء أكثر من انتباه متحدثي الإنجليزية لها. ويسعى الباحثون ليبينوا أن خصوصيات معيّنة للغةٍ ما تجعلُ الناسَ أكثر حساسية تجاه مادة الأشياء، أو تجاه درجات الزرقة، أو تجاه الجنس الذي يتفق أن تسنده لغتهم إلى الأشياء غير الحية. ولا شك أن كثيرا من اللغات طافحةٌ بتراكيب تلفت الانتباه إلى دقائق من البيئة قلما يتخيل متكلم من متكلمي الإنجليزية أن يكون لنحو أي لغة أي علاقة بها. ويفترض المرء تبعا لذلك أن كل الزخارف والزركشات الموجودة في لغة من هذا القبيل قد تدل على نوع من الحساسية المفرطة لملامح معينة من الحياة - مما يجب أن يتعجب منه بقيتنا، وربما يحتذونه أيضا.

اللغة الطبيعية: فيما عدا الإنجليزية بالطبع

جزءٌ مما دفع مفكرين من أمثال وورف ومتخصصين آخرين في لغات الأمريكان الأصليين إلى هذا المزاج أنّ تلك اللغات تميل لأن تكون مفصلة على نحو مجلجل من ناحية ما تلفتُ الانتباه له. إن الانطباع المستقى من لغة أمريكية أصلية هو في العادة أنها متكثرة جدا - أي أن المرء لا بد أن يتنبّه لكثير جدا من الأشياء لكي يشكّل جملة

بسيطة. وكل اللغات التي أعرفها تقريبا، خارج اللغات السلافية، من اللغات الموجودة في العالم المليئة جدا بتمييزات خاصة دقيقة مما لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لشخص أن يتكلمها دون جهد = هي لغات أمريكية أصلية. ولقد كنتُ، على سبيل المثال، أثناء مشاركتي في حلقة نقاشية عن لغة كرِي[179] في جامعة كولومبيا بيركلي قبل سنوات، أبدي ما لا نهاية له من الملاحظات للأستاذ ريتشاردز رودس عن كوني لا أصدّق أن شخصا يمكنه أن يتتبع الكثير جدا من الأشياء الموجودة في لغةٍ كانوا حقا يعيشون بها حياتهم - لقد عرف ما قصدتُ وكان متيما بتلك اللغة لذلك السبب بالضبط. (وهو الذي أدين له بقدر كبير من لفت انتباهي للتعقيد الرهيب للغات الأصلية).

وتعد لغة أتسوغوي[180] في كاليفورنيا مثالا رائعا، وقد انقرضت مؤخرا، وأما حينما كانت ما تزال موجودة، فيا إلهي! فجملةُ «يتدفق السخام في الجدول[181]»، على سبيل المثال، تكون هكذا:

(179) لغة كري/ Cree إحدى لغات السكان الأصليين في كندا، لاسيما المناطق الشمالية منها، وتتضمن هذه اللغة لهجات متعددة يبلغ مجموع متحدثيها قريبا من 120 ألف شخص، وهي لغة رسمية في الإقليم الشمالي الغربي من كندا.

(180) لغة أتسوغوي/ Atsugewi من لغات السكان الأصليين في الولايات المتحدة، في الشمال الشرقي من ولاية كاليفورنيا تحديدا، وقد انقرضت هذه اللغة مؤخرا كما ذكر المؤلف، وإلى عقد التسعينيات من القرن الماضي كان يوجد من يتحدثها.

(181) السخام هو السواد الناتج عن الفحم الأسود الناتج عن الاحتراق، والجدول هو المجرى المائي الصغير.

(Wʼoqʰputícʼta cᵊ niʔᵊ qápʰ cᵊ cʼuméyi). ولا داعي لأنْ يعوقنا هنا تقسيمها إلى أجزاء بكل ما في ذلك من غرابة وَعِرَة، فيكفي أن نعرف أنه يوجد داخل هذه الجملة زخرفة جليلة.

فالكلمة الدالة على فعل «التحرك» كلمة محددة لا تستخدم إلا عند الحديث عن أشياء من قبيل الأوساخ - أما إذا كان الذي يتحرك أشياء أخرى، فلا بد أن تستخدم كلمة أخرى للدلالة على فعل «التحرك». والكلمة المستخدمة للدلالة على «في» [الترجمة الحرفية لها هي «إلى داخل»] في الجملة تستخدم فقط حينما يكون الذي يُدْخَل فيه سائلا، وإلا فإنك تستخدم كلمات أخرى لـ «في» [أو إلى داخل]» بحسب المادة (وفي ذلك ظلال مما في لغة «يلي دني» في نيو غينيا من كلمات متعددة لـ «على»)[182]. ولا يهم إن كان يوجد مسبقا في مكان آخر لاحقةٌ تدل بنفسها على معنى «إلى» - كما لو كانت اللغة تعتقد بطريقة أو بأخرى أن ذلك ليس كافيا. وتخبرنا لاحقةٌ أخرى أن الجملة وقائعية، وليست مفترضة، وهو ما قد يبدو بديهيا من حقيقة أن الشخص يقولها، ولكن هذه اللغة تضع النقاط على الحروف، ولا تترك شاردة ولا واردة! وأخيرا، تدل العلامة («cᵊ»، التي تنطق «تسوه» تقريبا) على أن كلمتي «سخام» و«جدول» اسمان - تحسّبا لعدم اتضاح أنهما كذلك.

هناك شيء لذيذ في التكهن بالكيفية التي يمكن أن تشكل لغة كهذه أفكار المتحدثين بها - فيوجد فيها كلمات كثيرة للدلالة على

(182) تحدث المؤلف عن هذه اللغة سابقا، وذكر أن فيها إحدى عشرة طريقة لقول «على».

«التحرك»، والأداة الدالة فيها على معنى «إلى داخل» بمثابة كائن متعدد الرؤوس، وتوضّح بشكل صريح للغاية أن الأشياء هي أشياء. وبقدر ما أنها قد تسبب لمتحدثٍ بالإنجليزية شيئا من عقدة النقص بخصوص لغتنا الأقل تفصيلا، فإن ذلك يمكن أيضا أن يكون مرحبا به من وجه آخر. إن رؤية الطريقة التي تعمل بها اللغات المشابهة للغة أتسوغوي درس أنيق وحاسم في التساوي الذهني لدى البشر جميعا.

وهنا تبدو الوورفية نافعة.

ولكـــن.

* * *

تختلف اللغات في مقدار ما تحشو به الجملة اختلافا أكثر بكثير من الاختلاف الحاصل بين أتسوغوي والإنجليزية. والإنجليزية بالنسبة للغات تقع في المنتصف تقريبا على سلم الإبراقية[183]. ومن السهل علينا أن نفترض أن درجة التعقيد الموجودة في اللغة الإنجليزية هي «الطبيعية»، لكن يوجد الكثير من اللغات التي تجعل الإنجليزية تبدو وكأنها «أتسوغوي».

---

(183) الإبراقية/ telegraphicness استعارة تشير إلى مقدار الاقتضاب أو التفصيل في الكلام وما يقتضيه النظام النحوي بهذا الخصوص، وهي كلمة مشتقة من «البرقية» التي يحذف منها المرسِل بقدر ما يستطيع، ويُبْقي على الضروري فقط لتوصيل المعنى، من أجل تقليل تكلفة الرسالة. فاللغات على سبيل التشبيه بذلك تتفاوت في مقدار ما تتطلبه من إضافات وزوائد يقتضيها بناء الجملة من الناحية النحوية، وليس توصيل المعنى المراد فحسب.

لنأخذ جملة بسيطة لا حصر لترجماتها، وهـي: « In the beginning, God created the heavens and the earth/ في البدء خلق الله السماوات والأرض»[184]. تتطلب هذه الجملة، في اللغات التي تدقق فيما اعتدنا عليه، الاهتمامَ ببعض العمليات النحوية. فالجملة في الإنجليزية تَسِم الزمن الماضي (created)، وتتضمن أدوات للتعريف، وتسم الجمع (heavens). وأما في العبرية الأصلية فالجملة هي: « Bereshit bara Elohim et hashamayim ve'et ha'arets». وفيها هنا أيضا وسم للزمن الماضي في الفعل (bara)، وأدوات للتعريف (-ha)، ووسم للجمع (-im)، بالإضافة إلى وسم السموات والأرض بعلامة (et) التي تدل على أنهما مفعولين لا فاعلين[185].

وتحشو لغات أخرى الجملةَ بما يزيد قليلا عن ذلك. فالجملة في الروسية هي: «B načale sotvoril Bog nebo i zemlju». ولا وجود في الجملة الروسية لأداة التعريف، ولكن لدينا الزمن الماضي، ووسم الجمع، ووسم الكلمة الدالة على أرض (zemlj-u)

---

(184) هذه الجملة هي الآية الأولى من سفر التكوين في الكتاب المقدس لأهل الكتاب.

(185) والعربية كالعبرية، فالجملة تسم الماضي في (خلق) وتتضمن أداتي تعريف في (السموات) و(الأرض)، وتتضمن وسم الجمع (السموات)، بالإضافة إلى علامات الإعراب الدالة على المفعولية في (السموات) و(الأرض)، وتزيد بإضافة علامة الإعراب الدالة على الفاعلية في لفظ الجلالة.

وسمَ المفعول بلاحقة لذلك. وتتطلب الروسية بالإضافة إلى ذلك أن نسم كلمة «البدء» (načal-e) بواسم الظرفية (e-)، والسابقة (so-) في كلمة (sotvoril) بمعنى «خلق» تعني أن الخلق حدث في وقت واحد لا على امتداد فترة طويلة.

واللغات الأخرى التي ليست متصلة أبدا باللغات الأوروبية والشرق أوسطية تعمل وفق خطةٍ مختلفة تماما، ولكنها تحافظ على المستوى نفسه من الانشغال. فالجملة في اللغة التغالوغية، وهي اللغة الرئيسية في الفلبين، تكون: «Nang pasimula ay nilikha ng Diyos ang langit at ang lupa». والكليمة الصغيرة (ay) تظهر حينما تبدأ جملةٌ ما بشيء غير الفعل. ولا تسأل عن السبب، فهو أمر عليك أن تفعله وحسب - جزء من النحو. والجزء (-ni)، من كلمة (nilikha) بمعنى خلق، واسم آخر من تلك الواسمات المدقّقة جدا للدلالة على أن شيئا ما حقيقي وليس مختلقا. ثم إن في التغالوغية شيئا أشبه بالأدوات: فالفرق بين (ang) و(ng) يشبه إلى حد ما الفرق بين (the/ أداة التعريف)، و(a/ أداة التنكير).

بيد أنه يمكن للغة أن «تُعنى» بما هو أقل بكثير مما تعنى به هذه اللغات. فجملة «في البدء خلق الله السموات والأرض» في الماندرين الصينية تكون: «Qĭ chū shén chuàng zào tiān dì». وهذه الكلمات تعني بكل بساطة: «بدء بدء الله حققَ صنعَ سماء أرض».

لا توجد هنا تصريفات من أي نوع. فلا وسم للماضي، ولا أدوات للتعريف، ولا وسم للجمع. ولا يوجد وسم لأي شيء

باعتباره مفعولا، ومن باب أولى ألا وجود لوسم «البدء» باعتباره ظرفا. ولا يذكّر المتحدث الصيني محاوره بأن ما يتحدث عنه شيء «حقيقي»، بل إنه ليس عليه حتى أن يربط كلمتي «سماء» و«أرض» بكلمة «و» الدالة على العطف!. «بدء بدء الله حققَ صنعَ سماء أرض».

هذه هي الصينية. وكثير من إتقانها بالنسبة لشخص غربي هي مسألةُ تعوّدٍ على التخلّص من كثير مما لا يتعين قوله. ولكن ذلك يؤدي إلى سؤال. فإذا كانت اللغات التي تجيش بفقاقيع لتمييزات دقيقة بشأن المواد، والتعيين، وحقائقية الأشياء بمثابة نوافذ على عقول متحدثيها، فما الذي سنفترض أن نحو الصينية يخبرنا به عن عقول المتحدثين بها؟

وبشكل أعم، إن كان حقا أن ما يوجد في نحو لغةٍ ما يكشفُ لنا ما يفكر به متحدثوها على الفور، فما الذي تكشفه لغةٌ عن متحدثيها حينما لا يتطلب نحوُها الانتباهَ إلا إلى القليل نسبيا؟ إن كانت أتسوغوي تمثل رؤية للعالم، فإن رؤية العالم في الصينية ستكون فيما يبدو بلهاء وقاحلة نوعا ما.

ويبدو أن وورف في مقطع أقل اقتباسا قد توقع أن إطاره النظري يستلزم نوعا من التعامل مع التعقيد المتباين فيما بين اللغات، فتجاسر أن يقول: «قد يتبين أنه كلما أصبحت اللغة أقل تعقيدا في الظاهر، أصبحت أكثر اعتمادا على الأنماط المخبوءة[186] وغيرها من

(186) الأنماط المخبوءة/ cryptotypes من المصطلحات التي استحدثها وورف في التحليل اللساني، ويرى بعض اللسانيين البارزين مثل مايكل هاليدي أنها من أهم المفاهيم اللسانية التي ظهرت في القرن العشرين. ويقصد بها سمات تركيبية ودلالية لا توسم وسما ظاهرا، وتكون =

التشكيلات المستترة، وزاد اخفاؤها للافتراضات المسبقة اللاواعية، وأصبحت معجماتها متغيرة وغير قابلة للتحديد».

يستشعر المرء أن وورف كان ينظر إلى هذه «التشكيلات المستترة»، و«الافتراضات المسبقة اللاواعية» والمعاني «غير القابلة للتحديد» باعتبارها أشياء ذات أهمية محتملة. غير أنه من الصعب تخيل ما المقاربة العلمية التي يمكن أن تضيء هذا الغموض والقتام. إن الفكرة كلها قريبة من القول بأن متحدثي الإنجليزية لديهم أفكار، في حين أن متحدثي الصينية لديهم مجرد خَطَرات.

وهنا تبدو الوورفية خَطِرة.

فوضى وارفة[187]

وفيما يتعلق بالصينية فإن ذلك بالكاد يكون خالجة مارقة. فطبيعة

=خفية جدا حتى على متكلم اللغة، ولكنها مهمة لبناء الجملة وفهمها. ومن أمثلته على ذلك نظام الجنس في الإنجليزية الذي لا يوسم وسما ظاهرا، ولكنه يُلْحظ ويراعى على نحو خفي عند استعمال الضمائر. وكذلك الأعلام الدالة على أماكن في الإنجليزية، إذ لا يمكن استبدالها بضمائر حينما ترد بعد الحروف. ولكن المؤلف هنا يرى أنها فكرة غامضة، ولها استتباعات سلبية بالنسبة إلى بعض اللغات، كاللغة الصينية.

(187) يوجد في العنوان الإنجليزي «a blooming mess» جناس وتورية مقصودة لا يمكن نقلها للعربية، فـ«bloom» كلمة في الإنجليزية تعني الإزهار والنضارة، ولكنها في نفس الوقت تحيل إلى اسم «ألفرد بلوم» وهو باحث وورفي سيناقش المؤلف أعماله فيما يأتي. بيد أننا قد غيرنا العنوان إلى «وارفة» بدلا من ذلك، وفيه شيء من الجناس مع اسم «وورف» الذي أثير هذا الجدل كله بسببه.

قواعد النحو الصيني على أية حال قد تجعل المرء يجازف بالقول بأن تحدّثَ الصينية لا يجعل المرء يرى العالم على نحو مختلف فحسب، بل على نحو باهت. ولقد كان ثمة تكهنات أكاديمية تسير على هذا المنوال تماما، وكما هو متوقع، فإن الإعجاب والغرام اللذين كانت تُحَيّا بهما الوورفية تقليديا قد سقطا على الفور. والسؤال ما معنى ذلك للمشروع برمّته؟

إن المقصود هي قضية عالم النفس ألفرد بلوم، في مطلع الثمانينيات. لم يفعل بلوم شيئًا سوى السير على خطى ما كان حتى ذلك الحين عقودًا من الأعمال الوورفية، فحقق فيما إذا كان للكيفية التي تعمل بها الصينية تأثير في كيفية تفكير الصينيين. ولكن هذه المرة، لم يكن تركيزه على الكلمات المتعددة للألوان أو باقات الكلمات المفهرِسة لما تُصنَع منه الأشياء، بل انعدام شيء ما.

وذلك أن لغةً كالإنجليزية معنيّة للغاية بتشفير الافتراضية. فبالنسبة لمتحدث بالإنجليزية يبدو من الطبيعي، كقانون الجاذبية، أن توجد ثلاث جمل متشابهة، بيد أنها مختلفة، كالجمل التالية:

If you see my sister, you'll know she is pregnant.	إذا رأيت أختي، عرفت أنها حامل.
If you saw my sister, you'd know she was pregnant.	لو رأيت أختي، عرفت أنها حامل.
If you had seen my sister, you'd have known she was pregnant	لو كنت قد رأيت أختي، لكنت قد عرفت أنها حامل.

إن الجمل الثلاثة تفيد ضمنا ثلاثة ظلال مختلفة من اللاواقعية. فتوحي الأولى (إذا رأيت أختي..) بأمر من المحتمل أن يحدث. أما الثانية (لو رأيت أختي..) فتجعل الأمر مشهدا متخيلا. وأما الثالثة (لو كنت قد رأيت أختي...) فتحول الأمر برمته، بافتراضيته الكاملة، إلى الماضي[188].

ولا يستطيع المرء نقل هذه الفروق في الماندرين الصينية إلا بإطناب مفصل لا ضرورة له في الكلام العادي. فالجمل الثلاثة كلها ستصير كأنها «إذا رأيت أختي، فستعرف أنها حامل» من دون وسم خاص للمضي، وللشرط الامتناعي في (you'd) بمعنى (you would)، اللذين تستخدمهما الإنجليزية باعتبارهما الشيء الطبيعي.

هنا مثال آخر، إذن، على الكيفية التي لا يتعين فيها على المرء أن يقول الكثير بالصينية، نسبيا. والترجمة الحرفية للجملة الصينية ستكون تقريبا هكذا: «If you see I sister you know she pregnant get/ إذا أنت ترى أنا أخت أنت تعرف هي حامل يصير» للجمل الإنجليزية الثلاث. وعليه: إذا كان وجود كلمتين منفصلتين للأزرقين الغامق والفاتح يعني أن الروس يدركون درجات الأزرق على نحو «أكبر» أو «أسرع» مما نفعل، وإذا كان وجود مجموعةٌ من

(188) العربية مثل الإنجليزية في الدلالة على هذه المعاني المختلفة للشرط، ولكنها لا تؤدي ذلك عن طريق التصريف بتغيير صيغة الفعل المساعد كما في الإنجليزية، بل عن طريق الأداة، فـ «إذا» لما يترجح حدوثه في المستقبل، و«لو» أداة امتناع لامتناع فتجعل الأمر مفترضا فقط.

الكلمات الواسمة لما تُصْنَع منه الأشياء يعني أن اليابانيين يعالجون الجوهر المادي على نحو «أكبر» أو «أسرع» مما نفعل، إذن بالتأكيد إذا كانت الصينية تسم الوضع الافتراضي وسما أقل صراحة من الإنجليزية، فإن الصينيين يعالجون الوضع الافتراضي معالجة على نحو «أقل» أو «أبطأ» مما....

ومن المرجح أنه يمكنك تخيل الرد.

ولم يؤد ذلك إلى حملة مطاردات ضد المنشقين، ولكنه قد أثار على نحو مريب سلسلة طويلة من المقالات الرادة مقارنة بغيره من الأعمال الوورفية، لا سيما بالنسبة لكتابٍ نشر قبل عصر الإنترنت بوقت طويل. فلقد كان ثمة خمس مقالات رئيسية كُتِبَت في معارضة بلوم، على نحو مستمر وصولا إلى عام 2005م، أي بعد ربع قرن من ظهور كتاب بلوم، وهو زمن قد تحول فيه منذ وقت طويل فكريا ومهنيا. ويَلْمَح المرءُ أيضا، في التلقي، عنصرا غائرا فيما بين السطور. كل الردود مهنية ومهذبة تماما، ولكن عنوان أحدها هو: «رد على ألفرد بلوم»، فلماذا هو شخصي جدا؟ إن الأكثر اعتيادا هو «رد على بلوم (1981)»، أو أن لا يُذكَر الاسم إطلاقا. والعنوان الفرعي لرد آخر، هو: «لقط الحطام» - فما الذي تحطّم؟ لقد كان هناك فيما يبدو ما يرى البعضُ أنه نوع من شِجَار.

والصراحة، أنه من المؤكد تقريبا أنه سيكون هناك شيء من ذلك لو أن بلوم قد نشر عمله في عصرنا. ولنستخدم أسلوب الشرط الافتراضي - لو كان بلوم قد تجاسر اليوم على القول بأن الصينية تجعل متحدثيها

أقل تحسّسا للفرق بين الواقع والمتخيل، لكان قد وُضِع اليوم على السَّفُّود في عالم التدوين لشهور. وليس من قبيل المصادفة أن ادعاءات بيتر غوردون ودانييل إيفرت بشأن لغة بيراها قد أثارت قدرا مماثلا من المقاومة الأكاديمية، حيث كان العمل الوورفي يبرز القصور لا الميزة[189].

بيد أن بلوم لم يطرح تكهناته من دون تدليل. فلقد قدم للمبحوثين الصينيين والأمريكان قصة يمكن أن تُؤوّل تأويلا معكوسا أو متعينا[190]. فاختار سبعةُ بالمئة من الصينيين التأويل المعكوس، في حين بلغت نسبة الأمريكيين الذين اختاروا ذلك 98%. وطرح على الصينيين أيضا أسئلة معقولة تماما، مثل: «لو كانت جميع الدوائر

(189) مقصود المؤلف هو أن الدراسات الوورفية تُرْفَض حينما تُظْهِر قصور متحدثي بعض اللغات مقارنة بمتحدثي الإنجليزية أو ما يشبهها من اللغات الأوروبية، ولكنه يُحتفى بها حينما تُظْهِر تميزهم عليهم. وهذه الازدواجية في رأي المؤلف تُظْهر شيئا من الجوانب غير العلمية المرتبطة بهذا المشروع، وترتبط بالسياق الفكري العام لمثل هذه الدراسات الذي شرحنا بعض جوانبه في المقدّمة.

(190) التأويل المعكوس هو الذي يَفْهَم الشرط الامتناعي الذي يدل على معكوس الواقع فهما صحيحا، بمعنى أن المضمون المتحدث عنه لم يحدث. فجملة «لو قرأتَ فهمتَ» تعني أن القراءة والفهم لم يحصلا، وإنما هما أمران مفترضان، والفهم الصحيح للجملة هو الذي يؤولها على هذا النحو. وللاطلاع على مثال من القصص التي عرضها ألفرد بلوم على المبحوثين في هذه الدراسة التي يتحدث عنها المؤلف، انظر- ما كتبه ستيفن بنكر عن ذلك في الفصل الثالث من كتاب «الغريزة اللغوية»، ترجمة: حمزة المزيني.

كبيرة، وكان هذا المثلث الصغير دائرة، فهل سيكون كبيرا؟». فوجد أن مبحوثيه كانوا يجيبون بصورة غالبة تتجاوز أن تكون قد حدثت عرضا بإجابات من قبيل: «لا، كيف يمكن أن تكون الدائرة مثلثا؟ كيف يمكن أن تكون هذه الدائرة الصغيرة كبيرة؟ ماذا تقصد؟». وأما لدى متحدثي الإنجليزية فقد كان هذا النوع من الإجابات أقل بكثير جدا.

لقد خلص بلوم، وفقًا لتقليد الفكر نفسه الذي وجده الناس جذابًا جدًا عند تطبيقه على وجوه الإحساس المحتدة لدى الأمريكان الأصليين، إلى أن تَكَلّمَ لغةٍ تترك كثيرا مما يتعلق بالوضع الافتراضي للسياق يجعل أنماط تفكير الشخص المتكلم لها أقل تحسسا لذلك الوضع، من أنماط تفكيرِ متحدثٍ بالإنجليزية.

لقد وجد الباحثون الرادون على بلوم على مر السنين نتائج مخالفة لنتائجه. وتفسيراتهم فيما يخص السبب تتضمن مدى تأثير درجات الخبرة في الإنجليزية في إجابات الصينيين عن تلك الأسئلة، ومدى إصابة ترجمات بلوم إلى الصينية، وإمكانية كون الصينيين أفضل في التعامل مع الافتراضية حينما تكون مطبقة على المواقف العادية لا المجردة بصورة متعمّدة. وأيا يكن، فقد رد بلوم بطبيعة الحال على الردود.

وحُكْمُ المراقبِ في نهاية المطاف هو أن بلوم قد بَصُر بشيء ما، ولكن ليس بالطريقة التي كان سيجدها وورف آسرة جدا. ولقد كان هناك تلميحات عن الحقيقة حتى في الردود التي حصل عليها بلوم منذ البداية، حينما كان المبحوثون يميلون إلى الاعتراض على أسئلة

«ماذا لو» الغريبة باعتبارها «غير طبيعية» و«غير صينية» و«مربكة» و«غريبّة». وكانت مقاربة بلوم هي أن يخمّن أن هذه الردود تمظهرات سطحية لشيء ما ناتجٍ في نهاية المطاف عن اللغة المؤثرة في الفكر. ولكن من المعقول بنفس القدر تماما أنّ هذه الأفكار تمثيلٌ لفكر، إن صح التعبير.

وعلى نحو أكثر تحديدا، ألا يمكن أن يكون هناك شيءٌ متعلقٌ بكون المرء صينيا، وليس بكونه متكلما بالصينية، هو الذي يتسبب في جعله أقل استعدادا للانهماك في أسئلة ملغزة عقيمة من شاكلة الأسئلة عن المثلثات التي تصبح، على سبيل الجدل فحسب، دوائر[191]؟

سيكون ثمة دليل على هذه الحجة إن وُجِد متكلمو لغة غنية غنى الإنجليزية في وسم الافتراضية ويتضايقون بنفس قدر تضايق المبحوثين الصينيين من الزعم بأن المثلثات تكون دوائر. وهذا الدليل موجود.

(191) ما يريد أن يقوله المؤلف بطريقة ملتوية هنا هو أن نتائج بلوم في المجمل صحيحة، ولكن بلوم قد أوّلَ تعجب المبحوثين من تلك الأسئلة على أنه من آثار اللغة في الفكر، ولكن من المعقول أيضا أن يكون تعجبهم ذلك يمثل طريقة في التصور تخص أولئك الصينيين المبحوثين وثقافتهم، وإن لم يكن للغة علاقة بذلك. فأداء الصينيين في دارسة بلوم كان ناتجا عن الثقافة، أو طريقة التعليم، وليس عن اللغة، وسيوضح ذلك فيما يلي من سطور، حينما يتحدث عن تطبيق الدراسة نفسها على الناطقين بالعربية.

لقد بينت اللسانية لونا لارديير أن متحدثي العربية يَبْدُون كـ «الصينيين» تماما عندما تَطْرح عليهم ما يعد من قبيل الأسئلة السخيفة في نهاية المطاف. والعربية ليست لغة برقية أبدا(192). ففيها آليات نحوية صريحة للتعبير، إن لزم الأمر، عن الوضع الافتراضي في الماضي لإنتاج معنيي الماضي التام وأسلوب الشرط حسب المراد، مما يجعل طريقة التعبير الصينية: «إذا أنت ترى أنا أخت أنت تعرف هي حامل يصير» تبدو لمتحدث العربية مجرد شيء أولي غريب كما تبدو لمتحدث الإنجليزية. ومع ذلك، وجدت لارديير أن العرب حينما يُقَدّم لهم سؤال كسؤال المثلث، تكون إجاباتهم في العادة من قبيل: «حينما تعرف شيئا تعرفه كما هو - فالدائرة دائرة، هل تفهم ما أقصد؟ والمثلث لا يمكن أن يكون دائرة أبدا»... «إن وافقتُ على ذلك، فذلك يعني أني أخالف كل ما تعلمته في الرياضيات، إنه مثل: كيف يمكن لبرتقالة أن تكون تفاحة؟ حسنا، لا أظن أن ذلك ممكن».

إننا فيما يبدو نتعامل مع اختلاف في العقليات حقا، ولكنه منوط بالثقافة لا باللغة. والدرس الأساسي هو أن الأُلفة الكبيرة التي من المحتمل أن يجدها قارئٌ لهذا الكتاب مع الأسئلة المضادة للواقع كالسؤال عن الدوائر والمثلثات هي في الواقع سمة ثقافية وليست كلية

---

(192) كما ذكرنا سابقا، فإن وصف اللغة بأنها برقية تشبيه بالبرقية التي يحذف منها ما ليس ضروريا لتقليل التكلفة، وتشبه اللغة بذلك حينما تتخفف جدا من وجوه الصرف والنحو التي ليست ضرورية في إيصال المعنى المراد. والعربية لغة غنية جدا من الناحية الصرفية، وليست كالصينية من هذه الناحية.

إنسانية. وكما أشارت لاديير فإنه من غير المحتمل أن يكون العرب والصينيون هم وحدهم من تحيّرُهم الأسئلة المباشرة غير المرتبطة بسياق نفعي. وتُظْهر دراساتٌ مثل دراسة «طرائق مع الكلمات»[193]، لعالمة الإناسة اللسانية شيرلي برايس هيث، أن الأسئلة المباشرة بلا سياق، من قبيل «ما عاصمة داكوتا الجنوبية؟» من حيل الإجراءات التعليمية، وهي أقل طبيعية في الثقافات الشفوية عموما، التي غالبا ما يُنْظَر فيها إلى السؤال المباشر باعتباره فظا ومجابها. وربما يُفَسِّر هذا الفوارقَ في النجاح التعليمي بين أطفال الطبقتين المتوسطة والفقيرة (من كافة الأعراق) في الولايات المتحدة.

وعلى نفس القدر من الأهمية العملُ الرائع الذي قام به أ.ر. لوريا في الثلاثينيات من القرن العشرين فيما يعرف الآن بأوزبكستان وقيرغيزستان مع فلاحين أميين وشبه أميين. فلقد قام لوريا بسؤال المبحوثين السؤال التالي، على سبيل المثال: «في أقصى الشمال، حيث توجد الثلوج، كل الدببة بيضاء. وتقع نوفايا زيمبلا في أقصى الشمال، وفيها ثلوج دائما. فما لون الدببة فيها؟». وتراوحت الإجابات على غرار ما يلي: «لا أدري. لقد رأيت دبا أسود. ولم أر غيره أبدا...لكل منطقة حيواناتها الخاصة». ألا يبدو هذا مألوفا؟

---

(193) «طرائق مع الكلمات/ ways with words» عنوان كتاب طبع عام 1983م، للباحثة شيرلي هيث، وهو مبني على دراسة إثنوغرافية لمرحلة الانتقال إلى المدرسة في السنوات الأولى وما يشهده الأطفال في هذه المرحلة من تغيرات وتحديات.

يميل المجيبون إلى الحكم على مجردِ فكرةِ الإجابة عن أسئلةٍ منفصلة عن المنفعة الواقعية بأنها مضيعة للوقت، ومملّة، بـل سخيفـة جدا.

ثمة ما لا حصر له من الوجوه التي يمكن أن نستخلصها من حقيقة أن الثقافات والثقافات الفرعية البشرية تختلف في تقبّلها للتعامل مع الأسئلة المتسمة بالتجريد لا لشيء إلا لمجرد السؤال. غير أن الدليل على أن هذه العقلية تنشأ بسبب عدم وجود كلمات وأبنية معينة تكون ترجمتها، مثلا، من نحو «I would have been» أو «I had been»[194] لا يثبت. وربما نتساءل عما إذا كنا نرغب بثبوته، بالنسبة إلى الصينية على وجه الخصوص، لأن ذلك سيشير إلى ما هو أكبر بكثير.

وذلك أنه إذا كان عدم وجود طريقة للدلالة على الشرط الامتناعي في لغتك يجعلك بطيئا في تعقّل الوضع الافتراضي، فتخيل إذن ما الذي سيعترضنا بالنسبة إلى افتقاد الصينية إلى الكثير جدا من الأشياء الأخرى. فالصينية ليس فيها أدوات للتعريف. وليس فيها وسم للماضي ولا المستقبل - فلا يوجد فيها «مشيت» أو «سأمشي». فالزمن غالبا ما يترك للسياق فحسب، وهم في ذلك على ما يرام. وليس فيها فرق بين «he/ هو» و«she/ هي» و«it»، ولا واسمات للتوثّق، ناهيك عن وجود الصيغ الدالة على الاحتمال. بل إنها عادةً لا تسم الأشياء للدلالة على الجمع. فالصينية إجمالا متخففة. متخفّفة حقا.

(194) المقصود هو الأبنية الدالة على الشرط الامتناعي كما ذكر المؤلف سابقا.

ولنتخيل: ظهور مقالات دقيقة واحدا تلو الآخر عن كون غياب هذه السمات النحوية كلها يمكن أن يؤدي إلى دعوى ممكنة بشأن تشكيل الصينية للفكر من حيث أنها تجعل متحدثيها أقل حساسية بمقدار ضئيل تجاه هذه الدقائق الموجودة في الحياة. وستكون النتيجة اقتراحا بائسا إلى حد بعيد، سيمثّل، مهما صيغ بدهاء، دعوى مروعة مفادها أن كونك صينيا يعني أنك لست ألمعيا بما يكفي.

إن الإدانة ستكون خاطفة وساخطة، وهنا يصبح من الملحّ إعادة النظر في كون الفروق النفسية التي تكشف عنها حتى التجارب الوورفية الدقيقة ضئيلة جدا. فحينما يكون من الممكن أن تؤطّر هذه النتائج على أنها تعني احتمالا أن بعض الناس يدركون الزمن على نحو عمودي، أو يرون فوارق الزرقة على نحو «يلوح» بما يكفي لتحوير تصورهم للرسومات التي تنتمي لفترة بيكاسو الزرقاء[195]، فإن كثيرين سيبحثون عن طرق لقراءة هذه الفوارق الضئيلة باعتبارها تحمل مغزى أكبر. وأيا يكن، فإنه قد اتفق أن الجدل الدائر حول عمل بلوم يترك في الواقع تلميحات مشابهة عن نتائج ضئيلة ولكن موجودة، مما يوحي ببعض ظلال التأثير من اللغة على الفكر.

(195) بيكاسو رسام شهير، والفترة الزرقاء مصطلح يشير إلى مرحلة زمنية في تطور أعماله كان يستعمل فيها اللون الأزرق بشكل أساسي. ويشير المؤلف بهذا إلى ما مر سابقا من ادعاء غاي دويتشر بشأن رسومات شاغال ومدى تأثير وجود كلمة للأزرق في اللغة على طريقة إدراكها. ومقصده أن مثل هذه الدعوى، علاوة على كونها غير صحيحة، تلزم بالضرورة من يعتنقها بلوازم لا يوافق عليها.

فقد وجد بلوم، في أحد جناحي مشروعه، أن ثنائيي اللغة الصينية - الإنجليزية كان أداؤهم أفضل من أحاديي اللغة الصينية، فخلص إلى أن إتقان الإنجليزية يمنح المرء صلة بالافتراضية يفتقدها المرء الذي لا يتكلم إلا الصينية. وأظهر أيضا ل. جي. ليو ثم ديفيد يه وددري جنتنر أن متكلمي الصينية يدركون معكوس الواقع بسهولة أكبر حينما تعرض عليهم مواقف مألوفة لا مجردة - وبناء عليه تظل الحقيقة أن متكلمي الإنجليزية يُظْهرون هذا الفرق بشكل أقل. وذلك يعني أنه قد يكون هناك شيء ما متعلق بالإنجليزية والإصاخة إلى الفرق بين الواقع والمحتمل[196].

إننا هنا على أية حال نواجه إمكانية أن الصينية تبدي عن إعاقة - فلاحظ كم هو غير سائغ فيما يبدو أن تُضخّمَ فوارق حادة ملتقطة التقاطا مخبريا تحت ظروف مصطنعة إلى تصريح بشأن شعب ما والكيفية التي يتدبر بها أفراده إدراكهم في معمعة هذا الشيء الذي يُسمّى الحياة.

اختيار الاختلافات المهمة

وسم الجمع في الصينية مقارنة باللغات الأخرى يساعد على إضاءة لبّ القضية.

---

(196) لقد ذكر المؤلف سابقا أن القراءة الصحيحة لنتائج تجارب بلوم هي التي تعزو الفوارق إلى الثقافة لا اللغة. ولكنه يقول هنا إن هناك دراسات لا تترك مجالا لمثل هذا التأويل، وتجعل الفرق ناتجا عن اللغة حتما، مما يؤدي بمعتنقي الوورفية إلى لوازم لا انفكاك لهم من قبولها، وإن لم توافق هواهم.

فلا تعبأ الصينيةُ كثيرا بعدد ما هو موجود من الأشياء. فالأشياء لا توسم من أجل الجمع إلا لمزيد من التوضيح، وأكثر ما يكون ذلك حينما تكون الأشياء حية. أما فيما عدا ذلك، فإن الجمع يُترك في الغالب للسياق من دون أن يرفّ لأحد جفن. واللغات الأوروبية، من بين لغات أخرى، هي التي تكون صارمة بشكل غريب بشأن الإشارة الظاهرة كلما وُجِد ما يزيد عن واحد من شيء معين. ولاحظ أن الجملة السابقة قابلة للفهم تماما لو كان مسموحا للمرء أن يقول: «واللغة الأوروبية هي التي تكون صارمة بشكل غريب...».

ولنأخذ سفر التكوين مرة أخرى. والجملة الإنجليزية هي: «And God said, Let the waters bring forth swarms of living creatures, and let birds fly above the earth/ وقال الله: دع المياه تُحدث أسرابا من الكائنات الحية، ودع الطيور تطير فوق الأرض»[197]. وأما في الصينية فالجملة هي: «Shén shuō shuǐ yāo duō duō zī shēng yǒu shēng mìng de wù, yāo yǒu qiāo què niǎo fēi zài dì miān yǐ shàng». وترجمتها هي: «يقول الله: الماء أجبر كثير كثير متعددة حياة حياة من مادة، وطائر عصفور يطير الأرض فوق». تبيّنُ لنا الصينيةُ أن وسم الجمع، الطبيعي جدا فيما يبدو، ما هو في الحقيقة بالنسبة للغات إلا تشنج، أو وسواس قهري قد تسلكه لغة ما. فالكلام بلغة

(197) هذه ترجمتي للجملة الإنجليزية المثبتة في المتن، وأما الجملة في الترجمة العربية المعتمدة للكتاب المقدس فهي كالتالي: «وَقَالَ اللهُ: لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الارْضِ».

أتسوغوي يعني أنه يتعين عليك أن تحدد كل نوع من أنواع التحرك، وإلام يتجه، وألا تنسى دائما أن تبين أن الاسم هو اسم. والإنجليزية على نفس المنوال عقد توافقٌ بموجبه على التحديد الصريح دائما بأنه يوجد ما يزيد عن واحد من شيء معين. ففي كل لغة تظهر فقاعة لشيء ما في مكان معين.

وأيا يكن، فإنه تقريبا ليس من المتعذر أن تُبْتَدع تجربةٌ وورفية تبين أن متحدثي الصينية، بطريقة ما، وإلى حد ما، أقل تحسسا - بمقدار ضئيل جدا - تجاه عدد ما هو موجود من شيء معين حينما يُعرض عليهم، مثلا، شيئان لا شيءٌ واحد على الشاشة. فما الذي يمنع من ذلك على أية حال؟ لقد أشرتُ في المقدمة إلى أن الوورفية إشكالية لكونها لا تتفحص في العادة إلا عددا قليلا من اللغات في كل مرة، ولكنها أيضا لا تتفحص إلا مجموعة محدودة للغاية من السمات النحوية. فإنْ كانت اللغة تشكل الفكر، فمن يقرر ما هي الجوانب التي تقوم بذلك منها؟ ولماذا لا يكون من بينها الطريقةُ التي تشفر بها لغةُ ما الجمعَ؟

أوَ ليس كذلك؟ فمن المفترض أنّ تصورَ المقاربةِ الوورفية بالنسبة إلى التزام الصينية الواهن بوسم الجمع لا بد أن يكون مماثلا لتصورها في كل مكان، وهو أنّ «اللغة تشكل الفكر». ومع ذلك، فإن معظمنا يتساءل إن كنا حقا نرى أن الصينيين بالمقاييس الإحصائية أقل تحسسا تجاه ما إذا كان هناك كوبان يحتجان إلى الغسيل لا واحد، وما إذا كانت قد مرت حافلتان لا واحدة، وما إذا كان يوجد في غرفة الجلوس شخصان لا واحد فحسبٌ. ولنقل: إذا كان

الصينيون يعالجون الثنائية[198] على نحو أقل تنبها بلمحة من الناطقين باللغة الإنجليزية، فهل يبلغ ذلك قدرا يمكن لأي شخص أن يعتبره على نحو معقول طريقة مختلفة في رؤية الوجود؟

سيتحسن منظورنا عن هذه الخاطرة حينما نشاهدها من الطرف المقابل. فماذا لو كان ثمة لغة يمكن أن تُحَلَّل باعتبارها تجعل متحدثيها أكثر تحسسا تجاه الجمع من الإنجليزية؟ وماذا لو كانت من لغات تنتمي، مثلا، إلى سلالة لغوية في أفريقيا نادرا ما يكون الغربيون على دراية بها، كاللغة التي يتحدثها شعب دارفور المضطهد على نحو مأساوي؟

إن الجمع في هذه اللغة التي تسمى «الفور»[199] (دارفور تعني «أرض الفور») غير منتظم أصلا، انتهى. ففي الإنجليزية يوسم الجمع

(198) المؤلف هنا يشير إلى الثنائية وهو يريد الجمع لأن اللغات التي يتحدث عنها (الإنجليزية والصينية وكثير غيرهما من اللغات) لا تفرق بين الأمرين، بخلاف العربية التي تفرّق تفريقا حاسما بين المثنى والجمع. وهنا يبرز سؤال من شاكلة الأسئلة التي يكررها المؤلف، وهو: هل هذا التمييز بين المثنى والجمع له تأثير على إدراك الناطق بالعربية، ويساعد على إبراز الوعي بالمثنى على نحو لا يوجد لدى الناطقين باللغات الأخرى؟. وللاطلاع على مناقشة ممتعة لظاهرة التثنية في العربية، انظر: الفصل الرابع من كتاب «محاسن العربية في المرآة الغربية» لديفيد جستس، ترجمة: حمزة المزيني.

(199) لغة الفور تنتمي إلى أسرة اللغات النيلية الصحراوية وعدد من يتحدثها قريب من 900 ألف شخص معظمهم في غرب السودان، ويوجد قليل منهم في تشاد.

بـ (s-)، باستثناء دزينة من الأسماء أو نحوها، مثل: children، mice، geese، men[200]. ولكن تخيل لغة تكون فيها جميع الأسماء تقريبا كذلك! إنها لغة «الفور». فـ «لص» في هذه اللغة هو «kaam». و«لصوص» هي «kaama». ولكن «عين» هي «nuunga»، أما «عيون» فهي «kuungi». وهل تظن أن «child» و«children» [في الإنجليزية] غريبة؟ إذن جرّب الفور: فالكلمة التي تدل على «child/ طفل» هي «kwe». أما التي تدل على «children/ أطفال» فهي «dogala». وهذا هو الحال في جميع الأسماء - وعليك فقط أن تعرف.

وفي لغة دينكا السودانية[201]، القريبة من لغة الفور، كلمة «نار» هي «biñ» في حين «نيران» هي «biiiñ»، حيث تجعل صوت الـ(i) الموجود في الوسط أطول بثلاث مرات (نعم، تفعل ذلك حقا!). و«التمرة» هي «tuuk» التي تنطق بنغمة منخفضة، وحينما تنطقها بنغمة عالية تكون «تمر». وكلمة «رجل» هي «mooc». وأما «رجال»

---

(200) كلمة (children) تعني (أطفال)، ومفردها (child)، و(mice) تعني (فئران)، ومفردها (mouse)، و(geese) تعني (أوز) ومفردها (goose)، و(men) تعني (رجال) ومفردها (man). وهذه الطريقة في صياغة الجمع في الإنجليزية نادرة جدا، أما الغالب جدا فهو إضافة (s-) للكلمة الدالة على المفرد لوسم الجمع كما ذكر المؤلف.

(201) لغة دينكا/ Dinka من اللغات النيلية الصحراوية أيضا، وهي أكبر اللغات المتكلمة في جنوب السودان، ويبلغ عدد من يتحدثها في بعض التقديرات قريبا من 3 ملايين شخص.

فهي «Rooor». والنساء تزأر[202] أيضا - فـ «امرأة» هي «tiik»، وأما «نساء» فهي «djaaar». ولكن «أفراس النهر» لا تزأر: فالواحد منها هو «roow»، وأما الاثنان فهما «root». عليك أن تعرف ذلك فحسب، كما عليك أن تعرف أن العُشْبَة الواحدة هي «nooon»، وإن كان هناك أكثر من ذلك، فسينقص منها (o) واحدة، فتكون «noon»، وهلم جرا، مع كل اسم[203].

لا يكاد يوجد موضع تتمسك به. ويمكن أن يتخذ ذلك وجْبَة للتحليل الوورفي. تذكر: إذا كان في الروسية كلمتان للأزرقين الفاتح والغامض، فإن ذلك يعني أن الروس يدركون درجات الزرقة على نحو أكثر وضوحا من متحدثي الإنجليزية بصورة دالّة. حسنا: ولكننا من ثَمّ قد نطرح سؤالا مشابها. إذا كان لدى متحدثي لغتي فور ودينكا كلمات مختلفة على نحو عشوائي لما يوجد منه اثنان لا واحد، فمن المفترض إذن أن ذلك يعني أن متحدثي الفور ودينكا يدركون ظلال الجمع بشكل أكثر وضوحا من متحدثي الإنجليزية. فإن كان للروس أزرقاهم، فإن للفور عيونهم - «nuunga» و«kuungi» - وهي

(202) يقول «تزأر» مراعاة لطريقة اللفظ، فكلمة «يزأر» في الإنجليزية هي «roar» التي تلفظ «رور» مثل لفظ كلمة «رجال» في لغة دينكا.

(203) والعربية من اللغات المعقدة في صياغة الجمع أيضا، فإضافة إلى جمعي الصحة (المذكر السالم، والمؤنث السالم)، يوجد جمع التكسير الذي يشبه من بعض الوجوه ما يذكره المؤلف عن لغتي «فور» و«دينكا». ويضاف إلى ذلك اسم الجمع كـ «نساء» لجمع «امرأة»، واسم الجنس كـ «تمر» للدلالة على جمع «تمرة».

«عيون» مختلفة في النظر إلى العالم، أليس كذلك؟

ولنفترض فقط أن تجربة أظهرت أن المتحدثين بهاتين اللغتين يضغطون على زرٍ بشكل أسرع قليلا من شخص من نيو هافن[204] حينما يرون صورة على الشاشة تتبدل من تصوير منزل واحد إلى تصوير منزلين. أو يعرض عليهم مربع كبير به نقطتان، فيضغطون الزر بشكل أسرع حينما تضيف الشاشة في الأسفل صورة لبقرتين بدلا من بقرة واحدة.

وأنا أفتقر إلى براعة المتميزين من الوورفيين الجدد، فيمكنهم ابتكار تجربة أجود. ولكنني أسعى إلى مقصد أكبر. فكثيرون متقبلون للفكرة المتعلقة بالروس وأزرقَيهم، أو بالأوروبيين وطاولاتهم التي تتكلم بأصوات رفيعة[205] - وذلك من دراسة أظهرت أن متحدثي اللغات التي تعين جنسا نحويا للأشياء غير الحية أكثر عرضة من الناحية الإحصائية لتصورها بسمات تتوافق مع «الجنس» الذي تنتمي

(204) نيو هافن مدينة أمريكية، وهي كناية عمن يتحدث الإنجليزية.

(205) يشير إلى ما ذكره غاي دويتشر في مقالته المترجمة في نهاية الكتاب، وفي كتابه «عبر منظار اللغة» (انظر: ص230 من الترجمة العربية) من أن متحدثي اللغات التي تضفي جنسا نحويا على الجمادات يميلون إلى تصورها بصفات تحكي خصائص الجنس الذي تنتمي إليه. ولكون «الطاولة» مؤنثة في اللغات الأوروبية كالألمانية والفرنسية والإسبانية، فإن متحدثي هذه اللغات في التجارب التي تطلب منهم إسناد أصوات معينة لبعض الجمادات المتكلمة في برامج الرسوم المتحركة، يسندون لها صوتا أنثويا يتلاءم مع جنسها النحوي في لغاتهم.

إليه. ولكن قلة مَن سيتقبلون الفكرة القائلة بأن أفراد قبائل أفريقية معينة يعالجون في الحياة الواقعية، وبطريقة ينبغي أن يحفل بها الباحث في خصائص الإنسان أو المواطن العادي المهتم بالاستماع إلى الإذاعة الوطنية، الفرق بين كلب واحد وكلبين بطريقة أكثر فورية من الذين يقرأون هذا الكتاب[206].

إن المرء ليفترض أن البشر جميعا - بغض النظر عن أي تجربة نفسية تحتال على شخص في سياق مصطنع، ومهما كانت الفروق المتضائلة فيما يخص النتيجة في السياق المدلل لتجربة نفسية - سواسية من الناحية الذهنية بالنسبة للفرق بين واحد واثنين[207]، من حيث ما يمكن أن يؤثر على أي شيء نعرفه فيما يخص هذه الحياة التي نعيشها، والكيفية التي نتعامل بها معها، وما نخلقه على أساسها.

---

(206) قوله «الذين يقرأون هذا الكتاب» كناية عن متحدثي الإنجليزية أيضا. ومقصد المؤلف هو إلزام من يتبنون الوورفية بأن يبحثوا في جوانب من الاختلافات اللغوية التي لم تخطر لهم على بال، وأن يكون لذلك أثر في العالم الواقعي الذي يشعر به الشخص العادي، لا في التجارب المعملية المصطنعة فحسب.

(207) لاحظ مرة أخرى أن المؤلف يشير إلى اثنين، وهو يريد الجمع، لعدم وجود فرق بين المثنى والجمع في اللغات التي يناقشها، أما في العربية فالأمر مختلف لأن الأمر بالنسبة للعدد ينقسم إلى ثلاث فئات: المفرد والمثنى والجمع. واستبعاد أن يكون لذلك أي أثر في إدراك العدد هو ما يريد المؤلف تقريره هنا.

فالشائق في لغة دينكا هو أن جميع صيغ الجمع فيها غير منتظمة. وكذلك اللغات كلها، بطرائقها الخاصة، مذهلة جدا على نحو مشابه لروعة المخلوقات، وندف الثلج، والرباعيات الوترية لهايدن(208)، فكيف يا ترى كان سيخرج «آل أمرسون الأجلاء» لو أتيح لأورسون ويلز تحرير النسخة النهائية(209). ومهما يكن، فإن الشائق في لغة دينكا ليس أنها تجعل متحدثيها متنبهين على نحو متفرد إلى وجود ما يزيد عن واحد من شيء معين.

***

والسؤال هو لماذا لا ينطبق هذا الحكم نفسه على الأزرقين الروسيين، أو على اليابانية وموادها، أو حتى على السمة الأخرى التي

(208) المقصود هو الموسيقار النمساوي فرانز جوزيف هايدن (1732-1809)، ورباعياته هي مقطوعات موسيقية يزعفها على آلات وترية طاقم مكون من أربعة عازفين. ولكل واحدة منها لحنها الخاص. وما يقصده المؤلف بذلك هو تشبيه ما في اللغات من تنوع بتنوع تلك المقطوعات الموسيقية، وتنوع أشكال المخلوقات، وندف الثلج.

(209) «آل أمرسون الأجلاء» فيلم سينمائي للمخرج البارز أورسون ويلز. عرض عام 1942م، ويصور الحياة الأمريكية وما شهدته من تغيرات اجتماعية كبيرة في مطلع القرن العشرين. وقد حظي الفيلم بنجاح باهر، وعد من روائع السينما في تاريخها رغم أن المخرج كان ساخطا على النسخة النهائية التي ظهرت في الفيلم لاختلافها عما قام بإعداده. ويذكر المؤلف ذلك تأكيدا لنظريته التي كررها مرارا بشأن الصدفة ودورها في تشكيل الأبنية اللغوية، وأن مثل هذه الظواهر المتعلقة بالأبنية ليس لها تأثير كبير في الإدراك.

تطبقها الوورفية على الصينيين، وهي شعورهم العمودي بالزمن كما يقال. ويعترض الوورفي: «إن الناس جميعا يعالجون بطبيعة الحال الجمع في مقابل المفرد - ولكننا معنيون بأشياء كالرؤية، والإحساس، والزمن». ولكنني لست مطلعا على أي تحليل يوضح لماذا تكون الرؤية والزمن أكثر ارتباطا بالعرفان من شيء بقدر أساسية العدد في الخبرة. ومهما أظهرت الدراسات البارعة من الفوارق في غضون الملّثانية في الاستجابة، فإنه لن يكسب باحثٌ أي انجذاب بادعائه أن راعي ماعز في وسط أفريقيا أكثر تنبها من محاسب في مينابولس أو صانع أحذية خارج بكين لوجود شخصين أمامه بدلا من واحد. فلماذا، إذن، الفوارق في المللّثانية المتعلقة بأي شيء آخر في لغة معينة تكشف شيئا يبلغ في مصيريته مبلغ الكيفية التي نرى بها العالم؟

مهما تكن الإجابات، فإنها لا بد أن تكون مراعية لوجود ما لا يحصى من اللغات في العالم لا تمنح للمتحدث بلغة أوروبية تدرجات أكثر للأزرق - الفاتح والغامق - بل أقل[210]. بل إن بعضها لا تملك كلمة لـ «أقل». ففي غابات سورينام في أمريكا الجنوبية، يعيش اليوم أحفاد العبيد الذين هربوا من المزارع، التي كانت موجودة في البلاد في القرن السادس عشر، في مجتمعات مزدهرة،

(210) ما يقصده أن كلمات الألوان الموجودة في كثير جدا من لغات العالم أقل مما هو موجود في اللغات الأوروبية. فهل هذه الأمم جميعا أقل إدراكا للألوان من الأوروبيين؟!

ويتحدثون بلغتهم الخاصة التي تدعى «سارامكن»[211]. وهي مزيج من الكلمات والنحو المستقى من الإنجليزية والبرتغالية والهولندية ولغتين أفريقيتين، وليست تنوعا لأي منها، بل هي إلى حد كبير لغة على حدتهـا.

وكأي لغة حقيقية، فإن لها نزواتها. ومنها أنك لكي تقول: «هي أقل شقاوة منه» يتعين عليك أن تقول: «هو أكثر شقاوة منها»، فلا يوجد ببساطة كلمة تقابل كلمة «أقل». وهناك كثير من اللغات من هذا النوع الذي ليس فيه كلمة لـ «أقل». ولو فكرت في الأمر، فستجد أنه غير مهم - فطالما هناك طريقة لقول «أكثر»، تكون «أقل»، من الناحية الفنية، نوع من الترف. فيمكنك دائما التعبير عن فكرة من خلال ذكر العنصر الذي هو «أكثر» بدلا مما هو، بالتبعية، «أقل».

هل يعني ذلك أن السارامكنيين، الذين يعيشون حياة متقدة بقدر ما نعيش، أقل تحسسا تجاه فروق الدرجة من الآخرين؟ ولاحظ أنه من غير المرجح، بالنسبة لمقصودنا، أن يحاول شخص اكتشاف ذلك، على الرغم من اهتمام الوورفية الفكري الخالص، كما هو مفترض، فيما إذا كانت اللغة تشكّل الفكر. إن التنقيب الوورفي، في

(211) سارامكن/ Saramaccan، كما شرح المؤلف، لغة كرولية (أو مولدة) يتحدثها قريب من 25 ألف شخص في سورينام. والكريولية/ creole نوع من اللغات ينشأ عن طريق اكتساب الأطفال لنظام هجين من التواصل مستقى في الأصل من لغات متعددة، فيتحول هذا النظام بفضل الاكتساب الطبيعي إلى لغة طبيعية مكتملة ومعقدة.

مقارنة اللغات الأخرى بالإنجليزية، مغرم بالأكثرات لا بالأقلات[212]، إن جاز التعبير.

ومهما يكن، فإن ذلك يجعل المئات من اللغات الموجودة في شرق آسيا وجنوبها الشرقي شأنا محفوفا بالمخاطر بالنسبة للوورفية، لأنها إلى حد كبير من نمط اللغة الصينية. فإذا أراد اللاوسي[213] أن يقول بلغته: «ألا تخشى أن المدير سيشعر بالقرف، حينما تقوم أنت بإعداد الطعام؟»، فإنه يعبر عن ذلك كالتالي: «أنت لا تخاف مدير قذارة - قرف حقا؟ أنت تصنع أكل؟». فلا يوجد زمن، ولا أدوات، ولا لواحق لصياغة المصدر، ولا ربط باستعمال «حينما». فإن كانت اللغة تؤثر في الفكر، فما نوع الفكر الذي سنُسْنِده إلى سكان لاوس؟ أو تايلاند، نظرا إلى أن اللغتين التايلندية واللاوسية هما في الأساس لغة واحدة؟

ويوجد ههنا اعتراض محتمل. فهناك بطبيعة الحال أشياء في كل لغة يمكن لأتباع الوورفية أن يحققوا فيها غير مقدار ما تسمه اللغة وسما

(212) مقصد المؤلف هنا أنه يوجد اختيار متعمد لما يدرسه أصحاب هذا الاتجاه من سمات اللغوية. فهم يقتصرون فقط على ما يوحي بتفوق اللغات الأصلية مقارنة بالإنجليزية وما يشبهها من اللغات، ويجنبون أي شيء يوحي بخلاف ذلك، كما ذكر في حديثه عن اللغة الصينية سابقا. وذلك يشي بوجود أهواء ودوافع غير علمية في هذا التوجه. وكلام المؤلف هنا من باب الإلزام، وإلا فهو قد بين سابقا أن كلا الأمرين غير وارد.

(213) اللاوسي منسوب إلى «لاوس»، وهو بلد آسيوي يقع جنوب شرق آسيا، ويتحدث سكانه اللغة «اللاوسية» ذات الصلة القريبة جدا باللغة التايلندية. ويقدر عدد متحدثي اللاوسية بقريب من 4 ملايين شخص.

صريحا. بل قد رأينا ذلك في الصينية تحديدا، في الدراسات المتعلقة بما إذا كان المتحدثون بها يعالجون الزمن عموديا: فلا يشير ذلك إلى ما إذا كان وسم الصينية للزمن مفصلا أم لا، بل إلى نوع الكلمات التي اتفق أن تستخدمها لذلك الغرض. ولكن ذلك يترك سؤالي في هذا الفصل قائما، بل على ما هو عليه من الإلحاح.

وإليك السبب. تختلف جميع اللغات عن غيرها بما لا حصر له من الطرق العشوائية من شاكلة أنّ «next month/ الشهر التالي» في الإنجليزية تكون «الشهر الأسفل» في الصينية. فبالنسبة لهذا التعبير، على سبيل المثال، هو في الإسبانية «الشهر القادم»، وفي الروسية «الشهر اللاحق»، وفي الإندونيسية «شهر أمامي»، وهلم جرا[214]. بيد أنه إلى جانب هذا النوع من التمايز التعبيري بين كل اللغات، تظل اللغة الصينية متميزة عن كثير منها بوجه خاص: وهو جوهرها المقتضب مقارنة باللغات الأوروبية ومعظم اللغات الأخرى.

فهذه الخاصة تقف دائما إلى جانب الأشياء المشابهة لـ «الشهر الأسفل»، وهي كما يرى ألفرد بلوم، تبدو خاضعة، مثل غيرها، للأسئلة الوورفية بشأن الكيفية التي تشكل بها اللغةُ الفكر. غير أن دراسة بلوم، على سبيل المثال، لم تُذْكَر مجرد الذكر في كتاب «عبر منظار اللغة» لدويتشر. فربما تبدو مقالة بلوم، بالنسبة لكتاب بمثل نزاهة ذلك

(214) يبدو لي أن التعبير العربي الأصيل في مثل هذا هو «الشهر المقبل»، وقد يستخدم تعبيرا «الشهر القادم» أو «التالي» ولكنهما مولدان، ومن تأثيرات الترجمة.

الكتاب فيما يخص مدى نجاح الوورفية، محرجة للغاية فلا يمكن أن يخصص لها مكان بالنسبة للغات باعتبارها مناظير.

إن الرسالة التي نخرج بها هي أن اللغة تتباين بصورة مذهلة رغما عن وجود عرفان بشري أساسي واحد. وليست الرسالة التي نخرج بها هي أن الكيفية التي تتباين بها اللغات تخبرنا بشيء عن كيفية تباين وجوه العرفان. وبقدر ما في التحليل الأخير من إغراء، فإنه سيصطدم دائما بأشياء من قبيل كون الطريقة التي تقال بها العبارة التالية «شخص ما يأكل الدجاجة» في الكلام العفوي في جميع أنحاء إندونيسيا يمكن أن تكون «دجاجة أكل» فحسب! وأي شخص قضى بعضا من الوقت في إندونيسيا سيشهد بسهولة أن هذا الشعب أكثر تفكرا بكثير من أي شيء توحي به جملة من هذا النوع - المعتاد في كثير من العامية الإندونيسية - بشأن تشكيل اللغة لفكرهم. فأين الأدبيات الوورفية التي تلقى ترحيبا حارا بشأن الكيفية التي قد تجعل بها لغات معينة متحدثيها «أقل» وعيا بشيء مركزي في الوجود؟ إن هدفي في هذا الكتاب هو إظهار أن جوهر اللغة يعفينا من الاضطرار حتى إلى التعامل مع ذلك باعتباره مشكلة.

ولتكن مشكلة. ولنأخذ الرد السريع المحتمل بأنني أشوه العمل الوورفي، في حين أنه لا يشير إلا إلى أن لغة ما تجعل متحدثيها أكثر احتمالا بعضَ الشيء فقط لأن يفكروا بطرائق معينة. بعض الشيء فقط. وهذا الرد لا بأس به حينما يُطَبّق على مدى الوضوح الذي قد يُدْرِك به شخصٌ ما تدرجات الأزرق، أو حتى على كيفية إدراكه لمرور

الزمن على نحو عمودي. ولكن هذا الرد سيحشر المرءَ أيضا لقبول أن الطبيعة البرقية للصينية توحي بأن متكلميها أعيياء[215] بعض الشيء. ولنتجنب التشويه - بعض الشيء فقط. وإن يكن. فلا بد دون الشهد من إبر النحل[216].

والمعنى، إذا كان الرد المناسب، حينما نواجه الخاصية البرقية للصينية، هو أن نفترض أن أي تبعات عرفانية أضأل من أن تعامل باعتبارها مؤثرة في الفكر والثقافة، فإنه يجب على المرء عندها أن يسأل: فلماذا إذن لا يكون الحكم هو نفسه حتى حينما يتفق أن توحي البيانات بانتباه أكثر، لا أقل، تجاه جانب من جوانب الوجود الإنساني؟

الوورفية والادخار

هل يمكن رغم ذلك أن يكون هناك طريقة نستخلص بها من وجازة الصينية عسلا وورفيا؟ لقد تمت محاولة ذلك، بطريقة شاذة على نحو ظريف. ولطالما توقعت أن يقوم أحدهم بمحاولة ذلك، إذ توجد سابقة لهذا النهج في فكرة عابرة يجازف بها بعض اللسانيين حول موضوع ذي صلة.

---

(215) أعيياء جمع عيي وهو من يعجز عن بيان مراده.

(216) المثل الذي ذكره المؤلف هنا هو « If you want the grits you have to take the gravy»، وهو ما يمكن أن يترجم بشيء من قبيل «إذا أردت الجريش فعليك أن تأخذ المرقة». ولكني وجدته غريبا نوعا ما على القارئ العربي، فاستبدلته بالمثل أعلاه.

فمن الحقائق المسلّمة في نطاق اللسانيات الأكاديمية أن اللغات كلها سواء في تعقيدها. وهذه الحقيقة الأولية مبنية على نية حسنة، بل هادفة للخير، في كونها نابعة من السعي لإثبات أن لغات المجموعات «غير المتطورة» ليست هذرمة. ولقد حفر اللسانيون/ الإناسيون في مطلع القرن العشرين من الذين أثّروا على وورف، كإدوارد سابير وفرانز بواز، هذا الاكتشاف على الحَجَر، بإظهار أن اللغات الأمريكية الأصلية مثل لغة «نافاهو» هي - إن كان لذلك من معنى - أكثر تعقيدا من الألمانية والفرنسية.

وإنها لكذلك - أليست كذلك يا رجل؟ غير أن الموقف المؤيد والداعم لذلك - وإن كان بذاته قيّما - ينطوي في أساسه على نكوص عام عن الفكرة القائلة بأنه لا يمكن للغةٍ أن تكون أقل تعقيدا من لغة أخرى. ولا يزال هذا الشعور مخيّما على اللسانيين والإناسيين ومن يسير في ركابهم. بيد إنه من المستحيل عدم ملاحظة أن اللغات تختلف فيما يتعلق بالتعقيد[217].

فـلا يمكن أن يفوت أحداً يعرفُ الإنجليزية والصينية ما قد رأيناه في هذا الفصل من أنه يتعين بكل بساطة على المرء إجمالا أن يقول

(217) كما ذكرنا سابقا، يوجد نقاش موسع لمسألة «تعقيد اللغات» وما يتعلق بها من إشكالات في الفصل الخامس من كتاب «عبر منظار اللغات» لغاي دويتشر، ويوجد كثير من وجوه الاتفاق بين المؤلفين بهذا الخصوص. وللاطلاع على مزيد من النقاش في هذا الصدد، انظر: الفصل السادس من كتاب «هل بعض اللغات أفضل من بعض»، لروبرت ديكسون، ترجمة: حمزة المزيني، والفصل السابع من كتاب «عندما تموت اللغات»، لكي ديفيد هاريسون، ترجمة: محمد مازن جلال.

في الجملة الصينية المعتادة ما هو أقل مما يقوله في الجملة الإنجليزية. بيد أن ما ليس معروفا للغالبية هو أن الإنجليزية، مقارنة ربما بمعظم لغات العالم، أشبه بالصينية. ففي لغات كاللغة المستخدمة في جزيرة روسل قبالة نيو غينيا، التي ذكرتُها في الفصل الثاني[218]، عليك مثلا أن تحشو الجملة العادية بأشياء لا يقع في خَلَد متحدث الإنجليزية أبدا أن يُعنى بها، مثل ما لا نهاية له من الظلال الدقيقة لمعنى «على» شيء ما، أو حتى اللواحق المتنوعة التي تشير إلى ما إذا كان (هو) أو (هي) الذي تذكره هو الشخص الذي كنت تتحدث عنه للتو أم أنه (هو)أو (هي) جديد[219]، أو حتى اللواحق الأخرى التي تبين ما إذا كنت تفعل شيئا ما (كالمشي) أو تتعرض له (كالسقوط)[220]. إن بعض اللغات حقا أكثر انشغالا بالتفاصيل من غيرها.

وردا على ذلك، وبمعرفة أن بعض اللغات - كالصينية، مثلا - تُعنى أيضا بما هو أقل بكثير من ذلك بالنسبة إلى دقائق الواقع، قام بعض اللسانيين بابتداع طريقة للمحافظة على الفكرة القائلة بأن اللغات كلها متساوية التعقيد، وهي: الفكرة القائلة بأن الاضطرار إلى التقاط شيء ما من السياق هو، بحد ذاته، نوع من التعقيد. وبحسب هذا

(218) هي لغة «يلي دني» التي مر ذكرها في الفصل الثاني.

(219) المقصود أنه يوجد في هذه اللغة لواحق صرفية إلزامية تنضاف إلى ضمير الغائب فتبين ما إذا كان الضمير يعود على شخص قد ذُكِر سابقا، أو أنه يعود على شخص جديد يذكر في الخطاب لأول مرة.

(220) المقصود أنه يوجد في هذه اللغة لواحق صرفية إلزامية خاصة تتصل بالأفعال فتبين ما إذا كان الفعل مما يُحْدِثه الفاعل مثل (كتب)، أو يتعرض له ولا يحدثه مثل (مات).

التحليل، ثمة نوعان من التعقيد. فمن التعقيد أنّ الإنجليزية يجب أنْ تَسِم ما يحدث في الماضي بـ «ed-»، وأنْ تؤشّر بدقة إلى درجات الافتراضية بـ (if) و(then) والكيفية الشرطية ونحو ذلك[221]. ولكن من التعقيد أيضا أنه يتعين عليك في الصينية أن تلتقط الأشياء المشابهة لذلك من السياق. أي أن الاعتماد على السياق هو، بحد ذاته، أمرٌ معقد.

حسنا، لا بأس. أجد أن الفكرة متكلّفة، ولم يُثْبِت ذلك أحد من قَبْلُ بطريقة علمية. ولكنها دائما موجودة، وذلك يعني أنها مسألة وقت فقط قبل أن يقترح شخص ما أنه بما أن الانعدام تعقيد أيضا، فإن عدم وجود سمة نحوية يمكنه أن يجذب الانتباه إلى شيء ما مثلما أن وجودها كذلك.

وهذا هو بالضبط ما طرحه المتخصص الاقتصادي في جامعة ييل كيث تشن بشأن الصينية وغيرها من اللغات. وأطروحته غريبة وجريئة. فليس في الصينية واسم للزمن المستقبل على غرار (will) الإنجليزية[222]. وكثير من اللغات ليس فيها ذلك، وتدع المستقبل عموما للسياق. ويقترح تشن أن غيابَ وسم المستقبل في البلدان ذات اللغات التي لا تسم المستقبل وسما منتظما، كالصين، يجعلُ الناس

(221) لقد تحدث المؤلف سابقا عن ذلك، وذكرنا أن العربية كالإنجليزية فتسم الماضي بصيغة خاصة، وتستخدم الأدوات للدلالة على درجات الافتراضية في الشرط، فـ(إنْ) تدل على مطلق الشرط، و(إذا) تدل غالبا على رجحان حدوث المشروط، و(لو) تدل في الغالب على الامتناع.

(222) ومثلها (سوف) والسين الدالة على الاستقبال في العربية.

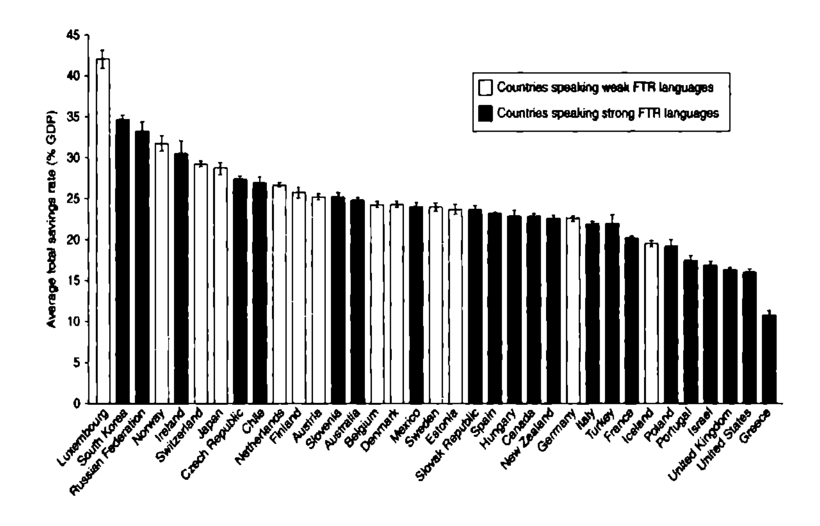
يولون المستقبل مزيدا من الاهتمام - مما يجعلهم أكثر عرضة لتوفير المال! ويدفعهم إلى مزيد من الاهتمام بالممارسات الصحية الوقائية، ونحوها. وللتوضيح: الفكرة ليست أن وجود واسم للمستقبل يجعلك تولي اهتماما أكبر بالمستقبل، بل إن عدم وجوده هو الذي يجعلك كذلك.

وغني عن القول أن وسائل الإعلام أحبّتْ ذلك، لا سيما مع تقديم تشن لنوع من التحليل الكمي المعمق الذي يتدرب عليه الاقتصاديون. فهل الأمر بهذه البساطة، فيكون حقا للكيفية التي تعمل بها أنحاء لغات الشعوب أثر على اقتصاديات بلدانهم؟ فهل يمكن، بقدر ما يبدو ذلك غريبا، أن تكون الحقيقية في الأرقام، مهما بدت الخاطرة عجيبة؟

لا، لا أظن ذلك. ويسمح لنا رسم تشن البياني المتأنق بالعثور على حقيقة الواقع. الأعمدة الغامقة هي اللغات التي تسم المستقبل بتزمت، بالطريقة التي يرى متحدث الإنجليزية أنها هي الطبيعية، مثل: I walk/ أمشي، I walked/ مشيت، I will walked/ سوف أمشي[223]. والأعمدة الفاتحة هي اللغات التي يُتْرك فيها المستقبل للسياق - وذلك على مستوى العالم، أمر شائع جدا.

---

(223) العربية غائبة في الرسم البياني الذي يشير إليه المؤلف، ولكنها كما ترى كالإنجليزية من ناحية وسم الماضي والحاضر والمستقبل، رغم ما بينهما من اختلاف في بعض التفاصيل.



شكل (4, 1): معدلات الادخار بين عامي 1985-2001 بحسب منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية

ملاحظة: البلدان التي تتحدث لغات قوية في وسم المستقبل وسما منتظما تدخر على نحو أقل بنسبة

(t = 2.77 , p= 0.009) %4.75

يَعْرِض تشن رسمَه البياني باعتبار أنه يُظْهِر وجود تكتل للغات الواسمة للمستقبل في البلدان ذات معدلات الادخار المنخفضة. ويمكننا أن نرى مباشرة، على الرغم من المعطى الإحصائي المتمثل في أن الدول ذات اللغات الواسمة للمستقبل تدخر على نحو أقل بنسبة 4.75%، أن الصورة الإجمالية تميل بشكل محرج نحو التوزيع المبعثر للأعمدة الغامقة والفاتحة - فبعض الفاتحة وسط الغامقة، وكثير من الغامقة وسط الفاتحة. هل تُظْهِر الإحصاءات الحقيقة؟ لا شك، ولكن فقط إذا كان التحليل اللغوي محكما. وقد اتفق أنه لم يكن كذلك.

فتشن، رغم أنه بذل جهدا جادا في مراجعة أنحاء اللغات، قد تعرض للوهم لكون شروحات النحو قد لا تكون في نهاية المطاف موثوقة فيما يتعلق بشرح ما إذا كانت اللغة «تسم المستقبل» وسما منتظما كانتظامه في الإنجليزية. فالروسية مثلا لغة واسمة للمستقبل لدى تشن. وحقا يمكنك أن تصل إلى هذا الانطباع من كتب نحو الروسية التي تخصص جزءا لإخبار متحدث الإنجليزية بأنه يمكن أن يعبر عن المستقبل بفعل (س)، و(ص)، و(ع). غير أنه لا يوجد في الروسية شيء يمكن أن يسمى واسما للمستقبل بمثل معنى (will/ سوف) في الإنجليزية، أو تصريفات الزمن المستقبل التي ربما تتذكرها من دروس الفرنسية والإسبانية.

بـل إن من صعوبات تعلم الروسية أن تفهم التعبير عن المستقبل من خلال الإلماح إليه، عبر أشتات من الأشياء التي تعني أشياء أخرى. ولم يكن بلا سبب أن الناقد الأدبي إدموند ويلسون[224] قد تجاسر مرة - وربما كان ثَمِلا بشيء من الوورفية - بالقول إن عدم قدرة الروس على الالتزام بالوقت سببه أن الروسية ليس فيها زمن للمستقبل.

حتى الإنجليزية يوجد فيها ما يشبه ذلك إلى حد ما: فالمرء يقول: «We're buying the Honda Civic»، حيث نعبر عن شيء سنفعله في المستقبل بالبناء المعروف بـ «الحاضر

(224) إدموند ويلسون (1895-1972) ناقد أدبي شهير، ترجمت بعض أعماله إلى العربية، ومنها: «قلعة اكسل»، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا.

المستمر»[225]. وتخيل أن يسأل أحدهم: «So, what's going on about the car you want to buy?»، فإن أجبت بـ: «We will buy the Honda Civic»، فمن المحتمل أن تكون قد تعلمت الإنجليزية البارحة.

والمستقبل في الروسية على هذه الشاكلة يُحْمَل على ظهر شيء آخر. والتفاصيل مرهقة، وهي هنا ليست ضرورية، ولكن يكفي أن نقول إنه في حين أن التمييز الأكبر في الإنجليزية هو بين «الآن»، و«آنذاك»، و«لاحقا»[226]، فإن التمييز الأكبر في الروسية هو بين «ما يجري على مدى زمني»، و«ما يقع في لحظة محددة»، سواء أكان ذلك في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل. ويتم التعبير عن المستقبل في الروسية إلى حد كبير باعتباره من قبيل «ما يقع في لحظة محددة». فـ (ja pisal) تعني (كنت أكتب)، أي أن الكتابة تجري على مدى فترة زمنية. ولكن أضف (-na) وقل (ja na-pisal)، وستعني (كتبت) - حينئذ بالتحديد. وإن أمرت شخصا بأن يكتب شيئا (الآن تماما)،

---

(225) التعبير بالحاضر المستمر عن المستقبل بالإنجليزية يشبه التعبير باستعمال اسم الفاعل عن المستقبل في العربية. وهذا يذكّر بقصة طريفة أوردها أبو حيان التوحيدي في كتابه «البصائر والذخائر» (5/ 203) حينما سأل الكسائيُ القاضيَ أبا يوسف عن رجلين قال أحدهما «أنا قاتلُ غلامِك»، وقال الآخر «أنا قاتلٌ غلامَك»، أيهما قتله؟. والجواب الصحيح هو أن القاتل هو الأول لأنه يعبر عن شيء حدث في الماضي، في حين أن الثاني يتهدد بشيء سيحدث في المستقبل.

(226) المقصود هو الحاضر والماضي والمستقبل.

فستقول (Na-pishi!). وبنفس الطريقة، لكي تقول (سأكتب) تستعمل جزئية (-na) نفسها، فتقول (Na-pishu). والمقصود هو أنك لا تتحدث عن كتابة تجري فحسب، على مدى فترة زمنية - بل تعني أنك ستبدأ شيئا من الكتابة. الآن حالا، «ستبدأ كتابةٌ».

ولكن هذا يعني أنه لا يوجد في الروسية واسم يمكنك أن تعده خاصا بوسم المستقبل. فلا تقدم الروسية جدولا بتصريفات الزمن المستقبل لتعلمها. ويجد الروسي عنتا في شرح «المستقبل في الروسية» لناطق بالإنجليزية، وعادة ما يلجأ إلى تقديم الأمثلة فقط من شاكلة (na-pishu) مما تنتمي تصريفاته، من ناحية جدول التصريف، إلى الزمن الحاضر. وصحيح أنك يمكن أن تستخدم فعل الكينونة (be)، لتقول (I'll be writing/ سأكون أكتب) - «ja budu pisat». ومن المحتمل أن يكون هذا هو الشيء الذي صادفه تشن. ولكن هذا ثانوي للغاية، حصان خاسر بالنسبة للمستقبل - ارجع مرة أخرى إلى محادثة الهوندا وتخيل شخصا تعيسا يقول «I will be buying the Honda Civic». فأنت لا تحتاج لقول أشياء من هذا القبيل إلا لماما. وإجمالا فإن تعلم الروسية بالنسبة لناطق بالإنجليزية يدفعه في مرحلة ما لأن يسأل: «كيف يا تُرى يصاغ الفعل في المستقبل بالضبط؟».

ومن ثم فإن ذلك يعني أن العمود الممثل للروسية ينبغي أن يكون أبيض في الرسم البياني لتشن. ولو كان أبيض بحسب ذلك، لكان ذلك على أية حال جيدا لتشن، لأن الروس جيدون في الادخار كما

يظهر. فكون الروسية عنده واسمةً للمستقبل أمرٌ عليه أن يعده من قبيل «الضوضاء»[227]، لأن فكرته تقوم على أن اللغات التي تسم المستقبل تجعل متحدثيها يدخرون مالا أقل. ومع ذلك، فإن هذا في الحقيقة يخلق المزيد من المشاكل، ولا يقللها.

فالروسية جزء من أسرة لغوية، وهي السلالة السلافية، التي تعمل على نفس الشاكلة إلى حد كبير. فالمعطيات المتعلقة بالمستقبل متماثلة بالنسبة للتشيكية والسلوفاكية والبولندية. وكما هو متوقع من تصوره بشأن الروسية، فإن تشن قد عدها جميعا من اللغات الواسمة للمستقبل. ومع ذلك فإن التشيك في رسمه البياني مدخرون جيدون (وهو ما يمثل مشكلة أخرى حتى بحسب تحليله)، في حين أن البولنديين مدخرون سيئون، والسلوفاك في مكان ما في المنتصف.

وهذا يجعل تشن مضطربا، مهما كانت الطريقة التي نحلل بها البيانات. وربما يقال إنه حتى لو لم يكن لدى الروسية وقريباتها كلمة أو سابقة شبيهة بـ (will/ سوف) المتمحضة للدلالة على المستقبل، فإنهن يُلْزمن المتكلم بأن يفعل شيئا لصياغة المستقبل، حتى لو أن

---

(227) الضوضاء في مناهج البحث هي التشويش الموجود في البيانات بلا دلالة واضحة. ومقصد المؤلف أن الروسية لو كانت من اللغات الواسمة للمستقبل، لكان وجود روسيا على رأس الدول ذات الادخار المرتفع من قبيل الضوضاء لأنه يخالف نظريته. ولكن الروسية ليست واسمة للمستقبل. ومع أن هذا يبدو في الظاهر في صالح الباحث الذي يناقش المؤلف عمله، فإنه في الحقيقة يخلق له الكثير من المشكلات كما سيوضح المؤلف بالتفصيل.

ذلك الشيء يمكن استعماله لأمور أخرى أيضا. فيمكن أن يقال إن وصف هذه اللغات بأنها لغات غير مستقبلية مجرد مماحكة. ولكن حينئذ، لماذا تكون الروسية والتشيكية والسلوفاكية والبولندية متفرقات على امتداد اللوحة؟ ألا ينبغي أن يتجمعن، إن كان النحو يشكّل الادخار؟

ولكننا أيضا إن قبلنا أن هذه اللغات الأربع غير واسمة للمستقبل، وأن أعمدتها كلها ينبغي أن تكون بيضاء، فإن توزعها ذاك سيظل خللا فادحا[228]. فما الذي تفعله البولندية، على وجه الخصوص، في أقصى اليمين مع المدخرين السيئين، في حين أن البولنديين (كما تأكدت من تواصل مع ناطق بالبولندية أثناء كتابة هذه السطور) يواجهون الصعوبة نفسها التي يواجهها الروس في إخبار متحدثٍ بالإنجليزية بطريقة صياغة المستقبل، والعلة هي نفسها أيضا؟ ويمكن أن نضيف أن التشيكية والسلوفاكية هما في الأساس لغة واحدة - فلماذا يفصل المتحدثين بهما عدةُ أعمدة، إن كنا نرى حقا ارتباطا له معنى بين النحو والانضباط في الادخار؟

والسلوفينية[229] من ناحية أخرى لغة سلافية أيضا، واتفق أنها

(228) المقصود أنه سواء كانت هذه اللغات الأربع واسمة للمستقبل كما يدعي تشن، أو غير واسمة للمستقبل كما يقول المؤلف، فإن تشتتها وتفرقها غير مفهوم أبدا.

(229) السلوفينية هي اللغة الرسمية في جمهورية سلوفينيا في وسط أوروبا، ويتكلمها قريب من مليونين ونصف المليون شخص. وهي من اللغات الأوروبية النادرة جدا التي تحتوي على صيغة المثنى. ومن اللغات =

تملك بناءً لوسم المستقبل. ولكن ألا يبدو أن السلوفيين متطرفون جدا باتجاه اليسار فيما يخص الادخار بالنسبة لشعب لديه واسم للمستقبل ينبغي كما هو مفترض أن يثبّطه عن حفظ القرش الأبيض لليوم الأسود؟

وهناك المزيد. فالكورية مثلا تلزم أيضا متحدثَ الإنجليزية أن يتخلى عن فكرة «واسم المستقبل». إذ لا يوجد شيء في الكورية يشاكل «will/ سوف» - وقد يكون تشن قد حصل على انطباع مخالف لذلك من لاحقة يمكن ترجمتها تقريبا بـ «could/ يمكن» أو «might/ قد». ولكن ذلك ليس (will/ سوف).

وسواء أجعلنا الأعمدة السلافية الأربعة سوداء أم بيضاء، فإن تفرقها عبر شبكة الادخار، إلى جانب مشكلة الكورية، يجعل الرسم البياني لتشن عشوائيا. وهذا هو مآله في نهاية المطاف. فبالنظر إلى كيفية توافق رسم تشن البياني مع الأنحاء المقصودة في الواقع - مثل كون السلوفينية الواسمة للمستقبل تقع بجوار أستراليا الأنغلوفونية مباشرة، ولكنها تقع على بعد 21 عمودا إلى يسار الولايات المتحدة الأنغلوفونية أيضا - فما مدى معقولية أن تكون لعلة كون معدلات الادخار في الولايات المتحدة منخفضة جدا أي علاقة على الإطلاق بكلمة (will)؟[230]

=السلافية الأخرى التي تحتوي على هذه الصيغة اللغة الصوربية. وتجدر الإشارة إلى أن حنان مظفر، في ترجمتها لكتاب (عبر منظار اللغات) ص132، قد ترجمت (الصوربية) بـ (الصربية)، وهو خطأ لأنهما لغتان مختلفتان، رغم انتمائهما للأسرة السلافية.

(230) لقد ركز المؤلف على الجوانب المتعلقة بأخطاء التحليل النحوي=

الكلب الذي لا ينبح

عندما تظهر دراسةٌ شيئا سلبيا

وهكذا دواليك. فحتى محاولات إظهار الروابط بين ما هو موجود في اللغة الصينية والكيفية التي يفكر بها الصينيون ارتطمت بطريق مسدود. فلقد رأينا سابقا مدى هشاشة النتائج المستقاة من التحقيق فيما إذا كان تعبير «الشهر الأسفل» في الصينية يعني بصورة مهمة أن متحدثي الماندرين يشعرون بالوقت باعتباره عموديا. وقد برزت بالإضافة إلى ذلك مشكلة مماثلة بشأن شيء آخر موجود، وليس معدوما، في الماندرين. وهو هذه المرة من نوعية واسمات المادة التي رأيناها في اليابانية في تجربة النيفيا.

تذكّر أنه حينما يكون هناك عدد في اليابانية، فإن عليك أن تلصق كليمة صغيرة تختلف بحسب ما يبدو عليه الشيء. فتستخدم (hiki) مع اثنين من الكلاب، ولكنك تستخدم (hon) مع اثنين من قوارير

=واضطراب النتائج في ادعاءات تشن بشأن العلاقة بين وسم المستقبل والادخار، والحق أنه توجد من وراء ذلك مشكلات أخرى نظرية وتصورية ذكرها باحثون آخرون. فادعاءات تشن في هذا الصدد تشبه من بعض الوجوه ادعاءات أخرى مضحكة تربط اللغات بأشياء لا علاقة لها بها، مثل ربط شخص يدعى «بروزناهان» وجود الأصوات الأسنانية الاحتكاكية في اللغات بشيوع فصيلة الدم O بين متحدثيها. ويستدل على ذلك بحجج إحصائية من شاكلة حجج تشن، ولكنه يغفل أشياء أخرى تبين سخافة مثل هذا التصور (انظر مثلا: «لماذا تتغير اللغات» لـ «آر تراسك»، ترجمة: محمد مازن جلال، ص39).

البيرة. وتوجد في الصينية «الفقاعة» نفسها: فتستخدم (zhī) مع اثنين من الكلاب، و(tiáo) مع اثنين من الأنهر، ويوجد من ذلك الكثير. وتتوافق هذه الكليمات الصغيرة إلى حد ما مع الخواص الفعلية للشيء المعني - فتستخدم الأولى لكثير من الحيوانات، وتستخدم الثانية لكثير من الأشياء النحيفة. ولكنها تندلق متجاوزة ذلك إلى حد يجعل تكلم اللغة إجمالا يعني أن تعرف فحسب ما الكليمة الصغيرة التي تستعمل مع هذه الكلمة أو تلك، هكذا من دون سبب. فلماذا مثلا تُسْتخدم اللاحقة «bǎ» في الماندرين مع «اثنين من المقصات» و«اثنين من المظلات»؟ عليك أن تتعايش مع ذلك فقط.

ومهما يكن فإن الوورفية تستلزم على أية حال أن يرى متحدثو الماندرين في مستوى معين المقصات والمظلات باعتبارهما أمرين متشابهين، لأنّ - أطلق المعزوفة، فضلا - اللغة تشكّل الفكر. وتنطبق هذه الكليمات الصغيرة في اللغات الأخرى، التي يتعين عليك أن تستخدمها فيها بعد الأعداد، انطباقا عشوائيا في تناوبها. تذكر مثلا أن (hon) اليابانية، التي تستخدم مع قوارير البيرة، تستخدم أيضا مع أشياء متباينة بقدر تباين أقلام الرصاص، والمكالمات الهاتفية، والأفلام؟ وبناء على ذلك تقود الوورفية الشخص أيضا لأن يتوقع أن متكلمي تلك اللغات الأخرى ذات الكليمات الصغيرة لا بد من الناحية الذهنية أن يجمعوا الأشياء التي يتفق أنها تأخذ الكليمة نفسها معا، سواء كما في اليابانية، أو كما في التايلندية حيث تستخدم (tua) مع ما يزيد على المفرد سواء من ثعابين البحر، أو من الطاولات.

ولكنّ متحدثي تلك اللغات في الحقيقة لا يقومون بتجميع تلك الأشياء على هذا النحو. فلقد أظهرت دراسة أنه من المرجح أن يكون شعور متحدثي الماندرين بتشابه المقصات وثعابين البحر مماثل لشعورهم بتشابه المقصات والمظلات، رغم أن المقصات والمظلات كليهما يتطلبان (bǎ) في الماندرين، في حين أن ثعابين البحر، باعتبارها أشياء نحيفة، تتطلب (tiáo). ومن المرجح من ناحية أخرى أن يكون جمع متحدثي التايلندية لثعابين البحر والمظلات كجمعهم لثعابين البحر والطاولات، رغم أن ثعابين البحر والطاولات في لغتهم يأخذان اللاحقة (tua)، في حين أن المظلات تأخذ واسما آخر (k^han).

فتبين هذه الدراسة أنه رغم أن متحدثي الماندرين والتايلندية يستخدمون طوال الوقت كليمات صغيرة تتفهرس بحسب بعض التجميعات العشوائية غالبا في الأسماء، فإن ذلك لا يؤدي بهم إلى معالجة تلك الأشياء باعتبارها متجانسة في أي مستوى عميق. أي أنّ تكلم الصينية لا يعني أن تكون إنسانا يرى المقصات والمظلات متشابهة إلى حد ما على نحو مخالف لما يراها به أي إنسان عاقل آخر.

وعلينا في نهاية المطاف أن نسأل هل يوجد في هذا أي شيء مفاجئ؟ فليس في ذلك ما يزيد على أنه من غير المعقول أن يتجول متحدثو الماندرين وهم أقل إدراكا لما هو موجود وما هو ممكن من متحدثي الإنجليزية. اللغات تختلف. والفكر لا يختلف. أو إذا كان يختلف، فإنه يختلف بسبب عوامل ثقافية منوطة بـ - وياللهول - الثقافة. وليس النحو.

وسيعترض على ذلك الهوى الوورفي، قائـلا: مؤكد أن البيانات لم تكتمل بعد. ولكن ما هي البيانات؟ إن البيانات ذات الصلة بالموضوع هنا هي «بدء بدء الله حققَ صنعَ سماء أرض» و«إذا أنت ترى أنا أخت أنت تعرف هي حامل يصير»[231]. مليارات من البشر - حرفيا مليارات، إذا حسبنا متحدثي الماندرين، وتنوعات الصينية الأخرى، وما لا يعد من اللغات المشابهة التي يُتَحدَّث بها في شرق آسيا، وشرقها الجنوبي - يتحدثون تماما بهذه الطريقة طوال الوقت، وكانوا كذلك منذ الأزل.

لتتعلّق بالوورفية لكونها تبين أن الناس جميعا متقدمون عرفانيا، بل مهمون جمعيا من هذه الناحية. ولكن تقبّل في وسط ذلك أن قدرا هائلا من اللغات الوازنة سينزع بهذه البديهية إلى الوقوع في فراغ الاستتباعات. ثم حاول أن تتبنى الفكرة القائلة بأن اللغة تشكّل الفكر. فالدراسات تشير إلى أنها تشكله، أو أنها بصورة أدق - يمكنها فعل ذلك. إلى حد ما.

ولكـن هل «إلى حد ما» هذه قوية إلى درجة أنه يمكننا القول لمتكلم بلغة الماندرين بأنه غبي قليلا في ضوء ما يبدو عليه نحو لغته.

---

(231) يشير المؤلف هنا إلى ما ناقشه طوال هذا الفصل بشأن بنية اللغة الصينية وافتقارها إلى الأبنية الشرطية، وواسمات الزمن، والعدد، والأدوات، ونحو ذلك.

هوامش الفصل الرابع:

- جملة أتسوغوي:

Atsugewi sentence: Leonard Talmy, "Semantic Structures in English and Atsugewi," PhD dissertation, University of Califor-nia, Berkeley, 1972.

- كلام وورف بشأن اللغات الأقل تعقيدا:

John B. Carroll, ed., Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf (Cambridge, MA: MIT Press, 1956), 83.

- دراسة بلوم:

Alfred H. Bloom, The Linguistic Shaping of Thought: A Study in the Impact of Language on Thinking in China and the West (Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1981).

- الردود على بلوم:

Terry Kit-Fong Au, "Chinese and English Counterfactuals: The Sapir-Whorf Hypothesis Revisited," Cognition 15 (1983): 155–87.

Terry Kit-Fong Au, "Counterfactuals: In Reply to Alfred Bloom," Cognition 17 (1984): 289–302.

L. G. Liu, "Reasoning Counterfactually in Chinese: Are There Any Obstacles?" Cognition 21 (1985): 239–70.

Donna Lardiere, "On the Linguistic Shaping of Thought: Another Response to Alfred Bloom," Language in Society 21 (1992): 231–51.

David Yeh and Dedre Gentner, "Reasoning Counterfactually in Chinese: Picking Up the Pieces," Proceedings of the Twenty-Seventh Annual Meeting of the Cognitive Science Society, edited by B. G. Bara, L. Barsalou, and M. Bucciarelli, 2410–15 (Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum and Associates, 2005).

- الثقافة الشفوية والأسئلة:

Shirley Brice Heath, Ways with Words: Language, Life, and Work in Communities and Classrooms (Cambridge: Cambridge University Press, 1983).

- الفلاحون والألغاز:

Alexandr Romanovich Luria, Cognitive Development: Its Cultural and Social Foundations, edited by Michael Cole, translated by Martin Lopez-Morillas and Lynn Soltaroff (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976).

- الأشياء المجنوَسة:

Lera Boroditsky, Lauren A. Schmidt, and Webb Phillips, "Sex, Syntax, and Semantics," in Language in Mind: Advances in the Study of Language and Thought, edited by Dedre Gentner and Susan Goldin-Meadow, 61–79 (Cambridge, MA: MIT Press, 2003).

- الجموع في لغة دينكا:

D. Robert Ladd, Bert Remijsen, and Cahuor Adong Manyang, "On the Distinction between Regular and Irregular Inflectional Morphology," Language 85 (2009): 659–70.

- جملة اللغة اللاوية:

N. J. Enfield, A Grammar of Lao (Berlin: Mouton de Gruyter, 2007), 530.

- الزمن المستقبل ومعدلات الادخار:

Keith Chen, “The Effect of Language on Economic Behavior: Evidence from Savings Rates, Health Behaviors, and Retirement Assets,” Cowles Foundation Discussion Paper no. 1820, Yale University, August 2012.

- كلمات الأعداد في الصينية والتايلندية:

Fabian Bross and Phillip Pfaller, “The Decreasing Whorf-effect: A Study in the Classifier Systems of Mandarin and Thai,” Journal of Unsolved Questions 2 (2012): 19–24.

الفصل الخامس

«ما رؤية العالم من منظور الإنجليزية؟»

تقارن الأعمال الوورفية اللغات الأخرى بالإنجليزية، بهدف إظهار كيف يمكن للغات الأخرى أن تجعل البشر الآخرين يفكرون بطريقة مختلفة عن متحدثي الإنجليزية. ولكن هناك شيء لا يُحقّق فيه إلا ما ندر، وقد يكون مفيدا في تقييم المقتضيات التي غالبا ما يتم استقاؤها من الأعمال الوورفية، وهو: كيف يمكن للإنجليزية أن تجعلنا نفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين؟

وقد يقال إن هذا هو ما أظهره العمل بشأن اللغات الأخرى، وإن لم يُقدم بتلك الطريقة. فإن كان الروس يدركون الأزرقين الغامق والفاتح على أنهما أكثر تميزا مما ندركهما، فإننا ندركهما على نحو أقل تميزا مما يدركونهما. وإن كان بعضٌ من السكان الأصليين في أستراليا يعقلون أنفسهم من خلال توجههم بحسب الإحداثيات الجغرافية، فإن ما يميزنا هو أننا لسنا كذلك.

غير أن المعطيات المشابهة لذلك تبدو أمرا جانبيا نوعا ما. فمتحدثو الإنجليزية هم الذين يكونون كما يبدو غالبا من لا يفعل وليس من يفعل، ومن يكون أقل حساسية إلى حد ما تجاه شيء معين، ومن يفتقر إلى ما يملكه الآخرون. ومن المؤكد على أية حال أنه

لا يوجد شيء بشأن لغتنا معطل بطبيعته للإحساس: فأي شيء يجعل الأمر يبدو كذلك هو لزوما ناجم من جرّاء التجارب التي يجريها في العادة ناطقون بالإنجليزية لجمهور أنغلوفوني[232].

ومن ثم فإن السؤال هو: كيف تشكل الإنجليزية فكر متحدثيها، على نحو يمكن أن يثير اهتمام الجمهور لو أن أغلب الأعمال الوورفية أجريت من منظور لغات العالم الثالث، أو حتى اليابانية أو الصينية؟ ولا يلزم بطبيعة الحال أن نفترض أن الإنجليزية تمنعنا تماما من التفكير بأي شيء، إلا لو كانت أي لغة أخرى تمارس هذا التأثير على متحدثيها. فلقد قررنا منذ وقت مبكر في الكتاب أن الوورفية متعلقة بنزعات إحصائية، وليس بمطلقات واضحة التهافت. فليكن، ويظل السؤال هو: كيف تؤثر اللغة الإنجليزية على أنماط التفكير لأولئك الذين يتحدثونها؟

وسوف يلاحظ كثيرون بالفعل كيف يبدو هذا السؤال غريبا. فالفكرة القائلة بأن لغتنا تخلق رؤية أنغلوفونية فريدة للعالم قد تبدو أبعد من الحدس بأن اليابانية تخلق رؤية يابانية للعالم[233]. فليس من الصعب أنْ نتخيل أنّ لغة تسمّى «غوغو إمذر» تخلق رؤيتها الخاصة للعالم، حيث أن اسمها ذاته يوحي بعالم من الحياة غير مشابه أبدا

(232) مقصد المؤلف أن متحدثي الإنجليزية غالبا ما يظهرون بدور سلبي وثانوي. وذلك ناجم كما يرى المؤلف من التركيز على اللغات الأخرى في المقارنات الوورفية. وهي يريد أن يعكس ذلك فيركز على الإنجليزية في المقام الأول، ويجعلها هي منطلق المقارنة في هذا الفصل.

(233) يقصد بالنسبة للناطق الإنجليزي، لأن كل متحدث يرى مباشرة مدى اختلاف اللغات الأخرى، ولكنه لا يفكر بلغته بنفس الطريقة.

لعالمنا. ولكن حينما يتعلق الأمر بواسمات الزمن المستقبل، أو الطرق التي تقال بها كلمتا «before/ قبل» و«after/ بعد»، أو عدم وجود واسمات للجنس في الأسماء، فما رؤية العالم التي يخلقها ذلك بالنسبة لرجل يمد يده في الوول مارت في مدينة سانت لويس ليحصل على علبة من رقائق الذرة؟[234]

يستحق هذا السؤال الاستكشاف. وسنكتفي في هذا الفصل بجملة واحدة فقط من الإنجليزية، ونصوب عليها الضوء الوورفي على نحو ما نراه في العادة يصوّب تجاه اللغات الأخرى. ولكننا لن نفحص مقطعًا من الكتاب المقدس أو من كتابات هنري جيمس أو حتى هنري ميلر[235]: بل نريد لغة حية ومنطوقة. ولذا فلن تكون أيضا جملة مأخوذة من والتر كرونكايت[236] أو هيلاري كلينتون. فلا بد أن يظل واضحا في أذهاننا أننا لا نشير، في تأطيرنا للغات باعتبارها تشكل الفكر، إلى رموز يتحدثون بعناية إلى الجماهير الغفيرة، بل إلى بشر واقعيين يتحدثون عفويا في معمعة الحياة اليومية.

---

(234) الوول مارت شركة شهيرة للبيع بالتجزئة، وسانت لويس مدينة أمريكية تقع في وسط الولايات المتحدة تقريبا، والمقصود الناطق العادي بالإنجليزية في مشاغله اليومية.

(235) هنري جيمس (1843-1916) روائي وكاتب قصصي أمريكي مشهور، وهو أخ للفيلسوف البراغماتي الشهير ويليام جيمس، وقد ترجم بعض من قصصه ورواياته إلى العربية. وهنري ميلر (1891-1980) روائي أمريكي أيضا، وترجمت بعض أعماله إلى العربية.

(236) والتر كرونكايت (1916-2019) مذيع وصحفي أمريكي.

شيء يبلغ من الواقعية والحقيقة، مثلا، مبلغ صبي بعمر السادسة عشرة تقريبا سمعته صدفة يقول شيئا في صباح أحد أيام الأسبوع في جيرسي ستي[237]، وهو في طريقه إلى المدرسة مع صديق له. وهو، للعلم، شخص أسود، وهذا الجانب منه ملائم، من حيث أن أي ادعاءات بشأن كيفية تشكيل اللغة للفكر لا بد أن تكون منطبقة عليه بقدر انطباقها على أي شخص في منتصف العمر ينتمي إلى ضفتي الأطلسي - ففي تعاملنا مع الإنجليزية باعتبارها تشكّل التفكير، لا بد أن نأخذ بالاعتبار مجموعة واسعة من البشر، لا في الولايات المتحدة فحسب، بل في العالم أجمع. وبقدر ما يكون أداء هذا الصبي للجملة متأثرا من ناحية أخرى بأنماط اللهجة المعروفة على نطاق واسع بـ «أيبونكس»[238]، تكون تلك الأنماط ذات صلة قوية أيضا بتقييم ما يمكن استخلاصه من مكتشفات الوورفية بشأن اللغة والفكر[239].

تذكر: أن هذه المكتشفات تبين دون شك أن اللغة يمكن أن تشكل الفكر في تفاصيل دقيقة. والسؤال ما المقتضيات التي يمكن

---

(237) جيرسي ستي هي المدينة التي يعيش فيها المؤلف.

(238) أيبونكس/ Ebonics هو الاسم الذي يطلق على اللهجة الأمريكية الخاصة التي ينطقها معظم السود في أمريكا، ولها خصائصها المعجمية والأسلوبية والتركيبية التي تختلف إلى حد ما عن الإنجليزية المعيارية. وسيناقش المؤلف في الفصل بعضا من هذه الجوانب المميزة لهذه اللهجة.

(239) مقصد المؤلف هو أن اختيار هذه الجملة مفيد من ناحيتين، لأنه يمكّن من مقارنة الإنجليزية بغيرها من اللغات أولا، ومن مقارنة لهجة السود بالإنجليزية المعيارية من ناحية ثانية.

أن نستخلصها عند هذا المستوى الدقيق بشأن ماهية الإنسان. وفي ضوء ذلك، إليك ما قاله إنسان لصديقه ذات صباح من عام 2012م: «Dey try to cook it too fast, I'm-a be eatin' some pink meat!»[240]

وإن كان ثمة أحد يحتاج إلى الترجمة، فإن النسخة المعيارية ستكون: «If they try to cook it too fast, I'm going to be eating some pink meat!» لم التقط ما جاء قبلها أو بعدها، أنا أحببت فقط الجملة نوعا ما، بحيث علقت في أذني، وبدت لي فيما بعد ممثلة على نحو قوي، وممتع، للإنجليزية الأمريكية الحديثة.

إذن: نحن نعلم أننا لو طلبنا من مراهقنا هذا أن يشارك في أنواع معينة من التجارب اللسانية النفسية، فسنرى أن لغته الإنجليزية الأمريكية الحديثة تشكل فكره بطرق معينة. ولكن ما مدى معقولية أن نجد تأكيدا لكون كلامه - من شاكلة هذه الجملة: Dey try to cook it too fast, I'm-a be eatin' some pink meat! - يودع فيه رؤية للعالم (1) مختلفة عن الرؤية التي لدى شخص إندونيسي أو برازيلي، و(2) مشابهة للرؤية التي لدى ليندسي لوهان، وكوندليزا رايس، وبن كينغسلي، وأنا، وربما أنت؟[241]

---

(240) الترجمة الحرفية للجملة، هي: «إن حاولوا أن يطبخوها بعجلة، فإنني سوف آكل بعضا من لحم وردي». وهي منطوقة بطريقة معينة تخص لهجة السود، وسيخصص المؤلف هذا الفصل كاملا لمناقشة كل ما فيها من تفاصيل.

(241) ليندسي لوهان ممثلة أمريكية، وكوندليزا رايس سياسية مشهور شغلت=

سـنرى.

as if / ما يشبه إذا[242]

أول ما يجب أن نتعامل معه، وفقا لتقاليد الوورفية، هو إخضاع مراهقنا إلى نفس الفرض البائس الذي تم اختباره مع اللغة الصينية ببالغ الأسى. وهو أنه إذا كانت اللغة تشكّل الفكر، ألا يجب أن نسأل إذن ما الذي قد يعنيه كون الصبي لم يستخدم «if»[243]؟

وإن أردنا الدقة، فإنه يستخدم «if» أحيانا، وأحيانا لا يستخدمها: فالأمريكان السود يراوحون في استخدامهم لأبنية إنجليزية السود[244]. ومع ذلك، فإنه يظل من المعقول افتراض أنّ تَشَكُّلَ الأفكارِ بحسب التركيب المتضمن لـ «if» سيكون أقل لدى شخص معدلات استخدامه لكلمة «if» أقل مقارنة بشخص توجب عليه لهجته أن يستخدمها دائما.

=منصبي وزيرة الخارجية ومستشارة الأمن القومي في الولايات المتحدة، وبن كينغسلي ممثل بريطاني، والمقصود هو الرؤية التي تجمع هؤلاء باعتبارهم متحدثين للإنجليزية. وحينما يقول المؤلف (وأنت) في نهاية الجملة، فإنه يقصد القارئ الإنجليزي الذي من المفترض أن يشارك المذكورين رؤيتهم لكونه ناطقا مثلهم بالإنجليزية أيضا.

(242) العناوين الفرعية لهذا الفصل مستندة إلى مكونات الجملة الإنجليزية التي سيناقشها المؤلف، ولذا فإنني قد أبقيتها على ما هي لأنها مقصودة بلفظها، مع إضافة ترجمة تبين ما فيها من إشارات.

(243) «if» هي أداة الشرط في الإنجليزية، ويمكن أن تترجم بعدة أدوات في العربية بحسب المعنى، كما أوضحنا سابقا.

(244) أي لا يتقيدون بها دائما، بل قد يستخدمون الإنجليزية المعيارية أحيانا.

وقد اتفق أنه يوجد تاريخ طويل من التعامل مع إنجليزية السود في هذا السياق بالضبط[245]. وغالبًا ما كان يتم ذلك بحسن نية مبنية على مغالطة، وهي: أن الأطفال السود يحتاجون إلى الإنقاذ من لهجة منزلية غير منطقية. وجادل خبير التعليم كارل بيريتر وزملاؤه في الستينيات من القرن الماضي بأن جملة مثل «They mine» بدلا من «They are mine» جملة مكسورة تعوق عملية التعلم، بسبب افتقارها لصيغة من فعل «be». ولكن بيريتر لم يكن يعلم أنه يصف أعدادا هائلة من البشر بأنهم معوّقين لفظيا، نظرا لكون لغات كبيرة كالروسية والأندونيسية أيضا لا تستخدم فعل (be) بنفس الطريقة، (وللعلم، فإن كاتب العهد القديم لا بد أن يتم إدراجه أيضا، لأن العبرية التوراتية كانت بلا (be) على نفس المنوال)[246].

ينبغي القول إن تحليل بيريتر كان يستند إلى رغبة صادقة في مساعدة الأطفال السود الفقراء على تعلم القراءة بشكل أكثر فعالية. والحق أن طريقة تعليم القراءة التي أطلقها صديقي سيغفريد إنجلمان وبيريتر، والتي لا تتطرق بذاتها لقواعد إنجليزية السود، من أكثر الأسرار التي تم الاستغناء عنها على نحو مؤسف في التعليم اليوم. وينبغي القول أيضا مع ذلك أن من بين الأشخاص الآخرين الذين كانوا يتعاملون آنذاك مع الطبيعة الانسيابية لإنجليزية السود باعتبارها دليلا على القصور عالم

(245) وللاطلاع على مناقشة موجزة لهذا الموضوع، انظر: الغريزة اللغوية، لستيفن بنكر، ترجمة: حمزة المزيني، ص37.

(246) المقصود بذلك هو فعل الكون المطلق أو فعل الرابطة، والعربية من اللغات التي لا تتطلب استعمال هذا الفعل لبناء الجملة.

النفس آرثر جنسن، الذي اقترح كما هو معروف أن السود في المتوسط أقل ذكاء من الآخرين.

آه، نعم، والآن ماذا كنا نقول بشأن كون «اللغة تشكل الفكر» ومراهقنا الأسود؟ من السهل على الغالبية أن يصنفوا التعامل مع علاقته المتقطعة بكلمة «if» باعتباره يحمل تقريبا المغزى العرفاني الذي يحمله تخفّف الصينيين من الطرق الصريحة للتعبير عن الشرط الامتناعي. وأي تعاطف متبق لدى أيٍّ كان فيما يخص التعامل مع إنجليزية السود باعتبارها وجها من وجوه القصور لا بد أن يكون كذلك مستعدا لتأكيد أن متحدثي الصينية هم أيضا من الناحية اللغوية ناقصو عقل. ارفض ذلك، وستكون النتيجة المنطقية الوحيدة هي أن اللغات (ولهجات اللغات أيضا) تختلف في مدى ما تكون عليه من التصريح إجمالا - فلغة أتسوغوي من هنا، والصينية من هناك[247] - ولكن هذا الاختلاف مستقل عن الفكر بكل وجه له معنى، على نحو لا يبرر بالتأكيد الاستعارات المتعلقة بـ «الكيفية التي نرى بها العالم».

بل إنه لا يصعب أبدا أن نتبين ذلك، حينما يتعلق الأمر بالكيفية التي يتكلم بها شخص ما بالإنجليزية. فالكتابة على أية حال تحجب أشياء مركزية تماما في التعبير: كالسياق والتنغيم. فصديق الصبي لم يسمع «Dey try to cook it too fast» على نحو مستقل، بل كلاهما كانا على دراية بالمقام الذي كانا يتحدثان عنه، حيث كان هناك فيما يبدو

(247) يذكر هاتين اللغتين لأنه سبق أن ناقش في الفصل الماضي أنهما على طرفي نقيض من ناحية مقدار ما يصرحان به في بناء الجملة.

بعض التساؤلات بشأن جودة الطعام. وكذلك التنغيم الصوتي الذي نطق به الصبي عبارة «Dey try to cook it too fast» يوضح أنّ ثمة شيئا آخر سيقال على الفور، وهو نتيجة التعجل المحتمل في الطبخ. ومعنى ذلك أنه حتى لو أن الصبي قد قال (Dey try to cook it too fast) ثم صمت لسبب ما، فإن صديقه، بسبب التنغيم - المشابه للنوع الذي سيستعمله أي متحدث للإنجليزية عندما ينطق جُميلة شرطية كهذه - سيتساءل ما الذي سيحدث عندئذ. ولسان حاله يقول: (If dey cook it too fast, den what? Say somethin', dude/ إن طبخوها بعجلة، فماذا سيحدث؟ قل شيئا يا صاحبي!)[248].

فهذه الجملة قد لفظت باعتبارها جزءا من تخاطب منسجم تماما[249]. فإن كانت اللغة تشكل الفكر، وكان ما قد قاله ذاك الصبي

---

(248) كتب المؤلف الجملة بحسب طريقة النطق في إنجليزية السود، ولذلك أبقيناها في الأصل مع إضافة الترجمة لإبراز هذا الملحظ. والذي يريد المؤلف إيضاحه هنا أن المتخاطبين لا يعتمدون على الكلمات فحسب لفهم ما يقال، بل يعتمدون على الكثير من العوامل المتداخلة التي تشرح معنى الجملة. ومن بينها التنغيم الذي يؤدي في هذا الصدد دورا أساسيا جدا. وللاطلاع على مناقشة علمية مفصلة للكيفية التي تفهم بها الجمل في الكلام العادي، انظر: الفصول السادس والسابع والثامن من كتاب «أسس اللسانيات النفسية» لإيفا فيرنانديز وهيلين كيرنز، ترجمة: عقيل الشمري.

(249) الانسجام/ coherence هو الترابط الذي يجعل النص اللغوي قابلا للتأويل بحسب ما يضفيه عليه المتخاطبون من معان واستنتاجات متعلقة بالسياق الذي يحدث فيه التخاطب. وللاطلاع على مناقشة مفصلة لهذا المفهوم، انظر: الفصل السابع من كتاب «تحليل الخطاب» لجيليان =

لغة، فإن الوورفية بحسب ما هو ظاهر لا تنطبق على طريقته في استعمال (if) هنا. ولننتقل لشيء آخر.

Dey In, Dey Out/ دخول ضمير وخروج آخر

إن الفكرة القائلة بأن اللغات المختلفة تؤدي إلى طرق مختلفة للشعور بالحياة هي بالنسبة لكثيرين أكثر الأشياء إثارة للاهتمام بشأن اللغات. وبمعزل عن التكهنات الوورفية الهشة، فإنه غالبا ما تكون شذرات معينة من اللغة مثيرة للاهتمام بطرق عديدة. وكليمة (they) مثال جيد على ذلك[250].

فلقد بدأتْ كشيء من قبيل الترقيع، فدخلتْ إلى اللغة من مكان آخر لحل مشكلة معينة. والأمر بكل بساطة هو أن الكلمتين الدالتين على «he/ هو» و«they/ هم» في الإنجليزية القديمة قد أصبحتا متشابهتين بشكل مزعج نوعا ما. فـ«he» كانت تنطق «hay» والكلمة المستخدمة لـ«they» كانت تنطق تقريبا «hyay». وبحلول بواكير الإنجليزية الوسطى، كانت كل من «they» و«he» تنطقان «he».

وحدث ما هو أغرب من ذلك. فما اللغة الأخرى التي تعرفها غير الإنجليزية وتكون فيها الكلمة المستخدمة للدلالة على «you»

=براون وجورج يول، ترجمة: محمد الزليطني ومنير التريكي.

(250) (they) في الإنجليزية هي ضمير الجمع الغائب، وكما ذكرنا في المقارنة بين الضمائر في العربية والإنجليزية، فإن الإنجليزية لا تفرق بين المذكر والمؤنث هنا. فـ (they) تقوم مقام (هم) و(هن) في العربية. وسيتطرق المؤلف لبعض الجوانب المتعلقة بذلك في أثناء النقاش.

هي نفسها للمفرد والجمع؟[251] ومن المؤكد أن ذلك كان سيبدو بربريا لمتكلمي الإنجليزية الأوائل الذين أبقوا على ضمير «thou» للمفرد و«you» للجمع منفصلين تماما كما نحافظ نحن اليوم على انفصال «I/ أنا» و«We/ نحن». بل لقد كان ثمة ضمير في الإنجليزية القديمة لمجرد أن يقال «أنتما» الاثنان بدلا من «أنتم» للجمع[252]. ولكننا حاليا نعتقد أن «you» المناسب لكل المقاسات طبيعي جدا.

ومع ذلك فإن للغات طريقتها في الحفاظ على الأشياء منظمة إلى حد ما. فلطالما استبد القلق نوعا ما بمتكلمي الإنجليزية تجاه قضية (you)، على سبيل المثال. والصيغ من قبيل «y'all» و«youse» و«y'uns» في بيتسبرغ[253] - رغم محدودية انتشارها -

(251) (you) في الإنجليزية الحديثة ضمير المخاطب وتستعمل للجمع والمفرد على حد سواء (بل لا تتغير بحسب الموقع الإعرابي كبقية الضمائر الأخرى في الإنجليزية!)، فتقوم مقام الضمائر التالية في العربية: (أنتَ) و(أنتِ) و(أنتما) و(أنتم) و(أنتن)، وما يقابلها من الضمائر المتصلة في موضع النصب، وتؤدي معانيها كلها بحسب السياق.

(252) انقرض المثنى، وما يدل عليه من ضمائر وصيغ صرفية، في اللغات الأوروبية تماما، ولم يبق إلا في لغات محدودة جدا ذكرنا بعضها في تعليق سابق. وضمائر التثنية في العربية مقصورة على الفصحى، وأما في العاميات فلم يعد لها وجود.

(253) رغم أن (you) كانت للجمع في الإنجليزية القديمة، فإن اختفاء التمييز بين الجمع والمفرد في ضمير المخاطب في الإنجليزية الحديثة أدى إلى وجود عدد من المحاولات للتمييز بينهما، لا بإعادة ضمير المفرد القديم (thou)، بل بتخصيص (you) للمفرد، واستحداث صيغ جديدة للجمع، =

محاولات لمزيد من التصريح، ولجعل الإنجليزية أكثر «طبيعية» في هذا الصدد. والتأثير الخانق للغة المعيارية في التعليم والإعلام يمنع هذه الصيغ المستحدثة من أن تصبح خطابا مقبولا، ولكن الأمور كانت مختلفة تماما في القرن الرابع عشر. فقبل انتشار التمدرس أو الحرافة(254) على نطاق واسع، كانت المحاولات الطبيعية لترتيب اللغة (أو نفشها) تستتب بشكل أكثر سهولة.

وتبعا لذلك، وجد الفايكنغ الإسكندنافيون الذين واجهوا لغز الضمير (he) الدال على المفرد والجمع معا(255) أنه من السهل أن يجلبوا ضمير الغائب الجمع من النورسية القديمة(256) ليملأوا الفراغ.

=ومن بينها الصيغ التي ذكرها المؤلف، وهي محدودة الاستخدام وتنتشر في مناطق معينة، فـ (y'all) تنتشر في الجنوب الأمريكي، و(youse) في أسكتلندا وإيرلندا، و(y'uns) مرتبطة بمدينة بيتسبرغ والمناطق المحيطة بها في غرب ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

(254) الحرافة هو المصطلح الذي نستخدمه لترجمة (literacy) بمعنى معرفة القراءة والكتابة.

(255) عاد للحديث عن الضمير (he) الذي كان يتحدث عنه قبل أن يتطرق للضمير (you).

(256) النورسية القديمة هي اللغة الجرمانية الشمالية التي كانت تتحدث في المنطقة الاسكندنافية ما بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين، وقد تطورت إلى اللغات النرويجية، والسويدية، والدنماركية، بالإضافة إلى الآيسلندية. ولا تزال هذه اللغات لا سيما الثلاث الأولى منها قابلة للتفاهم المتبادل فيما بين الناطقين بها.

فبهـذه الطريقة حصلنا على الضمير (they): تخصيب عابر للغة. ونحن نعلم جميعا أن اللغات تقترض الكلمات للأشياء الجديدة، مثـل: sushi/ سوشي. ولكن من غير المرجح أن يخطر في ذهنك أن كلمة أساسية مثل (they) كانت اقتحاما أجنبيا. وأنّى يخطر لك ذلك![257]

***

غير أننا في نفس الوقت إذا سلطنا العدسة الوورفية على كليمة «they» التي أصبحت طبيعية، فإننا سنعود إلى القضية التي لم تسفر عن شيء في الفصل الماضي، وهي: ما إذا كان الناس يختلفون في مدى ثراء إدراكهم للجمع.

ولا بد للتجربة أن تأخذ بالحسبان أن الضمير (they) بالنسبة للغات يقارب المتوسط من ناحية التصريح الموجود في ضمائر

---

(257) كتب المؤلف هذه الجملة هكذا: (Thou never knowest)، بحسب الإنجليزية القديمة. فـ (thou) هو ضمير المخاطب المفرد، و(knowest) هو الفعل يعلم/ know مصرفا بحسب مقتضيات المطابقة الصرفية للمخاطب المفرد، حينما كانت الإنجليزية توجب مثل هذه المطابقة. والقصد من كتابتها بهذا الشكل تأكيد ما كان يناقشه بشأن ما حصل في الإنجليزية من تغير. وقد ترجمناها بطريقة مختلفة تناسب الأسلوب العربي. والاقتراض اللغوي ربما يكون خفيا جدا حتى على بعض المتخصصين. فربما لا يعرف كثير من الناس أن كلمة «رصيد» المستخدمة في العربية حاليا للدلالة على الرصيد المالي ونحوه مقترضة من الإيطالية، وليس لها أصل في العربية قديما.

الغائب. فالإنجليزية مفرطة في الزخرفة حتى في مجرد امتلاكها لضمير يعبر تعبيرا خاصا عن أكثر من غائب واحد، فكما رأينا: بعض اللغات فيها كلمة واحدة فقط لـ «he/ هو» و«she/ هي» و«it» و«they/ هم، هن»[258]. وفي الوقت نفسه، كانت الإنجليزية القديمة أكثر متعة من الإنجليزية الحديثة. فلقد بَسّطتُ الأمور قليلا من قبل: فالضمير (hie) في الإنجليزية القديمة كان يدل على المذكر من (they)، فكان هناك مؤنث مقابل له أيضا، وهو (hoe). فكانت الإنجليزية بذلك كالعربية والعبرية ونحوهما من اللغات في جعل الأشياء مرتبة.نعم، مرتبة. فإن كان لديك «he/ هو» و«she/ هي»، ألا يجدر أن يكون لديك أيضا «they/ هم»، ومؤنثه كـ «theyuh/ لـ «هن»، إن جاز لنا وضع ذلك[259].

ولكن، ما المدى الذي يمكن أن تصل إليه اللغات في هذه التجزئة الدقيقة. فمن المعتاد فيما بين اللغات الموجودة في البحار الجنوبية شرقا من أستراليا أن يكون فيها كلمات منفصلة لضمير الغائب الدال

(258) يشير المؤلف هنا إلى ما ذكره سابقا عن بعض اللغات كلغة بيراها التي تحتوي على ضمير واحد لكل غائب، من دون تمييز بين المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث.

(259) مقصد المؤلف أن الإنجليزية تفرق بين المذكر والمؤنث في ضمير المفرد الغائب، ولكنها تلغي ذلك التمييز في ضمير الجمع الغائب، في حين أن المفروض بحسب ما يعتقد المرء هو أن يوجد هذا التمييز في الجمع كما وجد في المفرد أيضا، وهو ما يوجد في العربية والعبرية اللتين أشار إليها المؤلف.

على اثنين، ولضمير الغائب الدال على ثلاثة أو ما يقارب ذلك، ولضمير الغائب الدال على الكثرة. والأمور في أماكن أخرى مختلفة تماما عن أي شيء يمكن لنا أن نتخيله. ففي لغة جاراوارا في الأمازون لا يوجد ضمير أبدا إن كانت الأشياء التي يُتَحدث عنها ليست من قبيل الأحياء. نعم، كما قلت لك، الضمير منعدم، ولك أن تتخيل. وستعلم إن كنت متكلما للغة جاراوارا أنه حينما لا يُستعمل ضميرٌ، فإنه يوجد ضمير «شبحي» للغائب، يشير إلى الأشياء التي ليست حية.

وتأمل، في ضوء هذا كله، استنتاجا على غرار استنتاج مارك أبلي بشأن اللغات الأمريكية الأصلية المنتمية لمجموعة اللغات الألغونكوية، مثل «كري» و«أوجيبوا» و«بووهاتان»[260]. وأبلي، صحفي، مغرم بشدة بالمنظور الوورفي، ومهتم لأسباب وجيهة بالمشهد السياسي الاجتماعي. ويعني ذلك بالنسبة له أنك «لكي تتحدث بشكل صحيح، في لغة ألغونكوية يجب أن تكون مدركا لهويات جميع الناس الذين تتحدث معهم وما بينهم من علاقات». وقد استند في تصريحه هذا إلى كونك حينما تستخدم ضمير المتكلم وضمير المخاطب في هذه اللغات في جملة مثل «رأيتُك»[261] فإن

(260) المجموعة الألغونكوية/ Algonquian group مجموعة من اللغات تمثل أسرة فرعية للغات الهنود الحمر في شمال الولايات المتحدة وكندا، تضم قريبا من ثلاثين لغة بعضها منقرض، ومن بينها اللغات الثلاث التي ذكرها المؤلف: كري/ Cree، وأوجيبوا/ Ojibwa، وبووهاتان/ Powhatan.

(261) الجملة التي استخدمها المؤلف هنا هي «I see you/ أنا أراك»، =

ضمير المخاطب يأتي قبل ضمير المتكلم، بحيث قد يظن المرء أن ضمير المتكلم في أذهان الألغونكويون أقل أهمية منه في أذهاننا.

ويمكن لأحد أن يُصْدِر تصريحا مشابها استنادا إلى تكاثر الكلمات الدالة على «ضمير الجمع الغائب» في لغات كاللغات التي ذكرتُ أنها موجودة في البحار الجنوبية - لا سيما أن تلك اللغات ولود على نحو مشابه بالنسبة إلى تنويعات «ضمير الجمع المتكلم» و«ضمير الجمع المخاطب»[262]. فقد يجد كثيرون أيضا أن مقاربة أبلي محببة في مقارنة شعوب الجزر الميلانيزية غير المقدرة، ومبخوسة القيمة، والمستغلة تاريخيا، مع متحدثي الإنجليزية المملة والمتعسفة. فتَحَدُّث الإنجليزية بحسب هذا التحليل يعني أن تكون متبلد الشعور تجاه الناس، وأعدادهم، وعلاقتهم بك، وببعضهم بعضا، وأقل رهافة اجتماعية من شخص ميلانيزي، مثلا.

بيد أنه بمعزل عن الجو الرومانسي المذكّر بنوبل سافاج[263]

=ولكنني ترجمتها بصيغة الماضي لكي أجعل الضمائر كلها متصلة، على نحو يذكّر بقواعد ترتيب الضمائر في النحو العربي. إذ يجب تقديم ضمير الرفع، وإن تعددت ضمائر النصب قُدِّم الأخص منها، مما يجيز نحو «أعطيتنيه» ولا يجيز نحو «*أعطيتهوني». والمسائل المتعلقة بذلك مفصلة في كتب النحو.

(262) أي أنه يوجد بها بالنسبة لكل فئة من الفئات الثلاث الدالة على المتكلم والمخاطب والغائب ضمائر تدل على الاثنين، وعلى الجمع القليل، وعلى الجمع الكثير.

(263) نوبل سافاج/Noble Savage اسم شخصية أدبية في الأدب الرومانسي، ترجمته الحرفية هي «الهمجي النبيل»، ويشير إلى شخصية الإنسان البدائي الطيب بالفطرة والبعيد عن مفاسد المدنية.

في هذا النوع من الأشياء، وبمعزل عن تضعضع الفكرة القائلة بأن الأنغلوفونيين في جميع أنحاء العالم بطبيعتهم غير مبالين نوعا ما، هل ترى سيبدو المنظور المشابه لأسلوب أبلي بخصوص «ضمير الجمع الغائب» بنفس القدر من الجاذبية لو قارنا الميلانيزيين لا بمارغريت ثاتشر(264) بل بمراهق أسود في جيرسي سيتي؟ فمن المرجح أن الإنجليزية هي اللغة الوحيدة التي يعرفها على الإطلاق، ومع ذلك فإن اللغة التي تشكل أفكاره كما هو مفترض هي اللغة نفسها التي تشكل أفكار راش ليمبو(265).

سيرى كثيرون عند هذا الحد أن المسعى كله غير متماسك. ويزداد الطين بلة إذا قررنا أن صبينا في جيرسي سيتي، بسبب امتلاكه لتمييز بين الغائب المفرد والجمع فيما لديه من ضمائر، سيكون «مدركا لهويات جميع الناس الذين يتحدث معهم وما بينهم من علاقات» على نحو أكبر من إدراك أفراد قبيلة بيراها لذلك. فهم لديهم ضمير واحد لـ «هو/ هي/ هم/ هن» [جميع ما يدل على الغائب]. ومع ذلك فهم يعيشون في مجموعة صغيرة، ويتفاعلون عن كثب كل يوم وطوال اليوم. ألا نتوقع منهم أن يكونوا أكثر تحسسا لتدرجات ما يدل على الغائب من أمريكي مدني؟ ولكننا إن توقعنا ذلك، فإن تلك أمارة أخرى

---

(264) سياسية بريطانية تولت زعامة حزم المحافظين ومنصب رئاسة الوزراء في بريطانيا في عقد الثمانينيات، ولقبت بـ «المرأة الحديدية».

(265) مذيع ومعلق سياسي مشهور جدا من المحافظين، والمغزى من إشارات المؤلف هنا أن اللغة الواحدة تجمع أناسا متباعدين، بل متناقضين في رؤاهم وأفكارهم.

أيضا ضد وجود صلة ذات مغزى بين كيفية اشتغال نحو لغة ما، وكيفية تفكير متحدثيها.

ثم من يدري أي نوع من الصلة يمكن أن نربطه بين النحو والواقع بناء على افتقار لغة جاراوارا تماما لأي ضمير للأشياء غير الحية. وأنا متأكد أنهم لو سئلوا، فإنهم سيخبروننا أنهم يدركون أن الطيور حية وأن العصيّ ليست كذلك بنفس القدر من الوضوح الذي ندركها به، والحمد لله. ولست متأكدا من الذي سيقول إن الأمر بخلاف ذلك - أو يجازف بتجربة تسعى إلى الكشف عن أنهم أسرع بشعرة في الضغط على زر مرتبط بإظهار هذه الحقيقة. وبعد ذلك، هل كان القرويون الإنجليز القدماء أكثر انتباها إلى جنس الجماعة من البشر من فتى يبلغ خمس عشرة سنة في جيرسي سيتي؟ ولماذا؟[266]

وهكذا يستمر الأمر. فالسيجار في بعض الأحيان مجرد سيجار، و(they) مجـرد (they)[267]. ولنمض لشيء آخر!

(266) يشير إلى ما ذكره سابقا من وجود ضميرين للجمع الغائب في الإنجليزية بحسب الجنس: المذكر والمؤنث. في حين أن هذا التفريق قد اختفى في الإنجليزية المعاصرة.

(267) قوله (السيجار مجرد سيجار) عبارة متداولة مبنية على تورية تشير إلى التهويمات الفرويدية التي ترى إشارات جنسية في كل شيء بما في ذلك السيجار، في حين أن الأمر لا يحتمل ذلك في كثير من الأحيان.

try/ جرب

كلمة «try» في الإنجليزية كلمة لقيطة(268). لا أحد يدري من أين جاءت باستثناء شيء واحد، وهو أنها جاءت من مكان ما حول فرنسا، تقريبا. فهي واحدة من آلاف الكلمات التي اقترضتها الإنجليزية (ولم تردّها أبدا) إلى الفرنسية في الفترة الوسطى للإنجليزية، تاركة مفردات الإنجليزية مزيجا مختلطا من الجرمانية الكبرى القديمة والفرنسية الجديدة المرغوبة واللاتينية التي هي أساسها. وكلمة (trier)(269) الفرنسية واحدة من التنوعات المفروزة لتلك الكلمة التي كانت تحوم في فرنسا وما حولها. وتماما كما يمكن للمرء أن يعرف من مقارنة الكلاب، وخِلَدة الماء، والكناغر وغيرها أنه قد كان هناك ذات يوم ثديي أولي ذو أربعة أرجل، وشعر، ويلد صغاره أحياء، فإنه يمكننا أن نعرف من مقارنة تنوعات (trier) أنه قد كان هناك ذات يوم كلمة (triare) في منطقة الغال(270).

---

(268) كلمة (try) هي الكلمة الثالثة في جملة الصبي الأسود التي يحللها المؤلف هنا، ومعناها: يحاول أو يجرب.

(269) كلمة فرنسية بمعنى (فرز) أو (صنّف).

(270) منطقة الغال منطقة تاريخية في غرب أوروبا تضم حاليا فرنسا وأطراف من الدول المجاورة لها. والمقصود من كلام المؤلف هنا أنه كما يمكن من خلال دراسة القواسم المشتركة الموجودة بين الثدييات اليوم استنتاج بعض خصائص الأصل المشترك لهذه الفصيلة الحيوانية، فإنه يمكن كذلك استنتاج الأصل المشترك لبعض الكلمات من عملية الترسيس التي تدرس ما في تلك الكلمات من تشابهات وقواسم مشتركة.

ومن ثم يمكن للمرء عادة أن يقارن كلمة مثل هذه بالكلمات المشابهة لها في اللغات الأخرى في جميع أنحاء أوروبا، وباستخدام المنهجية المقارنة نفسها، قام اللسانيون بترسيس آلاف الكلمات فيما ينبغي أن تكون اللغة السلف لمعظم لغات أوروبا، بالإضافة إلى إيران والهند[271]. فكلمة (father/ أب) في الإنجليزية، على سبيل المثال، كانت تنطق (pəter) في تلك اللغة القديمة، التي يعتقد بشدة حاليا أنه قد كان يتحدث بها في جنوب أوكرانيا. ونتج عن تلك الكلمة كلمة (père) الفرنسية، و(padre) الإسبانية، و(Vater) الألمانية، و(pitaa) الهندية، و(atheir) الأيرلندية، و(hayr) الأرمينية، وهلم جرا.

ولكن لا وجود لكلمة تشبه (triare) في أيٍّ من اللغات الأوروبية الأخرى. ويعني ذلك أن كلمة (try) ليس لها نسب إلى كلمة سالفة ذات نسل موجود الآن في الروسية، واليونانية، والهندية، والفارسية، والليتوانية. بل إنها لم تصل إلى الإنجليزية أيضا، إلا بسبب استيلاء فرنسا المؤقت على إنجلترا في أواخر العصور الوسطى، عندما كانت اللغة الفرنسية هي لغة الكتابة وكانت كلماتها تتسلل إلى الحديث الإنجليزي المتواضع.

---

(271) المقصود هو الأصل المشترك لأسرة اللغات الهندو-أوروبية التي تمثل أكبر الأسر اللغوية في العالم، وتضم بالإضافة إلى معظم اللغات الأوروبية اللغة الفارسية واللغات الهندية المتفرعة عن السنسكريتية. وللاطلاع على أمثلة من ترسيس الكلمات المتشابهة في هذه اللغات، انظر: الفصل الثامن من كتاب «الغريزة اللغوية» لستيفن بنكر، ترجمة: حمزة المزيني.

فكلمة (try) إذن طفلٌ متبنى، شُحِن عبر القنال الإنجليزي في وقت قريب من الوقت الذي كان فيه توما الأكويني يدرّس في جامعة باريس، وهي تُستخدم اليوم عدة مرات كل يوم من قبل متحدثي الإنجليزية في جميع أنحاء العالم، ويشمل ذلك صباحات الأيام العادية من قبل المراهقين في جيرسي ستي، في نيو جيرسي.

* * *

والكيفية التي استخدم بها مراهقنا الذي نتحدث عنه كلمة (try) في صباح أحد الأيام مثيرة للاهتمام جدا. لاحظ أنه قال: « Dey try to cook it too fast, I'm-a be eatin' some pink meat!»[272]. ولو تمعنت، فستجد أن استخدام (try) هنا مخالف نوعا ما لمعناها المنطقي إنْ اعتبرنا أنّ «try» تعني ما هو مقصود في مدلولها الأساسي. وسيكون الأمر مختلفا لو أنه قال: « If they try to cook it too fast, I'm going to tell them to turn down the heat/ إذا حاولوا أن يطبخوه بعجلة، فسأقول لهم أن يخففوا الحرارة»، أو « If they try to cook it too fast, I just won't have any chicken/ إذا حاولوا أن يطبخوه بعجلة، فلن آكل من الدجاج». وإجمالا، إذا قال « If they try to cook it too fast/ إذا حاولوا أن يطبخوه بعجلة»، فإننا نتوقع أن يُتْبِع ذلك بشيء يتعلق به هو، إما بمنعهم من القيام بذلك، أو بتجنب ما يطبخون.

(272) لقد ذكرنا ترجمة الجملة سابقا، ونعيدها هنا: « إن حاولوا أن يطبخوه بعجلة، فإنني سوف آكل بعضا من لحم وردي».

غير أن جملته قد جعلته بدلا من ذلك يأكل اللحم الذي «حاول» هؤلاء الناس طبخه بعجلة - أي أنهم لم يحاولوا فيما يبدو أن يطبخوه بعجلة، بل فعلوا ذلك، وهو ما يجعلك تتساءل لماذا استخدم الفتى عبارة «try to/ حاولوا» في حين أنهم بكل بساطة قد فعلوا ذلك على أية حال. يشعر المرء كما لو أن الجملة كان ينبغي أن تكون بكل بساطة: «If they cook it too fast, I'll be eating pink meat/ إن طبخوه بعجلة، فسآكل لحما ورديا» - فـ «try to/ حاولوا» تبدو زائدة.

وذلك ليس عشوائيا البتة. فهذا الاستعمال لـ «try to» هو في الواقع مثال لكيف أن اللهجة التي يستعملها معظم الأمريكان السود طوال اليوم، والتي غالبا ما يعتقد أنها ذات نحو «سيء»، وتشوّهٌ في الإنجليزية الصحيحة، هي في كثير من الجوانب أكثر تعقيدا من الإنجليزية المعيارية. فاستخدام المراهق لـ «try to» يعبر عن صيغة افتراض احتمالي في مرحلة التشكّل في إنجليزية السود.

فالشذا المعبر عنه بهذه الزيادة مناظر لما تبدو عليه صيغة الاحتمال في لغات كالإسبانية بالنسبة لمتحدثي الإنجليزية. فجملة (I doubt you will go/ أشك أنك ستذهب) هي في الإسبانية (Dudo que él vaya)، حيث تنقل صيغة الاحتمال (vaya) افتراضية الذهاب بدلا من الصيغة التعيينية الخالصة (va)[273]. ويبدو هذا لمتحدث

(273) لقد تم شرح المقصود بالصيغة الاحتمالية في تعليق سابق، والعربية مثل الإنجليزية في عدم وجود صيغ تصريفية خاصة للدلالة على هذا المعنى.

الإنجليزية الذي يتعلم الإسبانية بمثابة زيادة مفرطة في التدقيق. ويتساءل المرء لماذا يجب أن يكون للغة في الواقع صيغة فعلٍ منفصلة لوسم مثل هذا الفرق الدقيق. وبنفس الطريقة، فإن (try to) في (Dey try to cook it too fast, I'm-a be eatin' some pink meat) تسم حالة الافتراض.

ولا شك أن فهم (try to) فهما حرفيا سيجعلها تبدو كما لو أنها جزء من نحو مضطرب «مشوش». ولكن السود غالبا ما يستخدمون (try to) بهذه الطريقة الدقيقة. فهي، وللعجب، اضطراد، ونمط نحوي له منطقه.

أي أن (try to) قد قطعت أواصرها الحرفية، وأصبحت تعني الآن «في حالة قيامهم بطبخه بتعجل». ويحدث هذا الشيء للكلمات في جميع اللغات في كل وقت، كما في الإنجليزية، حيث أن (going to) تعني حاليا المستقبل - كما في (I'm going to think about that)[274] - رغم أن ذلك، من ناحية المعنى الأصلي لـ(go)،

(274) جملة معناها (سأفكر بالأمر)، ولكن ترجمتها الحرفية هي (أنا ذاهب للتفكير في الأمر)، فعبارة (going to) دلالتها الحرفية (ذاهب لكذا)، ولكنها أصبحت صيغة تدل على الزمن المستقبل كما سيوضح المؤلف، فيقول الشخص ما معناه «أنا ذاهب لكذا»، ولو كان مستلقيا على سريره، لدلالة على المستقبل. وهي من هذه الناحية تشبه كلمة (قاعد) التي فقدت معناها الحرفي وأصبحت تستخدم استخدام الفعل المساعد لتدل على الحدثان الواقع حاليا في بعض اللهجات، في نحو عبارة (قاعد أمشي)، رغم ما فيها من مفارقة. ومثلها تماما كلمة (رايح) أو اختصارها (راح) في اللهجة المصرية، وتحمل المفارقة نفسها في عبارة «راح يجي».

لا معنى له: فكيف تذهب إلى التفكير؟ ولم تستخدم (going to) كذلك إلا منذ القرن السابع عشر. فاستخدام (going to) للتعبير عن المستقبل سيبدو لمتحدث الإنجليزية القديمة غريبا كالغرابة التي يبدو بها استخدام مراهقنا لـ (try to) لكثير منا.

والضمير في قولي (كثير منّا) يشمل الناس أنفسهم الذين يستخدمون هذه العبارة بتلك الطريقة، لو أخبرناهم بمعنى ما يقولون. ومن المؤكد أن الأمريكيين السود لا يدركون بوعي أنهم يستخدمون صيغة ناشئة للاحتمال، إلا بقدر إدراك مستخدمي الإنجليزية المعيارية أنهم يستخدمون ما يسميه اللسانيون «صيغة التوثّق» حينما يقولون «That must be the Indian food/ لا بد أنه الطعام الهندي»[275]. وتشير بعض المصادر كـ «أوربن ديكشنري»[276] إلى تعبير « tryna» عند السود. ولكن ذلك ليس (try to) الدالة على الاحتمال، بل هو مجرد مسألة متعلقة بنطق عامي، وهو متعلق بشكل خاص بـ «try-ing to» العادية، التي تستخدم تماما كما يستخدم جميع متحدثي الإنجليزية (try) في معناها الأصلي. وأما استعمال مراهقنا لـ «try to» فأمر مختلف - لطيف بقدر لطف النكهة السمعية لـ «tryna» بدلا من «trying to».

(275) تحدث المؤلف عن ذلك بالتفصيل في سياق حديثه عن واسمات التوثّق في الفصل الثاني من الكتاب.

(276) أوربن ديكشنري/ urban dictionary عبارة عن قاموس جماعي على الإنترنت يكتبه المستخدمون بأنفسهم للتعريف بالمفردات والعبارات الدارجة والعامية وطريقة نطقها واستخدامها في البيئات اللغوية المختلفة، ورابطه، هو: https://www.urbandictionary.com

و(try to) هذه الموجودة في مثل (try to cook it too fast) سمة نحوية أكثر استفاضة مما هو موجود في كتب الإنجليزية المدرسية، حيث صيغة الاحتمال على شفير الهاوية منذ قرون. ويمكن للمرء أن يزل فيها. فـ (If there be persons in opposition) هو النسخة الاحتمالية لـ (If there are persons in opposition)، ولكنها متفاصحة تماما. و(If I were the one) في مقابل (If I was the one)[277]: وكون حراس النحو بحاجة لأن يعظونا بأن نسخة «were»، الدالة على الاحتمال، أجود، دليلٌ على أنها تحتضر. ومع ذلك يباغتنا مراهقنا بعبارته (try to cook it too fast) من دون أن يقصد أبدا استعمال صيغة صورية، وبالتأكيد من دون أن يعلّمه أحد أن يعبر عن نفسه بهذه الطريقة. لقد كان يتحدث فحسب - مستخدما الصيغة الاحتمالية بلا جهد كما يستخدمها أي شخص يتحدث الفرنسية أو الإسبانية.

* * *

(277) لا يوجد في الإنجليزية صيغة تصريفية خاصة تدل على الاحتمال كما ذكرنا أعلاه، ولكنها قد تخصص بعض صيغ فعل الكينونة لدلالة بعض معاني الاحتمال. ومن ذلك مثلا أنها تخصص صيغة الماضي من فعل الكينونة لدلالة على الشرط الافتراضي أو الامتناعي في مقابل الشرط العادي كما شرح المؤلف في الفصل السابق، وذكرنا في التعليق عليه أن العربية تؤدي هذا التفريق عن طريق الأدوات لا عن طريق الصرف. ومثل هذه التمييزات أصبحت تعد متفاصحة نوعا ما في الإنجليزية، وربما تكون في طريقها للانقراض كما يذكر المؤلف.

هذه بعض الجوانب المثيرة للاهتمام بشأن (try to). فكيف يا ترى سيكون الفهم الوورفي لذلك؟ اللغة تشكل الفكر - وعلينا أن نخمن الآن أن الأمريكان السود ربما يكونون أكثر تنبها للوضع الافتراضي من غيرهم من الأمريكان. إنه لمن السهل أن نتكهن - رغم أنه أمرٌ مشكلٌ كما رأينا - أن المتصيدين اللَّقَطة الأمازويين قد يمتلكون، بما لديهم من واسمات التوثّق، تصورا مختلفا على نحو عجيب عن الغربيين بشأن ما إذا كانت الأشياء صادقة أم لا، وعلة ذلك. ولكن يا ترى هل سنقول الآن إن الشرطي الأسود في أوكلاند، أو الوزيرة السوداء في أتلانتا، أو كاني ويست، أو باراك أوباما أقوى تنبّهاً إلى أنواع الشرط من أشتون كوتشر أو توم فريدمان[278]؟

ينبغي أن نكون حذرين من هذه المقاربة برمتها بعدما نجم عن محاولة ألفرد بلوم لتصوير الصينيين باعتبارهم «أقل» حساسية تجاه الوضع الافتراضي. بيد أننا هذه المرة نتعامل مع أناس «أكثر» تحسسا تجاه ما قد يكون في مقابل ما هو كائن. فلعل ذلك يجعله يبدو أكثر جاذبية، لا سيما أنه يعمل على مواجهة الشعور السائد على نحو مفجع بأن كلام الأمريكان السود تشويه للإنجليزية، وليس تنوعا رائعا من تنوعاتها؟ وأرجو أنّه لا بأس بأنْ أشير إلى أنني شخصيا قد كنت من المقاتلين للتبشير بهذه النقطة الأخيرة.

(278) كاني ويست مغن أمريكي، وأشتون كوتشر ممثل أمريكي أبيض، وتوم فريدمان صحفي أمريكي أبيض أيضا والمقصود من ذلك كله هو الكناية عمن يتكلمون لهجة السود في مقابل من يتكلمون لهجة البيض.

بيد أننا من الناحية العلمية سنجر المتاعب على أنفسنا فيما يتعلق على وجه التحديد بكون السود أكثر وعيا بالاحتمال. تذكّر مثلا أن هذه اللهجـة هي اللهجـة نفسـها التي يمكن أن تسقط (if) في جملة مثـل: (Dey try to cook it too fast, I'm-a be eatin' some pink meat). وذلك قد يشير فيما يبدو إلى ترك الوضع الافتراضي إلى السياق إلى حد أكبر مما هو موجود في الاستعمال الإلزامي لـ (if) في الإنجليزية المعيارية. فما هذا؟ إن كان لذلك من معنى، فإنه قد يدل فيما يبدو على أن وجود (try to) الاحتمالية الممزوجة بغياب (if) تترك الأمريكان السود على قدم المساواة مع متحدثي الإنجليزية المعيارية، لا متقدمين عليهم فيما يخص الوضع الافتراضي.

ثم نصطدم بالصورة الكبرى. أنماط التفكير تسيّر الثقافة. فما الذي تشترك فيه ثقافة الأمريكان السود مع ثقافة الرومان القدماء، الذين كان يوجد في لاتينيتهم الصيغة الاحتمالية، وتطورت بعد ذلك إلى الصيغة الاحتمالية المستخدمة حاليا لدى متحدثي اللغات المتطورة عن اللاتينية كالفرنسية والإسبانية؟ بل قد نسأل أيضا ما نمط التفكير المشترك الذي يجعل الرومان القدماء، بالإضافة إلى الفلاحين في بلاد الغال وأيبيريا يستخدمون الصيغة الاحتمالية - دونا عن الفيتناميين، علاوة على ذلك، أو أي من السكان الأصليين في أستراليا، أو الإسرائيليين، أو الفنلنديين، أو ما لا عد له من الشعوب الأخرى مما يمكن للمرء أن يتصور بسهولة أنها من المحتمل أن تفهم الصيغة الاحتمالية من الناحية الثقافية. وبعبارة أخرى، أي شيء على

وجه التحديد يمكن أن يكون مشتركا بين يوليوس قيصر، وفاليري جيسكار ديستان، وبابلو بيكاسو، وصوفيا لورين، بل حتى نيكولاي تشاوتشيسكو مما يمكن أن يدل على أن صيغة الاحتمال الموجودة في لغاتهم قد شكلت أفكارهم؟ وأيًا كان ذلك، حاول الآن مشابهته بالطريقة التي يعالج بها جيسي جاكسون وجي-زي الواقع أيضًا[279].

هنا، يصبح من المجدي النظر في فقاعات الحساء تلك مرة أخرى، تلك الفقاعات التي تظهر في ذلك الجانب، أو هذا الجانب، أو في الوسط، وربك وحده يعلم أين ستبزغ الواحدة منها - ما تعرفه أن بعضها سيبزغ، في مكان ما، دائما. فهناك ما لا حد له من الفويرقات الدقيقة في الحياة التي قد تخلص اللغة إلى وسمها. وكل اللغات تسم بعضا منها لا كلها، وما تسمه منها أمر لا يعود إلى احتياجات متحدثيها ولا إلى ما هم عليه، بل إلى الصدفة. فالصدفة وحدها هي من تجعل كلا من جيرارد ديبارديو[280] وفتانا الأسود في

(279) يوليوس قيصر إمبراطور روماني عاش قبل الميلاد، وفاليري جيسكار ديستان سياسي فرنسي ذو اتجاه ليبرالي تولى رئاسة فرنسا في عقد السبعينيات، وبيكاسو رسام إسباني شهير وذو توجهات شيوعية من الناحية السياسية، وصوفيا لورين ممثلة إيطالية، ونيكولاي تشاوتشيسكو سياسي شيوعي روماني تولى رئاسة رومانيا حتى أعدم في الانتفاضات المضادة للشيوعية في شرق أوروبا عام 1989م، وجيسي جاكسون سياسي أمريكي أسود من الناشطين في مجال الحقوق المدنية للسود، وجي-زي مغني راب أمريكي أسود ومن الناشطين في مجال السياسي أيضا. ومقصد المؤلف بيان غرابة وجود أفكار مشتركة بين هؤلاء المذكورين تميزهم عن غيرهم، وتعود إلى اللغة حصرا.

(280) ممثل فرنسي.

جيرسي ستي يستخدمان وسم صيغة الاحتمال، تماما كما أن الصدفة هي التي تجعل كلا من التوكويون في الأمازون والبلغار يمتلكون واسمات التوثّق في حين أن سكان الجزر البولنيزية والتشيك لا يمتلكونها.

بل إن الطريقة التي تستخدم بها (try to) في إنجليزية السود توضح لنا أن اللغات في النهاية تظهر أن الناس يفكرون على نحو متشابه، لا بطريقة مختلفة. فإنجليزية السود يمكن أن تسقط (if) - Dey try to cook it too fast ... - ولكن (try ot) الاحتمالية تؤدي عندئذ المعنى الافتراضي نفسه، بطريقة أقل وضوحا فحسب. وهذا يشبه ما رأينا من أن الصينية، رغم افتقارها إلى أدوات التعريف، يمكن أن تؤدي معنى التعريف بترتيب الكلمات، وإن كان متحدثوها لا يعرفون ذلك على نحو واع: فـ (train arrived/ قطار وصل) تعني أن القطار قد جاء، في حين أن (arrived train/ وصل قطار) تعني أن قطارا قد جاء.

والعبرة في ذلك: أن وجود الاحتمال في لهجة الأمريكان السود أظهر من الناحية النحوية من وجوده في الإنجليزية المعيارية. ولكن أي محاولة لتوسيع نطاق ذلك لتوصيف متحدثي تلك اللهجة بأنهم متحسسون بشكل مدهش لأنواع الشرط ستسقط، بمجرد أن نتمعن في مدى احتمالية تصورنا لليزلي كارون وسيغولين رويال[281]، وجميع شعوب البرتغال، وإسبانيا، وأمريكا اللاتينية، وفرنسا، وإيطاليا، بل

(281) الأولى ممثلة فرنسية، والثانية سياسية فرنسية.

حتى رومانيا، باعتبارهم خاضعين لتأثير صيغة الاحتمال على الفكر على نحو مماثل لما لدى صبي أسود في جيرسي ستي.

يبدو ذلك سخيفا نوعا ما، مما يحتّم علينا أن نعيد تقييم التصريحات ذات الطبيعة الجذابة لأول وهلة من قبيل: «تتطور اللغات تبعا لاحتياجات متحدثيها». فهي بكل بساطة ليست كذلك. فاللغات بطبيعة الحال تطور كلمات جديدة للأشياء جديدة: فذاك أمر لا يُنْكَر ولكنه غير مثير للاهتمام. أما فيما يتجاوز ذلك، فلا علاقة للكيفية التي تتجمع بها لغة ما من الناحية البنيوية بما يحتاجه متكلموها. واللغة فاتنة لأسباب أخرى لا حصر لها.

undercooked? / غير النضيج؟

بالطبع لم يقل أحد أن كل عنصر في الجملة له أهمية وورفية. غير أننا في اجتيازنا بهذه الجملة النابضة بالحياة، تبدو الوورفية حافلة أينما ولينا وجوهنا.

تبدو كلمة (cook/ يطبخ) بريئة بما يكفي، بيد أنّ الإنجليزية قد اقترضتها من الفرنسية - ولم يكن قبل ذلك في الإنجليزية وقريباتها الجرمانية المبكرة كالنورسية القديمة كلمة عامة واحدة للطبخ. فالمرء يخبز، ويَصْلِي، ويسلق الأشياء، ولكن لم يكن هناك فيما سوى ذلك كلمة واحدة للطبخ بشكل عام مثلما أنه لا يوجد اليوم كلمة إنجليزية واحدة تشير إلى الأكل والشرب كليهما معا (كلمة (ingest)[282]

(282) كذللك لا أعرف كلمة تدل على هذا المعنى في العربية، ولكن تستخدم كلمة (تناول) بهذا المعنى فتشمل الطعام والشراب، ولكن دلالتها على=

تدل على ذلك من الناحية المعجمية، ولكنها رسمية جدا، فلا أحد يقول: Man, I ingested too much meat and wine at Thanksgiving/ يارجل، لقد تناولت الكثير من اللحوم والنبيذ في عيد الشكر - وهي تنطبق بشكل مناسب أكثر على المواد الصلبة أكثر من السوائل: فلا أحد يقول إنه «ingests lemonade/ تناول عصير الليمون»).

ولكـن: إذا كان الروس يرون الأزرق بشكل أكثر وضوحا لأن لديهم كلمتين منفصلتين للأزرقين الغامق والفاتح، فإن علينا أن نستكشف ما إذا كان متحدثو الإنجليزية الحديثة يدركون الطِّباخة بشكل أقل وضوحا من قرويي العصر الحديدي. فما الذي نستخلصه من خاطرة تقول إن الفايكنغ كانوا أكثر حساسية تجاه تمايزات أساليب الطبخ من زوجين متذوقين للطعام في سان فرانسيسكو؟ وإن كان تلميذ جيرسي ستي أقل تحسسا تجاه أساليب الطبخ من إدوارد المعترِف[283]، فهو لم يقدم أي دليل على ذلك في نقاشه الصباحي المتحمس لعشاء الدجاج المقبل.

أم هل يا ترى أنّ التطورات الثقافية التي تحدث بعد تَشَكُّلِ لغة ما تلغي تأثيراتها الوورفية؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف يمكننا تطبيق

=ذلك حادثة، وربما تكون من تأثيرات اللغات الأجنبية.

(283) إدوارد المعترِف ملك إنجلترا من 1046م حتى 1066م، والمقصود الإشارة إلى متحدثي الإنجليزية آنذاك الذين لم يكن لديهم كلمة عامة للطبخ، بل كلمات مختلفة بحسب أنواع الطبخ. وذلك بحسب المنطق الذي يتبعه مناصرو الوورفية يجعلهم أقوى تنبها لأساليب الطبخ، من الذين لديهم كلمة واحدة عامة يستخدمونها في جميع أنواعه.

تلك التأثيرات على أي مجموعة بشرية؟ فلغات البشر في العادة أكثر قدما بكثير من ثقافاتهم الحالية. وغالبا ما تُفْرَض على أناس غير الناس الذين نشأت بينهم: فلقد بدأت العربية لغةً لمجموعة مغمورة من البدو الرحل في جزيرة العرب، ولم تفرض إلا لاحقا على المصريين الناطقين بالقبطية، وأناس شمال أفريقيا الناطقين البربرية، وغيرهم. وغالبا ما تتغير اللغات كثيرا بمرور الوقت على أية حال: فالإنجليزية القديمة كانت تشبه إلى حد كبير الألمانية من ناحية المفردات والبنية معا.

فأي مرحلة لغوية تشكل أفكار المتحدثين بها وفي أي وقت - ثم فوق ذلك، أي نوع من الأفكار؟ ولماذا؟ لا بد أن تعمل الوورفية بشكل أكبر على هذا النوع من الأسئلة لتبرير المقتضيات التي يود كثيرون أن يستخلصوها منها.

* * *

وحتى (it) الضئيلة المتواضعة لها قصة. ألا يبدو أن الإنجليزية ستكون أكثر اصطفافا منظما لو أن الضمائر كانت (him)، (her)، (hit) بدلا من (him)، (her)، (it)[284]؟ والحق أنها قد كانت كذلك في الإنجليزية سابقا. ولكن (hit) كانت هي الوحيدة من بين الكلمات الثلاث التي كان فيها النطق السريع على صوت (h) شديدا

(284) هذه الضمائر تدل على الغائب المفرد في موضع المفعول، فـ (him) للمذكر، و(her) للمؤنث و(it) للمحايد، ويقول المؤلف أن الأخير لو كان (hit) لكان أشبه.

على مدى أحقاب متطاولة فأدى إلى تآكلها[285]. أما (h) في (him) و(her) فقد تشبثت، رغم أننا في الحقيقة نقول (ʻim) و(ʻer) بنفس القدر الذي ننطق به (him) و(her)، إن لم يكن أكثر. وأيا يكن، فإن الإنجليزية الحديثة تساوي بين هذه الكلمات في الحديث السريع، حيث يُنْطق هذا الثلاثي الصغير على هذا النحو: (ʻim) و(ʻer) و(it).

وأما القصة الوورفية لـ «it» فتستدعي الإساءة إلى الصينية مرة أخرى. فالضمائر في كثير من اللغات اختيارية للغاية حينما يكون من الممكن أن يتولى السياق المهمة - لدرجة أن متحدث الإنجليزية قد يتساءل كيف يمكن أن يحدث التواصل. ففي الصينية، إن سألك شخص: «How'd you like the movie?/ كيف وجدت الفيلم؟»، فإنه يمكن، بل على الأرجح، أنك سترد: «Didn›t like/ لم أحب» بدلا من: «I didn›t like it/ لم أحبه»[286]. واليابانية وكثير من لغات جنوب شرق آسيا مشابهة لذلك، ومثلها ما لا حصر له

---

(285) تحدث المؤلف سابقا عن بِلى الألفاظ وتآكلها حينما ذكر أن أداة التعريف (the) ناشئة عن تآكل اسم الإشارة (that)، وللاطلاع على أمثلة مشابهة لذلك في العربية ولهجاتها، انظر: التطور اللغوي، لرمضان عبدالتواب ص135-144.

(286) لاحظ أن العربية مخالفة للإنجليزية هنا، فالعربية تجيز (بل توجب) حذف ضمير الفاعل في مثل هذا الموضع، في حين أن الإنجليزية لا تجيز ذلك مطلقا، وأما الصينية بحسب كلام المؤلف فتجيز إسقاط الضمائر كلها: الفاعل والمفعول في مثل هذا الموضع.

من اللغات في أنحاء العالم. فاللغات الأوروبية كالإنجليزية أكثر تزمتا فحسب إزاء وضع الضمير في مكانه.

هل يعني ذلك أن مراهقنا لديه حساسية تجاه «من الذي يفعل ماذا بمن» أكبر مما لدى شخص صيني؟ وفي تقرير ذلك لا بد أن نعلم أيضا أنه توجد لغات لكي تقول فيها: «I met John/ أنا قابلت جون»، لا بد أن تضيف ضمير (him/ـه) الزائد أيضا، فتقول: «I met-him John/ أنا قابلتـه جون». فهل رجل القبيلة الأفريقي الذي يتكلم لغة مثل هذه أكثر إدراكا لـ «من الذي يفعل ماذا بمن» من صبي أسود في جيرسي ستي؟

ولعل مجموعة ابن القبيلة الاجتماعية الصغيرة والحميمة هي التي تؤدي إلى مثل هذا الوعي؟ ولكن ماذا بشأن مجموعات صغيرة بنفس القدر في جميع أنحاء العالم بيد أن لغاتها من النوع الذي لا يتعين عليك فيه أن تفصح عن الضمائر؟ وإليك مثال عشوائي: فمن بين 2,500 ممن يتحدثون لغة مانامبو في بابوا نيو غينيا، قد يُسْمَع شخص يريد أن يقول: «If you feel like peeing, wake me up/ إن شعرتَ برغبة في التبول، أيقظني»، فيقولها كالتالي: «Feel like peeing, wake/ شعر برغبة في التبول/ أيقظ». فلا يوجد على أية حال سبب لأن يعتقد أحدٌ أن الشخص كان يشير إلى رغبة أحد الجيران في التبول، وأقل من ذلك إفادةً أن يُوقَظ من أجل شأن يتعلق به هو نفسه[287].

---

(287) المقصود هو أنه رغم أن متحدثي هذه اللغة لا يفصحون عن الضمائر =

إن الفكر ليس هو القضية هنا. فاللغة تتباين تباينا واسعا بما ينفرج للأنواع نفسها من الأفكار من مجموعة لأخرى.

Too fast/ بعجلة.

سينتهز اللسانيون والوورفيون، الذين ربما تتشكل أفكارهم على نحو مختلف، أشياء مختلفة هنا.

فاللساني ينظر إلى كلمة (fast) على نحو يشبه النظرة إلى الريش. فالريش يساعد اليوم الطيور على الطيران. وقد بدأ كمادة عازلة وحِلْية على الديناصورات، فصار الريش عند بعضها مساعدا على الانسياب، شيئا فشيئا عبر ملايين السنين، إلى أن أصبح ما بدأ زغبا على جلد «أنيق الفك»[288]، ريشا باهرا من ناحية الديناميكا الهوائية على جسم النسر.

وكلمة (fast) كذلك تمثل المرحلة الأخيرة من عملية بدأت في موضع مختلف تماما. فالكلمة الدالة على (fast) في الإنجليزية القديمة هي (snel)، مثلما أنها في الألمانية لا تزال كذلك (schnell). وكانت (fast) موجودة، ولكن معناها هو ثابت، ومشدود، كما هو موجود في معنى لا تزال تحمله على نحو هامشي في نحو

=في كلامهم، فإن المقصود واضح من السياق.

(288) أنيق الفك أحد أنواع الديناصورات، واسمه العلمي هو كومبسوغناثوس/ Compsognathus وهو من آكلات اللحوم، يسير على قدمين، ويبلغ حجمه حجم الديك الرومي، وكان موجودا في العصر الجوراسي قبل 150 مليون سنة بحسب ما يقال.

قولنا: «hold it fast/ امسكه بثبات»[289]. بيد أنه يمكن للمرء أن يقول بحسب هذا المعنى الأصلي: «run fast/ اركض بثبات»، بمعنى الركض بتشدد، ونشاط، مع الاستمرار في ذلك. وأن تركض بهذه الطريقة يعني بالطبيعة أن تركض بسرعة، وبمرور الوقت أصبح ذلك هو التعريف الأساسي لكلمة (fast). واليوم يتوارى المعنى الأصلي في الهوامش، في كلمات مثل: «steadfast/ وطيد»، وتعبيرات مثل: «stuck fast/ نَشِب»، و«fast asleep/ يغط في سبات عميق»، وهو ما إذا فكرت فيه سيكون سخيفا نوعا ما إن كانت (fast) تعني بسرعة - فقلما يعدو النائمون. فعبارة (Fast asleep) تصيخ إلى زمن كانت فيه (fast) تعني ثابت، ووثيق، وهو ما يصف الكيفية التي ينام بها قليل منا (ولست من بينهم للأسف).

ومعظم الكلمات في كل لغة لها تاريخ مشابه لذلك، إذ تبدأ متميزة نوعا ما عما نعرفها به، وتصل إلى وضعها الحالي من خلال تطور تدريجي لاستنباطات قل من يكون على وعي بها إبان المدى الزمني لجيل معين. فكلمة (Quaint) بدأت أولا بمعنى «ماكر/ clever» و«داهية/ crafty»، وبشيء من التوسع المجازي، متأنق/ fashionable - ولاحظ المعنى المتبقي الذي ما زلنا نشير به إلى الشخص الذي يرتدي زيا على الموضة بأنه: smart. واستمر التوسع على مدى السنوات: فاكتسبت الدلالة الإيحائية لـ «متأنق»

(289) وإلى هذا المعنى يعود الفعل (fasten) في العبارة المتكررة جدا (fasten your seatbelt/ اربط حزام الأمان).

صبغة سلبية، وغُمِرت بمعنى «منمق/ elaborate» و«متكلف/ affected». وبمرور الوقت، انجرف التوسع في اتجاه أكثر تقوسا من «متكلف» إلى المعنى الحديث لـ «quiant» عندنا، وهو: غريب بشكل جذاب بحسب موضة قديمة. و(fast) حالة من هذا النوع، وربما هي نفسها تكون غريبة وفقا لموضة قديمة.

أما الوجبة المحتملة في عبارة (too fast) لمن يتبنى الوورفية فستكون كلمة (too). وهي للعلم كليمة صغيرة أكثر غرابة مما نتمعن فيها غالبا. فلو سُئِلت: ما تقول في معنى (too)؟ فإنك قد تتفاجأ لكثرة ما يمكنك قوله. هل سبق أن تعلمت لغة توجد فيها كلمة تشير إلى كل من الإضافة (me, too/ أنا أيضا)، والإفراط (too hot/ حار جدا)؟، فالمعنى الأول يعبر عنه في الفرنسية بكلمة (aussi)، ولكن الثاني يعبر عنه بكلمة (trop)، والكلمة الأولى في الألمانية هي (auch)، ولكن الثانية هي (zu)، وفي اليابانية الكلمة الأولى هي (mo)، ولكن الثانية هي (ammari)[290]. ويضاف إلى ذلك أن (too) لها معنى استبدالي خاص. فأنت في الفرنسية تنكر النفي بـ «si» وليس بـ «oui»، [كما في الحوار التالي]:

غليوم: Tu n»as pas payé! (أنت لم تدفعي)

(290) وكذلك الأمر في العربية كما يتضح من الترجمة فالمعنى الأول يعبرِ عنه بكلمة (أيضا)، ولكن لا يوجد كلمة واحدة تعبرِ عن المعنى الثاني بدقة، فقد يعبر عنه بكلمة (جدا)، و(أكثر من اللازم)، و(فوق الحد) ونحو ذلك من التعبيرات التي تدل على تجاوز الحد المناسب.

إيزابيلا: !Si, j»ai payé (بلى دفعت)

والألمانية تفعل الشيء نفسه بـ (Doch)، وربما يتمنى متحدث الإنجليزية أن لدينا الشيء نفسه - ولدينا ذلك، [كما في الحوار التالي]:

غريغ: You didn't do it (أنتِ لم تفعليها)

لورا: !I did too (بلى، فعلت)[291].

ويمكن للمرء أن ينظر إلى هذه المعاني الثلاثة لـ (too) كبقعة من اللُطخ الصغيرة العجيبة. فلا يعلم المرء المعاني المترابطة التي ستنتهي كلمة واحدة لتشملها لأسباب كثيرة. ولكن هذا النوع من الأشياء بالنسبة إلى لي بنيامين وورف يقع ضمن باب «الأنماط المخبوءة» التي نظر إليها باعتبارها قنوات تشكل اللغةُ الفكرَ من خلالها. ومن أمثلته أنه توجد كلمة واحدة في لغة هوبي، وهي (masa'ytaka)، تستخدم لكل الأشياء التي تطير، ما عدا الطيور: كالحشرات، والطائرات، والطيّارين. وهناك أيضا كلمة مختلفة للماء الموجود في الطبيعة في مقابل الماء الذي تشربه وتطبخ به. ويشير ذلك عند وورف إلى أن لغة هوبي تؤدي بأهلها إلى معالجة العالم بطرق لا تؤدي إليها لغة ليس فيها هذه التكوّنات الخاصة.

إن الوورفيين المحدَثين صرحاء في رد الادعاءات الأكثر تطرفا في كتابات وورف. ولكن ذلك مجرد تحرّز، أما التوجه الأساسي

(291) ومثلها كلمة (بلى) في العربية التي تستخدم بمعنى الإيجاب في الرد على سؤال متضمن للنفي.

فيظل هو نفسه. ولا أحد يدّعي اليوم أن اللغات تمنع متحدثيها من التفكير بطرق معينة، أو أنها تجعل التفكير بطرق معينة فرضا، بل ما يراد التحقيق فيه هو ما إذا كانت اللغات تجعل التفكير بطريقة معينة أكثر رجحانا. بيد أن هذا الرجحان لا يزال يعامل باعتباره موضع جدل، وبذا فإن تصنيف لغة هوبي للأشياء الطائرة، أو للماء، مشابه للعمل المتعلق مثلا بالكلمات الروسية المستخدمة للدلالة على الأزرق. وأتباع وورف خارج الأكاديميا على وجه الخصوص من عادتهم علاوة على ذلك قراءة الامتدادات الدلالية للكلمات باعتبارها مؤشرا على «رؤية للعالم». فالإشارات إلى كلمة (masa'ytaka) في لغة هوبي منتشرة جدا وراسخة منذ عقود متطاولة. ويرى مارك أبلي من ناحية أخرى أن الفرنسية تقسم المعرفة بين كلمتي (savoir) التي تستخدم للمعطيات، و(connaître) التي تستخدم للأشخاص[292]، ويفترض أن «هذه التمييزات بالنسبة لمتحدث الفرنسية مِركزية فيما يتعلق بكيفية تفاعل الذهن مع العالم».

(292) (savoir) و(connaître) كلمتان في اللغة الفرنسية. وكلتاهما بمعنى (يعرف)، ولكن الأولى تستخدم حينما يكون الشيء المعروف من قبيل المعطيات أو الوقائع، والأخرى تستخدم حينما يكون المعروف شخصا أو علما. وهذا يشبه تفريق الألمانية - الذي ذكرناه سابقا - بين كلمتي (es-sen) و(fressen) وكلاهما بمعنى (أكل)، ولكن الأولى تستخدم حينما يسند فعل الأكل لإنسان، والثانية تستخدم حينما يسند لحيوان. ويوجد من يستنتج من ذلك أفكارا تشبه ما ذكره المؤلف أعلاه.

ومن ثم فإن (too) تؤدي إلى سؤال. لنقل إن كلمة (masa'ytaka) تعني أن الناس يعالجون الطيران باعتباره سمة حيوية خاصة تميز بين الأشياء المتحركة، وأن للغات الأوروبية بكلمتيها المنفصلتين لمعرفة الناس في مقابل معرفة الأشياء معالم من الدراية تفتقر لها اللغات الأخرى. إذا كان الأمر كذلك، فعندما تعني كلمةٌ ما «أيضا» و«بشكل مفرط» و«بلى فعلت»، فما نوع التفاعل مع العالم الذي تفرضه؟

ألا يمكن أن يكون الجواب هو أن الأشياء التي تشملها (too) ذات صلة وثيقة فيما بينها من الناحية المجردة بحيث تؤدي إلى طريقة معينة في التفكير. فهناك خطوة قصيرة على أية حال بين الإضافة (me, too/ أنا أيضا) والتعبير عن الزيادة المفرطة (too much/ كثير جدا)، وبين الإضافة وتفنيد النفي بإرداف الحقيقة (I did too/ بلى فعلت). إذن: هل لدى متحدثي الإنجليزية حساسية متفردة لمفهوم الإضافة (me, too/ أنا أيضا)، باعتباره شيئا من قبيل الإمعان المحتمل (too much/ كثير جدا)، ولكنه مفيد أيضا في إلحاق الاعتراضات بالمحادثة (I did too/ بلى فعلت)؟ لن يتردد كثيرون في مثل هذا الادعاء لو أنه قد ادّعي بشأن شخص يتكلم لغة هوبي، في مقابل محام في سان فرانسيسكو[293]، ولا بد أن يقر المرء بأن هذا الادعاء ليس أكثر تجريدا من فكرة أن كون المرء فرنسيا يعني أنه يميّز بعناية بين معرفة شخص ما، ومعرفة معطى معين.

(293) المحامي في فرانسيسكو كناية عمن يتكلم الإنجليزية على عادة المؤلف في استعمال مثل هذه الكنايات.

ومع ذلك لنفترض في النهاية أنه يمكن أن يبين في تجربة أن لدى مراهقنا الأسود في جيرسي سيتي خُصْيلة معينة من الاستعداد للربط بين الإضافة، والإفراط، والإنكار - بأن يكون بأجزاء قليلة من الثانية أكثر تيقظا لهذا المنحنى العرفاني الغريب من شخص في سيئول. ففي المخطط الكبير للأشياء، بالنسبة لكل ما يمكن أن نكون مهتمين به بشأن الكيفية التي يفكر بها المراهقون الأمريكان، سود أم غيرهم، أو الكيفية التي يفكر بها كل أمريكي في كل عمر، أو الكيفية التي يفكر بها متحدثو الإنجليزية في جميع أنحاء العالم، ما الذي يمكن أن يزودنا به هذا الاكتشاف الصغير بشأن (too) عن القضايا الإنسانية، أو السياسية، أو المجتمعية، أو الفنية، أو التعليمية، أو الطبية، أو حتى النفسية؟

خصيتا أبو الشص والمستقبل

وكلمة (I'm-a) في إنجليزية السود دوامة صغيرة رائعة لشيء ما، حيث تكتلت عبارة (I am going to) لتشكل كلمة واحدة في الأساس. وتخيل شخصا فضائيا كُلِّفَ بفهم الإنجليزية واتفق له أن التقى بإنجليزية السود أولا، في حين أنه لا يتعلم إلا بالسماع، ويحاول أن يكتشف ما يعنيه أناس بكلمة (I'm-a) - التي تُنْطق (Ah-muh) - في حين يستخدم أناسٌ غيرهم (will) و(gonna) في الإشارة إلى المستقبل. و(I»m-a) لها خصوصية، فليست حالة عشوائية من جريان الكلمات معا. فلا أحد يقول (youra) في (you are going to) أو (theya) في (they are going to). ولكي ينجح الشخص الفضائي بمهمته عليه أن يكتشف بأن (I'm-a) هي بشكل غريب

تعبير محدد جدا للدلالة على بناء المستقبل للمتكلم المفرد. وذلك من قبيل الأشياء التي غالبا ما يغلط فيها المرء لو كان ثمة امتحان في لغة «إيبونكس»(294).

فهي واحدة من تلك العُجَر المتكومة التي يمكن أن تُحدثها اللغات، فكأنها فيما يبدو تتحدى عمدا تقريبا أولئك الذين يميلون إلى محاولة حلها. ومن أمثلة ذلك التعبير الفرنسي (Qu'est-ce que c'est?) بمعنى «ماذا؟». فنحن يمكننا أن نقسم التعبير على أنه يتكون «que»، و«est»، و«ce» و«que»، و«ce» مرة أخرى، ثم «est» مرة أخرى - ونظل حائرين لماذا تتضمن الفرنسية كل ذلك لسؤال: «ما هـذا؟»(295).

(294) ما يريد قوله المؤلف هنا هو أن (I'm-a) ينطبق عليها ما ذكره سابقا عن «بلى الألفاظ» لأنها اختصار لعبارة (I am going to) التي تحدث عنها المؤلف سابقا، وبين أنها هي ذاتها تعبير حادث وغريب. وقد بينا فيما سبق أن استعمال «going to» يشبه استعمال كلمة «راح» أو «رايح» في بعض اللهجات العربية للدلالة على المستقبل أيضا. وقد لحق كلمة «رايح» بلى الألفاظ أيضا، فلم يبق منها سوى صوت الحاء الدال على المستقبل في مثل عبارة «حأعمل كذا». وتشبهها كذلك الباء الدالة على المستقبل في لهجة أخرى في مثل «بيروح». ومثلهما في العربية الفصيحة حرف السين الدالة على الاستقبال، لأنها اختصار لكلمة «سوف».

(295) كلمة «لماذا» في العربية - رغم ما يبدو من بساطتها - من هذه العجر المتكومة التي يتحدث عنها المؤلف، فهي تتكون في الأصل من حرف الجر (اللام)، و(ما) الاستفهامية، واسم الإشارة (ذا)، ولكنها في الاستعمال بمثابة كلمة واحدة تدل على الاستفهام. وقول المؤلف (تتحدى عمدا =

وجزئية (a-) وحدها في عبارة (I'm-a) مدهشة حينما نراعي أنها لم تكن في البداية كلمة واحدة، بل كلمتين: «going to». فتآكلت (Going to) إلى (gonna) ثم (onna«)، ثم أخيرا (a) فقط، على نحو يبلغ في اختلافه عن سلفها الأول مبلغ اختلاف كلمة (août)[296] الفرنسية، التي تنطق (oo) فقط، عن مصدرها اللاتيني (augustus). إن (a-) في (I'm-a) هو الشبيه اللساني بذكر أبو الشص، صغير الحجم مقارنة بالأنثى، والذي تتكون دورة حياته من الامتصاص من رأس الأنثى، فيذوي تدريجيا وباستمرار كالبثرة الفانية، حتى لا يبقى شيء سوى خصيتيه، اللتين يتم امتصاص حيواناتهما المنوية في مجرى دم الأنثى لتخصيب بيضها[297]. فـ (a-) في (I'm-a) عالقة في جبين (I'm)، وتخصبها بمعنى المستقبل.

ثم إن جزئية (-m-) في (I'm-a) قطعة من (am)، وهي ذاتها جزء من المجموعة الإنجليزية ذات التنوع الغريب من صيغ الفعل (be). وعدم الانتظام موجود في اللغات، ولكن وجود «am»، و«are»، و«is»، و«be»، و«been»، و«was»، و«were»

=الذي يميلون إلى محاولة حلّها) يذكّرنا بكلمة (حبّذا) واختلاف النحاة الطويل في تحديد نوعها وإعرابها، وهي كلمة واحدة مركبة من (حب) و(ذا)، واشتقوا منها فعلا فقالوا (يحبّذ).

(296) كلمة فرنسية بمعنى «أغسطس»، وهو الشهر المعروف.

(297) أبو الشص من أنواع الأسماك التي تعيش في أعماق المحيطات، ولها سلوك غريب جدا في التكاثر ذكره المؤلف.

أشبه بكارثة[298]. فهذا الوضع الحالي نثار ناتج عما كان في الأصل لا يقل عن ثلاثة أفعال مختلفة اندمجت معا، وهي: (beon)، (weson)، (aron)[299]. وتميل المحلات التي تخضع للبِلى من كثرة الاستعمال على وجه خاص في أي لغة لأن تكون فوضوية - فالعادة تزدري المنطق. إن أفعال (be) تستخدم كثيرا، ولذا فإنها - كالجموع غير المنتظمة من شاكلة (man) و(men) - ليست في العادة أماكن للبحث عن النظام. وبذا فإن (-m-) في (I'm-a) و(be) في (be eatin») اللذين استخدمهما صبي جيرسي سيتي قطعتان من تكدّس مكون من ثلاثة أفعال أدخله رجال القبائل الجرمانية في الإنجليزية المبكرة قبل ألفي عام.

* * *

ولا تنس من ناحية أخرى أن استعمال مراهقنا لوسم المستقبل سيجعل توفيره للمال أقل احتمالا بحسب التصور الوورفي[300].

(298) الفعل «be» هو فعل الكينونة أو الكون المطلق وهو في الإنجليزية أكثر الأفعال شيوعا وشذوذا في نفس الوقت، فله ثمانية أشكال مختلفة وهي السبعة التي ذكرها المؤلف، بالإضافة إلى «being». ويختلف استعمالها بحسب وجوه التصريف المختلفة من ناحية الشخص، والزمن، والمظهر، والجهة. وتفصيل يطول جدا في نحو اللغة الإنجليزية.

(299) ما يقصده المؤلف أن فعل الكينونة في الإنجليزية المعاصرة بتصريفاته المختلفة ناتج عن ثلاثة أفعال أصلية مختلفة اندمجت معا في مراحل مختلفة من تاريخ الإنجليزية.

(300) يشير المؤلف هنا إلى ما ناقشه في الفصل السابق من ادعاءات تربط بين وسم المستقبل في اللغات، والادخار لدى متكلميها.

ومع اقترابنا من نهاية الجملة، فإن الرسالة تظل ثابتة كما هي: الناس متشابهون في تفكيرهم، واللغات هي التي تختلف.

فهل كون الولد يملك كلمة لـ (أكل) منفصلة عن الكلمة الدالة على (شرب) يعني أنه يحب الطعام أكثر من رجال القبائل الذين لديهم كلمة واحدة لكليهما؟ قد يكون من الصعب أن نقول ذلك، حيث قد بدا في وقت سابق من الجملة أن امتلاك كلمة عامة لـ (طبخ) يوحي بأنه على العكس من ذلك أقل علاقة بالطعام من «هايغر الرهيب»[301].

وعندما يقول مراهقنا «some pink meat/ بعضا من لحم وردي»، فإن «some/ بعض» لا تعني «شيئا قليلا»، بل تعني امتدادا لذلك المعنى، يوحي باستحقار جودته، فهي للتقييم الدال على الاستهجان. ولكل اللغات طريقة في نقل هذه النكهة. فاليابانية ستنقل الموقف نفسه تجاه «اللحم الوردي»، مثلا، بتشكيلة من الكلمات مثل « nante» و«nado». وفي لغة كلامث[302] الأمريكية الأصلية في شمال غرب المحيط الهادي توجد سابقة صرفية تؤدي ذلك[303].

---

(301) هايغر الرهيب/ Hagar the Horrible شخصية كرتونية ترمز إلى قبائل الفايكنغ الاسكندنافية، ومقصد المؤلف هو العصور القديمة التي لم يكن فيها في الإنجليزية كلمة واحدة عامة لدلالة على «الطبخ» بمختلف أنواعه، كما ناقش سابقا.

(302) لغة كلاماث/ Klamath من لغات السكان الأصليين في أمريكا الشمالية المنقرضة، وقد توفي آخر شخص من الناطقين الأصليين بهذه اللغة عام 2003م.

(303) لا يوجد في العربية سابقة صرفية لهذا المعنى. ولكن ربما يكون من هذا=

فثمة دائما شيء يؤدي المعنى.

ثم، كثير من اللغات غير المكتوبة تحتوي على كلمات لعدد قليل من الألوان فقط، وبالتأكيد فإن (pink/ الوردي) ليس واحدا منها. ولقد اكتشف اللسانيان الإناسيان برنت برلين وبول كاي في عقد الستينيات في جامعة كولومبيا بيركلي أن مصطلحات الألوان تظهر في اللغات مرتبة بترتيب تقريبي. فبعد الأسود والأبيض يأتي الأحمر، ثم الأخضر والأصفر، ثم الأزرق، ثم البني، وبعدها فقط البنفسجي، والبني، والبرتقالي، والرمادي. أي أنه لا يوجد في شيء من اللغات كلمات للأسود والأبيض والوردي فقط، ولا حتى للأسود والأبيض والأخضر فقط(304).

=القبيل تخصيص صيغة «فُعالة» بضم الفاء للكلمات التي تدل على بقية الأشياء، وتحمل في كثير من الأحيان معنى التنقص، مثل «حُثالة، ولُماظة، وصُبابة، وقُلامة» ونحوها. وللاطلاع على كثير من الكلمات الدالة على هذا المعنى في العربية قديما يمكن الرجوع إلى كتيب طريف بعنوان «المعجم في بقية الأشياء» لأبي هلال العسكري.

(304) المقصود هنا أن كلمات الألوان لا تظهر بطريقة عشوائية في اللغات، بل يتبع ظهور كلمات الألوان في اللغات ترتيبا ثابتا نوعا ما يبدأ بالأسود والأبيض ثم ما يليه بحسب ما ذكر المؤلف. ولا يمكن أن توجد لغة يوجد فيها اسم للأخضر مثلا، من دون أن يكون فيها اسم للأحمر. وتختلف اللغات في عدد الكلمات التي تملكها للألوان ولكنها لا تختلف بخصوص هذا الترتيب. وللاطلاع على ملخص عن نتائج البحث في اللغة والألوان، انظر كتاب «اللغة واللون» لأحمد مختار عمر، لا سيما ص27، ولقد تتبع غاي دويتشر في كتابه «عبر منظار اللغة» قصة البحث في هذا الميدان وما مر به من تطورات ومراحل حتى وصل إلى المرحلة الأخيرة التي تمثلها نتائج أبحاث برنت برلين وبول كاي. وبعض ألفاظ=

وفي ضوء هذا، قد لوحظ أن هوميروس كان يقذف باستعمالات غريبة للألوان، كالإحالات ليس فقط إلى «البحار الخمرية الداكنة»، بل إلى «الثيران الخمرية الداكنة»، و«العسل الأخضر»، و«الشعر الأزرق»[305]. وكان ثمة إغراء مبكر لعزو ذلك لعمى هوميروس المزعوم، ولكن اليونان المبصرين كانوا ميالين لمثل تلك الغرائب، كدموع يوربيديس الخضراء[306]. هل علينا حقا أن نفترض بأن هؤلاء الفنانين شديدي الحساسية لم يكونوا يرون الألوان كما نراها؟

ولقد أفشى الفيلسوف إمبدوقليس[307] السر دونما قصد حينما

=الألوان المذكورة أعلاه مستحدثة في العربية، ولم يكن لها وجود في العصور السابقة. وقد أشرنا في تعليق سابق إلى كتاب «الملمع» لأبي عبدالله النمري (ت 385هـ) المخصص لألفاظ الألوان وتعبيراتها في العربية قديما. ومن الطريف أنه قد نص فيه على الألوان النواصع خمسة البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة، وهو ترتيب يشبه الترتيب الكلي المكتشف حديثا لأسماء الألوان في اللغات المختلفة!

(305) هوميروس شاعر يوناني مشهور، وقد تتبع بشكل موسع غاي دويتشر في كتابه «عبر منظار اللغة» المسائل المتعلقة باستعمالاته الغريبة للألوان وتطورات البحث في هذا الموضوع.

(306) يوربيديس (480-406 ق.م) من المسرحيين اليونان المشهورين، وقد ترجم عدد من مسرحياته إلى العربية. والمقصود هنا فيما يظهر أنه قد وصف الدموع في إحدى مسرحياته بأنها خضراء.

(307) إمبدوقليس (490-430) فيلسوف يوناني سابق لسقراط، وهو من أوائل من تحدثوا عن الإدراك، ومن ضمنه الإدراك الحسي، وفي سياق ذلك تحدث عن الألوان. ومن الكتب اليونانية التي ترجمت إلى العربية قديما كتاب «سر الخليقة وصنعة الطبيعية» المنسوب لبلينوس الحكيم، وهو مطبوع بتحقيق أورسولا واير، ضمن منشورات جامعة حلب. =

قسم الألوان فيما يمكن أن نعدّه لوحة بديلة على نحو غريب للألوان: فاتح، وغامق، وأحمر، وأصفر. وهذا هو بالضبط ما تنبأ به مخطط برلين وكاي عن مجتمع لم يقم بعد بتطوير مجموعة متكاثرة من المصطلحات المتعارف عليها للألوان: أسود، وأبيض، وأحمر، ثم أصفر أو أخضر.

ولكن الفكر الوورفي، بما توصل إليه من نتائج عن الأزرقين الروسيين، يعلمنا أن نتساءل عما إذا كان اليونانيون القدماء، ومثلهم الشعوب ذات المصطلحات القليلة للألوان اليوم، يرون الألوان حقا بطريقة مختلفة عما نراها به. فهل يرى ولد جيرسي سيتي طيور الفلامنغو[308] وأزهار الكرز الوردية باعتبارها ليست حمراء على نحو أكثر تميزا مما كان يستطيعه هوميروس وإمبدوقليس؟ ولكن، مثلما أنه من الصعب رؤية أن فرقا يبلغ 124 مللي - ثانية يدل على طريقة مختلفة في رؤية العالم، فإنه من الصعب تخيل أن ولدنا في جيرسي سيتي كان يتخيل أن ذلك اللحم الوردي الذي كان يتحدث عنه «أكثر وردية» مما كان يدرك به الإنجليز القدماء مثلا اللحم غير النضيج، رغم أنهم أيضا لم يكن لديهم حينئذ كلمة تدل على «الوردي».

=وفيه حديث عن الألوان يشبه ما ينسب إلى إمبدوقليس، كما يشبه من بعض الوجوه كلام أبي عبدالله النمري الذي ذكرناه آنفا عن أصول الألوان.

(308) الفلامنغو أو النحام طائر وردي اللون، له ساقان طويلان وعنق طويلة، ويعيش على مقربة من السواحل.

لا يوجد شيء واحد، وقد وصلنا نهاية جملتنا، يبدو قادرا على أن يخبرنا بالكثير عن الكيفية التي يفكر بها المتحدث. وبالنسبة لكلمة «meat/ لحم»، فإننا قد نجرب طريقة «النمط المخبوء» مرة أخرى: فكثير من اللغات الأفريقية لديها الكلمة نفسها للدلالة على «الحيوان» و«لحمه» معا. فربما يظن المرء لأول وهلة أنهم أناس يشيرون إلى «لحوم» تتجول في أنحاء السافانا، ولكن الأصح هو أن هؤلاء الناس يرون أنهم يأكلون «حيوانا». فلا يفرقون تفريقنا المتزمت بين الكائنات الحية، وأجزائها التي تستقر في صحوننا[309].

فهل في هذا علامة على أن الغربي قد بَعُد عن الواقع البسيط المتعلق بكون ذبح البهائم لازم لمتعة الطهي لدينا؟ وغالبا ما يقال للمرء ذلك، حيث أن الإنجليزية قد ورثت التمييزات الفرنسية التلطيفية مثل كلمة «beef» للدلالة على لحم البقر المأكول، وكلمة «pork» للدلالة على لحم الخنزير المأكول. وإن أردت الحقيقة فإن هذا قد يكون من قبيل تشكيل الثقافة للفكر، وليس العكس - ولكن يوجد دائما سؤال البيضة والدجاجة، بالإضافة إلى التكهن بأن الأمر قد «يصح فيه الوجهان».

(309) يشير المؤلف إلى التفريق الموجود في الإنجليزية بين كلمات تسمي الحيوان ما دام حيا مثل «pig» للخنزير، و«cow» للبقرة، وأخرى تسميه باعتباره شيئا مأكولا مثل «pork» و«beef» لهما على التوالي. ولا يوجد مثل هذا التفريق في كثير من اللغات، ومنها العربية. وهذا ينطبق أيضا، وإن لم يذكره المؤلف، على تفريق الإنجليزية بين كلمتي «flesh» للحم الذي في الجسد للإنسان وغيره، و«meat» للحم الذي يؤكل. ولا وجود لمثل هذا التفريق في العربية.

بيد أننا كيفما كانت مقاربتنا للموضوع، فإننا سنجد بيانات لا تلائمها حينما نتجاوز فرنسا وأفريقيا. فالمجموعات البشرية عموما لا تستعمل الكلمة نفسها للحيوان ولحمه. بل الأكثر شيوعا هو أن يكون لدى البشر من جميع الأنواع المجتمعية كلمة للحم الحيوان على نحو متميز عن الحيوان حينما يكون حيا. بل حتى الإنجليزية القديمة فيها هذا التمييز الأساسي بين البهائم واللحوم، على الرغم من كون ألفة متحدثيها لذبح الحيوان في العادة أكثر من ألفة أي شخص في جيرسي سيتي! فالأفارقة المعنيون هم بالأحرى من لم يتفق أن تبقى لديهم تلك الفقاعة الخاصة، تماما مثلما أنه لم يتفق لنا في الإنجليزية أن نجعل معرفة الأشخاص ومعرفة الأشياء أمرين منفصلين.

ما المهم؟

Dey try to cook it too fast, I'm-a be eatin' some) pink meat!). هذا ما قاله الصبي. وكان يعبر عن فكر. ومحاولة وورفنة[310] ذلك لم تنجح بكل بساطة. فلا يمكن التعرف بشكل علمي على عنصر واحد في كلام هذا الصبي باعتباره مميزا لكيفية تفكيره عن الكيفية التي يفكر بها نظيره المنغولي أو البيروفي.

والاعتراض بأن مقاربتي في هذا الفصل تسخر من الوورفية قد يُورد وإن كان غير وارد. فمن الصعب القول بأن الجملة التي استعملتها لا تمثل الإنجليزية، أو الفكر العادي. فهي، بما قد يكون فيها من

(310) كلمة على صيغة «فعلنة» مشتقة من «وورف».

العفوية، بل من الفكاهة، إنجليزيةٌ، بسيطةٌ وخالصةٌ، ومفعمة تماما بأنواع الفصائل الدلالية والنحوية التي فتنت الوورفيين منذ وقت إدارة روزفلت(311). فالوضع الافتراضي، والزمن النحوي، ومصطلحات الألوان، وتصنيف الأشياء - كلها موجودة. فيا ترى هل كانت الوورفية ستبدو بالحدس أكثر قابلية للتطبيق على الجملة نفسها المتعلقة باللحم الوردي لو كان الذي نطقها فلاح في هضاب فيتنام؟ لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك: فمن المؤكد أنه لا يلزم أن يكون المرء من جنوب شرق آسيا، أو أمريكيا أصليا، أو أمازونيا لكي يكون لديه «رؤية للعالم». أي أن ولدنا في جيرسي سيتي إنسان بالتأكيد، له أفكار ولغة من المحتمل أنها تشكله.

ولكننا رأينا أنه من غير الوارد أن طريقته الخاصة في معايشة الحياة تتحدد بحسب القنوات التي اتفق أن تسلكها لغته. ولا بد أن أكرر: يمكن أن نفترض أن للإنجليزية تأثيرات ضئيلة على تفكيره، وتوجد على ذلك بيانات مستقاة من التجارب الوورفية الجيدة، كما أقررت في الفصل الأول. غير أن اهتمامي متعلق بالمقتضى المستخلص من هذا العمل، سواء من قبل الكتاب المهتمين بهذا الموضوع أو من قبل الباحثين أنفسهم، بأن هذه الفروق الإدراكية تبلغ حدا مهما يمثل مناحي مختلفة في تجربة الوجود.

---

(311) فرانكلين روزفلت تولى إدارة الولايات المتحدة منذ عام 1933م حتى عام 1945م، والمقصود هنا هو منذ بدء الفرضية الوورفية لأنها قد بدأت آنذاك.

وقد يسأل المرء بحق: «من الذي يقرر ما هو مهم؟». بيد أنه لا بد أن يكون واضحا أنه إن كانت الإنجليزية، على سبيل المثال، تهيئ رؤية للعالم، فيجب إذن أن تكون تلك الرؤية شاملة للأطر المرجعية لصبي جيرسي سيتي، وماري تايلر مور، ومارغريت تشو، وويليام جيننغز برايان، وستينغ[312]. فما المهم؟ حسنا، أليس المهم هو ما يوحد طريقة هؤلاء الخمسة في رؤية الحياة، وأظن أن الغالبية قد يوافقون. ومن الواضح أن هذه رؤية للعالم تصل في عموميتها حدا يجعلها مكافئة، في أساسها، لما يجعل الإنسان إنسانا بكل بساطة.

ألا يمكن، لأي سبب كان، أن تتوقف اللغات ذات الانتشار الواسع عن تهيئة رؤية للعالم؟ إن هذا على أية حال سيؤدي تلقائيا إلى استبعاد الروسية والصينية من تجارب وورفية، لأنهما لغتان يتحدث بهما أناس ينتمون إلى مئات الثقافات المتمايزة[313]. ومهما يكن، لنتخيل فرضية

(312) ماري تايلر مور ممثلة أمريكية، ومارغريت تشو كوميدية أمريكية ذات أصول كورية، ويليام جيننغز برايان سياسي وخطيب أمريكي ترشح لرئاسة الولايات المتحدة عدة مرات، وكان في أواخر حياته من أصحاب الميول الدينية المتشددة والناشطين في محاربة نظرية التطور الداروينية وتدريسها في المدارس، وستنغ موسيقي وممثل بريطاني ذو توجهات ليبرالية.

(313) المؤلف هنا يقلّب الأمر على وجوهه المختلفة، ويردّ على اعتراضات قد يوردها بعضهم على النتيجة التي توصل لها. ومن ذلك مثلا أن يقال إن اللغات الكبيرة ليست كالصغيرة في ارتباطها بالفكر. ولكنه يرد على ذلك بأنه لا يوجد سبب يستدعي ذلك، ولو فرضنا أنه صحيح، فإن سيؤدي إلى استبعاد الصينية والروسية بطبيعة الحال مما يجعل الادعاءات =

تقول بأن لغات «الناشونال جغرافيك»[314] التي يتحدثها أناس ينتمون إلى ثقافة واحدة فقط هي التي تشكل الفكر. ولكن، لماذا لا تشكل اللغة الفكر إلا فيما بين المجموعات الصغيرة؟ وعند أي نقطة من مراحل التطور الثقافي يمكننا أن نفترض أن الوورفية تنضب؟ - وعلى أي أساس؟

ويصعب أيضا أن نفهم كيف يمكن لاستبعاد اللغات الكبيرة أن ينجح. فهل يمكن للإنجليزية التي يتحدثها شخص ما في نيو دلهي ألا تؤدي إلى رؤية للعالم ذات تكيّف إنجليزي خاص بسبب كون الإنجليزية يُتَحدث بها أيضا في سيدني وسبوكين[315]؟ ولا شك أن قاعدة الوورفية لا يمكن أن تكون: «اللغة تشكل الفكر ما لم يتكلم بها مجموعات مختلفة من الناس». فاللغة الموجودة داخل رأس شخص ما لا يمكن أن «تعرف» أنها موجودة في رؤوس أشخاص يتحدثون بها في الطرف الآخر من العالم. فمن المفترض أن تشكل اللغةُ الفكرَ في أي رأس تجد نفسها فيه.

=الوورفية بشأن مثل هذه اللغات لا معنى لها. فكلامه على سبيل الإلزام، رغم أنه بيّن أن الأمر برمّته غير وارد.

(314) الناشونال جغرافيك قناة تلفزيونية تتبع للمنظمة الجغرافية الدولية تعرض أفلام وبرامج وثائق في التاريخ والحضارة والطبيعة ونحوها من الموضوعات المعرفية والعلمية. ومقصد المؤلف من هذه الكناية هو اللغات الصغيرة والمغمورة.

(315) سبوكين مدينة في شمال غرب الولايات المتحدة، ومقصد المؤلف هنا هو بيان تباين ثقافات من يتحدثون الإنجليزية.

يظن المرء أنه إن كان ثمة شيء يشكل رؤيةً للعالم لدى ذلك الذي يتحدث الإنجليزية في نيو دلهي فهو ثقافته الخاصة، وليس الطريقة التي تعمل بها الأفعال في الإنجليزية التي يتحدثها - فهي الأفعال نفسها التي تستخدم يوميا في لندن، وشيكاغو، وجيرسي سيتي. فإن كنا نسعى إلى تحصيل شيء من المعنى الشامل في الأشياء هنا - أي أن نمارس العلم -، فإنه سيصبح من المغري أن نفترض أن الثقافة هي ما يشكل الفكر، لا لمن يتحدث الإنجليزية في نيو دلهي فحسب، بل أيضا للمتحدث بلغة مغمورة محلية. فالتحليل الذي يحيط بكل شيء، أي باللغات الصغيرة والكبيرة، هو أنّ ما يشكل رؤى العالم ما هو إلا الثقافة، وليس للطريقة التي يعمل بها النحو أي علاقة مهمة بذلك. فاللغة من الناحية العلمية إن لم تكن تشكل الفكر على نحو مهم في شوارع جيرسي سيتي، فهي لا تفعل ذلك أيضا في غابات الأمازون المطيرة.

* * *

نعم، إن أردنا أن نمارس العلم، ويتساءل المرء: هل العلم هو حجر الأساس للإغراء المخدر الذي يجده كثيرون في الوورفية؟ إن ما نظنه هو أن الهدف بكل بساطة هو الهدف التجريبي المتعلق بالتحقيق فيما إذا كانت اللغة تشكل الفكر. بيد أن العلم فيما يبدو لا يقضي بشيء أبدا فيما يتجاوز الفويرقات الدقيقة من التجارب المصطنعة للغاية. ولا تنس أن كتاب غاي دويتشر «عبر منظار

اللغة» هو، إن أردنا الدقة، سجل تاريخي لإخفاق منوال بحثي، لم يسفر إلا عن صرصرة خافتة.

ومع ذلك، فإن الإعلام يخبر عموم القراء بأن كتابه لا يحقق فيما إذا كانت اللغة تشكل الفكر بقدر ما يؤكد ذلك. وهذا ليس إلا عَرَض لتوجه عام: إذ تُوَاصل وسائلُ الإعلام بالإضافة إلى بعض الأوساط الأكاديمية إذاعةَ الفكرة القائلة بأن السؤال المتعلق بما إذا كانت كل لغة تمثل زوجا خاصا من العدسات سؤال مفتوح. إن مجرد ترقّب الوورفية يجعل الناس متحمسين كدعوة إلى العشاء.

غير أن بعض الوورفية يُتَقَبّل على نحو أفضل من بعضها الآخر. فلو أن ألفرد بلوم كتب كتابا يدّعي أن الصينية تجعل متحدثيها أكثر تبصرا في بعض الجوانب من متحدثي الإنجليزية، فربما يكون قد فاز بجائزة بوليتزر[316].

ولذلك سبب. فهو يضيء جوهر الإغراء الوورفي، ولكنه مع ذلك يتناقض مع الاستكشاف الحقيقي والمحترم للوضع الإنساني.

(316) جائزة سنوية تمنحها جامعة كولومبيا بنيويورك في عدد من المجالات الثقافية والإعلامية، ومن ضمنها جائزة أفضل كتاب.

هوامش الفصل الخامس

- إنجليزية السود والمنطق:

Carl Bereiter, Siegfried Englemann, J. Osborn, and P. A. Reidford, "An Academically Oriented Pre-school for Culturally Deprived Children," in Pre-school Education Today, edited by Fred M. Hechinger, 105–36 (Garden City, NJ: Doubleday, 1966).

- موقف جنسن:

Arthur Jensen, "How Much Can We Boost IQ and Scholastic Achievement?" Harvard Educational Review 39 (1969): 1–123.

- هم في لغة جاراوارا:

R. M. W. Dixon, The Jarawara Language of Southern Amazonia (Oxford: Oxford University Press, 2004), 77–88.

- كلام أبلي بشأن اللغات الألغونكوية:

Mark Abley, Spoken Here: Travels Among Threatened Languages (Boston: Houghton Mifflin, 2003), 276–77.

- عن لغة مانامبو:

Alexandra Y. Aikhenvald, The Manambu Language East Sepik, Papua New Guinea (Oxford: Oxford University Press, 2008), 522.

- كلام وورف عن لغة هوبي والأشياء الطائرة:

John B. Carroll, ed., Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf (Cambridge, MA: MIT Press, 1956), 210.

- أفعال المعرفة [في اللغة الفرنسية]:

Abley, Spoken Here, 48.

الفصل السادس

«احترام الإنسانية»

إن الانجذاب التائق للوورفية ليس علميا.

سيعترض على ذلك كثيرون، وباحثو الوورفية الجدد من بينهم سيكون لاعتراضهم مسوغ بارز. فلا شك أن باحثي الوورفية الجدد لديهم دوافع علمية بشأن الذهن البشري. فالسؤال الذي يطرحونه هو، بكل بساطة، ما إذا كانت اللغة تؤثر في الفكر، وهي مسألة لها استتباعات في قضايا أوسع، مثل ما إذا كانت المُكْنة اللغوية مجسدة في الدماغ على نحو منفصل عن الوظائف العرفانية الأخرى، وكالسؤال المتعلق بتحديد الجوانب اللغوية التي قد يكون لها تأثير في الفكر.

بيد أن هذا التوجه إلى المسألة، الذي جزء منه عيادي، وجزء منه فلسفي، ليس هو ما يبسط أسارير الناس فيما يتجاوز العالم الأكاديمي الصغير لعلماء النفس والإناسة الذين يُجْرون الدراسات المتشددة عن الوورفية. فلقد كان،كما أشرنا، الدافع الرئيسي للملاحظات بشأن اللغة والتفكير، حتى بين منشئي هذا المنوال، كبنيامين لي وورف، ومعلمه إدوارد سابير، وعالم الإناسة الرائد فرانز بواز، هو تبيان أن الشعوب التي كنا نعتقد أنها بدائية، ليست كذلك على الإطلاق. فلم يكن هدف وورف من تصوير اللغة الهوبية بأنها توجه متحدثيها نحو الشعور

بالزمن باعتباره دورانيا هو تقييم ما إذا كانت اللغة تؤثر بالفكر تقييما مستقلا. فحتى القراءة المتعجلة لأعماله توضح على نحو ساطع أنه قد كان له أجندة: لإظهار أن كونك من متحدثي لغة هوبي لا يعني أنك همجي جهول.

ولقد كانت تلك الأجندة حسنة النية، وفي وقتها كانت ملحة حتى بين المثقفين. ففي زمن وورف كان يمكنك أن تتصفح طبعة من معجم وبستر الدولي الثاني، فتجد أن قبيلة الأباتشي توصف على نحو عرضي بأنهم «ذوو سجية مولعة بالحرب، وثقافة متدنية نسبيا». ونادرا ما تكون الأجندة، نفسها، غير منطبقة اليوم أيضا - بل هي جوهر الموضع الذي تحتله الوورفية في الثقافة الفكرية حاليا، فيما يتجاوز الأوساط الصغيرة لممارسي البحث الحقيقي من الوورفيين الجدد. فهم بالتحديد يقومون بدراسات صارمة ومحددة على نحو متصلب بشأن نقاط دقيقة، غالبا في لغات يتحدثها أناس قل من ينبزهم بالتخلف كالروس واليابانيين.

غير أن جمهور المتفرجين اليوم، سواء من الأكاديميين أو غيرهم - فيما يمكن أن نسميه فلسفة الوورفية الشعبية - لا يسعون في هذا العمل إلى سؤال يتعلق بما إذا كانت اللغة تؤثر في الفكر أم لا، بل إلى تبيان أن جميع شعوب العالم مساوين ذهنيا للغربيين المتعلمين.

محاماة أم تحقيق؟

وبالطبع، فإنه نادرا ما يُقدّم الأمر على هذا النحو. ولكن من المؤشرات عليه ما ذكرته عن التحيز في التلقي. فالدراسة الوورفية المتعلقة بالحساسية العالية لدى شعب ما من ناحية الشعور بالمواد أو التدرجات اللونية ينظر إليها باعتبارها طوبة أخرى في الجدار، وأما الدراسة التي تَستخدم المقاربة نفسها لتشير إلى وجود قصور في الصينية فتنقض بحزم ومثابرة. والمعلم نفسه الذي يقدّم بحماس فكرة وورف للطلاب الجامعيين في العلوم الإنسانية باعتبارها جديرة بالبحث، قد يقول للطلاب في نفس المقرر إنه من الخطأ ربط وجوه الحذف الموجودة في إنجليزية السود بالنسبة إلى الإنجليزية المعيارية - مثل عدم استعمال فعل (be) ولاحقة (-s) للمفرد الغائب في كثير من الأحيان - بأنماط التفكير. ولا يوجد مدرس يرغب في أن يكون مُرْبِكا هنا، بل إني أظن أنه لم يكن لدى أي منهم فرصة للتمعن في هذا التناقض بعينه. بيد أن ذلك يدل على شيء: فالالتزام في أساسه هنا التزام محاماة، لا تحقيق متجرد.

ودافع المحاماة هذا واضح على نحو مماثل لا في التحادث مع الأشخاص المطلعين على فكرة وورف فحسب، بل أيضا فيما تتضمنه المصادر الأدبية والصحفية من إحالات إلى الوورفية. فيستمع الصحفي مارك أبلي إلى أحد متكلمي لغة الموهوك[317] يتحدث

(317) لغة الموهوك/Mohawk من لغات السكان الأصليين في الجزء الشمالي الشرقي في أمريكا الشمالية، ويبلغ عدد متحدثيها حاليا قريبا من 3000 آلاف شخص.

عن كلمة «ka'nikonriio» التي تعني «الاستقامة». ويقول المتحدث: «ههنا كلمتان مختلفتان. شيء جميل. شيء يقترب جدا من القانون - وفي بعض الأحيان يستخدم باعتباره كلمة للقانون. والحقيقة أن «ka'nikonriio» هي أيضا «جميل». أو «صالح». فالصلاح والقانون هما الشيء نفسه». ويقول أبلي متأملا في هذا الكلام: «لقد كان لدي انطباع بأن حلقة دراسية عن الفلسفة مدتها ثلاث ساعات قد تم ضغطها للتو في بضع دقائق». غير أن كلمتنا نحن: «righteous»[318] تتضمن في الحقيقة الدلالات الحافة نفسها، ويتساءل المرء إن كان أبلي قد يرى ذلك مفيدا للمناقشة في حصة دراسية عن كانط أو هيغل. إن هدف أبلي هنا ليس بيان أن اللغة تؤثر في الفكر، بل شيء أكثر تحديدا - وهو أن متحدثي الموهوك لديهم فكر مجرد تماما مثلما لدى متحدثي الإنجليزية.

ويصف الصحفي جاك هيت[319] لغة من لغات تشيلي الأصلية تدعى «كاويسغار»[320]. وفيها عدد من أزمنة المضي النحوية، بما فيها واحد يميز بين الأسطوري والواقعي. رائع - ولكن هيت رجم بعد ذلك

(318) كلمة إنجليزية تعني مستقيم أو صالح.

(319) جاك هيت/ jack hitt صحفي بارز مهتم بلغات السكان الأصليين في أمريكا، واللغات المهددة بالانقراض، وحصلت بعض كتبه في هذا الموضوعات على عدد من الجوائز.

(320) لغة كاويسغار/ Kawesqar وتسمى كذلك ألاكالوف/ Alacaluf لغة السكان الأصليين في جنوب تشيلي في أمريكا الجنوبية، وهي على وشك الانقراض، إذ لم يبق ممن يتحدثها إلا عدد قليل جدا لا يتجاوز عشرة أشخاص حاليا.

بأن لغة كاويسغار لا تكاد تمثل المستقبل لأن متحدثيها، باعتبارهم من البدو الرحّل في السابق، يعيشون إلى حد كبير في اللحظة الحالية فيما يظهر، ولم يكونوا بحاجة إلى التفكير كثيرا في المستقبل. يبدو أن زمن المستقبل يستدر حقا مخيّلة الناس الإبداعية بالنسبة للوورفية: تذكّر أن كيث تشن قد تعامل معه باعتباره معيقا - لا مشجعا - للادخار، في حين يعتقد الناقد الأدبي إدموند ويلسون أن وسم الروسية الملتبس للمستقبل هو السبب في عدم التزام الروس بالوقت فيما يبدو. ومساهمة هيت هنا، المماثلة في إبداعيتها، تتجاوز مجرد إظهار رابط بين اللغة والفكر. ففكرة وجود أناس منغمسين جدا في اللحظة الحالية بحيث لا يشغلون أنفسهم بمستقبلٍ مجردٍ يتعذر التحكم فيه فكرةٌ رومانسيةٌ، وسليلةٌ مباشرةٌ لتصوير وورف للغة هوبي. ورسالة هيت هي أن «لهؤلاء الناس منطقهم». وهو واضح بهذا الشأن: فـ «كل لغة لها لاهوتها وفلسفتها المتفردين بصورة مندفنة في أوتارها».

وتتواصل الأمثلة، كفكرة كي ديفيد هاريسون بأن اللغات من دلائل البراعة. وكذلك عمل دانيال إيفرت بالنسبة إلى لغة بيراها المستند إلى حجة مفادها أن خصوصيات لغتهم - والتي لا يمثل عدم وجود الأعداد إلا واحدا منها - تدل على تكيف تطوري وثيق الصلة ببيئتهم، مشابه للتطورات المادية. فهؤلاء الناس ليسوا همجا - بل لهم منطقهم.

وأي شخص له دراية بالثقافة الأكاديمية للعلوم الاجتماعية سيلحظ على وجه العموم امتعاضا متفشيّا تجاه إيحاء أي شخص بإمكانية الفصل بين اللغة والثقافة - وهي أرومة من الفكر كانت أيضا حافزا

للفصل الثالث من كتابي هذا. وحتى بالنسبة لمن هم من المتفرجين فيما يخص هذه المسائل، فإنه قد يبدو من البديهي أن اللغة والثقافة مرتبطتان. ومع ذلك، فقد يتساءل المرء: لم الامتعاض، تحديدا، من إمكانية إنكار شخص لذلك؟

تخيل أن شخصا ينكر أن الهيدروجين والأكسجين هما العنصران المكونان للماء، من الصعب تصور أن يكون الرد دالا على الارتياع من شاكلة: «كيف تجرؤ؟!». من الواضح أن هناك شيئا إضافيا يهيئ لمثل هذا النوع من الرد الذاتوي بشأن اللغة والثقافة، شيء عاطفي بقدر ما هو فكري. وهو أن الاهتمام بإظهار ارتباط اللغة بما عليه شعب ما أقل من الاهتمام بارتباط اللغة بما يجعل شعبا ما جديرا بالود.

ومعنى ذلك أنه لا يتعين علينا تقدير الكيفية التي تُظْهِر بها اللغات ثقافات الشعوب، بل أن نكون مقدّرين أيضا لمشروعية تلك الثقافات وتطورها. فمن الطبيعي إذن بالنسبة للناس المتبنين لهذه القناعة أن يصدمهم مجرد احتمال فصل اللغة عما هو جيد بالنسبة لشعب ما لا باعتباره خطأ فحسب، بل باعتباره أمرا إقصائيا، ومزعجا، ومُهِينا.

وقد يسأل المرء بحق: ما الخطأ في السعي لإلقاء الضوء على الخير الموجود لدى أكبر عدد ممكن من الناس على وجه الأرض. فذلك أمر إيجابي ومتسامح ومستنير - أليس من التخلف مقاومة ما هو من هذا القبيل؟ إن أبلي وهيت، على سبيل المثال، ملتزمان بالمحافظة على اللغات المغمورة من الانقراض. ويسعى كي ديفيد هاريسون إلى الحفاظ على الثقافات الأصلية على قيد الحياة. ومن المؤكد أن

الاحتفاء بمتحدثيها له صلة بهذه المهمة. فلديهم ولدى ما لا يحصى من غيرهم أفضل النوايا.

ومع ذلك فإني أقول إن الاحتضان التقليدي للوورفية، مع طابعها الخاص المتمثل بإعلاء ما هو خصوصي فوق ما هو كلي، يأخذ النوايا الحسنة في اتجاهات لا يمكن لأحد أن يستحسنها. فهناك ثلاثة أهداف تسعى إليها الوورفية تتعرض، دون قصد، للتخريب في معمعة الطريقة الاعتيادية للتعامل معها في النقاش العام.

- **المشكلة الأولى - الأمانة**

هل رؤى العالم دائما نبيلة؟

إن الأدبيات المتعلقة برؤى العالم التي تخلقها اللغات تخفي، لو كان التحليل صحيحا، أنه توجد بعض الجوانب البغيضة بجلاء في تلك الرؤى. فصياغةُ فكرةٍ تقول إن لغة ما يمكن أن تجعلك تشعر أو ترى أكثر تستلزم أن يقبلَ المرءُ أيضا أن لغةً ما يمكن أن تجعلك، مثلا، أكثر عنصرية أو تحيزا جنسانيا.

ولاحظ أنني لم أكتب أن «اللغة» بصفة عامة يمكن أن تكون عنصرية أو متحيزة جنسيا، فهو أمر بدهي للجميع. ففي كل لغة يمكن للمرء أن ينتج جملا لها معاني عنصرية أو متحيزة جنسيا. وتحديد كيفية التعامل مع ذلك موضوع منفصل عما إذا كان للغة معينة بحد ذاتها مرتكز عنصري أو متحيز جنسيا – وبعضها كذلك.

وكثيرون على دراية بأن اللغات الرومنية[321] والجرمانية المألوفة لدينا من ضمنها. فلقد عُلّمنا أنه بينما تميز الإنجليزية بين (he/ هو) و(she/ هي) في المفرد، فإن (they) في الجمع من المفترض أنه يُفْهَم على أنه يشير للجنسين معا. غير أن التجارب تظهر أن الميل الأصلي هو، كما قد نتوقع، ربط ما يفترض أنه ذو جنس محايد بالرجال. والتحيز الجنساني المكشوف المضمّن في قواعد النحو لمثل هذه اللغات أكثر وضوحا في لغات كالفرنسية، حيث يوجد ضمير جمع غائب يشير إلى النساء (elles)، ولكن حينما يشار إلى الجنسين معا، فإن ضمير الرجال (ils) هو الذي يستخدم، بل هي الكلمة نفسها الدالة على (هو) مع لاحقة الجمع، كمن يزيد الطين بّلة. تخيل لو قال شخص في الإنجليزية عن مجموعة مكونة من رجال ونساء: «He-s are going upstairs shortly» (نعم (he) متضمنة كتابيا في كلمة (they) باعتبار الحرفين (h) و(e)، ولكن من دون قصد، فـ (he) آتية مجانا مع (t) للدلالة على صوت (th))[322].

(321) اللغات الرومنية تشمل مجموعات اللغات التي تفرعت عن اللغة اللاتينة وهي الفرنسية الإسبانية والإيطالية والبرتغالية والرومانية، إلى جانب عدد من اللهجات واللغات الصغيرة الأخرى.

(322) المقصود هو أن ضمير المفرد الغائب في الفرنسية هو «il» والجمع هو «ils» ويستخدم هذا الضمير في التغليب حينما يكون الجمع مكونا من رجال ونساء معا، فالمشكلة هنا كما يقول المؤلف لا تقتصر على التغليب باستخدام ضمير الجمع المذكر للنساء والرجال معا، بل إن الضمير نفسه هو ضمير المفرد المذكر مع لاحقة الجمع، كما لو أن ضمير «هو» يجمع بإضافة الواو والنون «هوّون» وضمير «هي» يجمع بإضافة الألف=

المشكلة أن هذا النوع العفوي من التحيز الجنساني منبنٍ في اللغات في أنحاء العالم، مثلما أنه للأسف يمثل نزعة قوية فيما بين المجموعات البشرية. وقد يكون أيضا أكثر مباشرة. فلغة كواساتي الأمريكية[323] الأصلية مليئة إلى حد التخمة بتمييزات نحوية دقيقة قد تتناسب مع التكهنات المتعلقة بما إذا كانت كواساتي أكثر تحسسا تجاه هذه الحياة التي نعرفها. وأيا يكن، فإن من بين هذه التمييزات تمييز يخص ما إذا كان المتحدث رجلا أو امرأة. فالرجال يتكلمون مستخدمين لاحقة زائدة. فإن قالت امرأة: «هو يرفعها»، فإنها ستقول: «lakáw»، إما إذا قالها رجل، فإنها ستكون: «lakáws». وجملة «أنت تقول» بالنسبة لامرأة هي: «ísk»، وبالنسبة لرجل تكون: «ísks». ويطّرد ذلك في جميع الأفعال. وفي لغة كوروخ[324] الهندية توجد

=والتاء «هيات»، ولكننا نستخدم «هوون» على سبيل التغليب في الإشارة إلى النساء والرجال معا، وأما كلام المؤلف الأخير حول وجود «he» داخل «they» فهو مجرد تحذلق لا معنى له. وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة التغليب التي يتحدث عنها المؤلف، بعيدا عن تحذلقاته اللفظية، موجودة في العربية أيضا. وللاطلاع على قراءة جيدة لهذه الظاهرة بعيدا عن ادعاءات التحيز، انظر ما كتبه حمزة المزيني في سلسلة من المقالات بعنوان «المرأة واللغة أم المرأة والثقافة»، منشورة في الجزء الثاني من كتاب «مراجعات لسانية»، له، ص129-160.

(323) لغة كواساتي/Koasati من لغات السكان الأصليين في جنوب الولايات المتحدة، وهي من اللغات المهددة بالانقراض، إذ لم يبق ممن يتحدثها في بعض التقديرات سوى ما يقرب من 400 شخص.

(324) لغة كوروخ لغة درافيدية يتحدثها قريبٌ من 120 ألف شخص شمال الهند.

لواحق خاصة تستخدمها النساء اللائي يتحدثن إلى نساء، في مقابل اللواحق «العادية» التي يستخدمها رجال يتحدثون إلى رجال - أو نساء(325).

ويمكن أن تكون اللغات متسمة بما قد يصفه الغربيون بالعنصرية. فللغة يوتشي الأمريكية الأصلية، بصرف النظر عن فرط انشغالها الباهر، ضمائر خاصة تشير إلى اليوتشيين، في مقابل مجموعة أخرى من الضمائر تستخدم لكل شخص آخر(326). وربما يميل البعض

---

(325) المقصود أن النساء حينما يتحدثن إلى نساء أخريات يستخدمن لواحق خاصة في هذه الحالة فقط، أما حينما تتحدث النساء إلى رجال، أو يتحدث الرجال إلى رجال أو نساء فإن اللواحق المستخدمة في جميع هذه الحالات متماثلة. ومن اللغات التي يختلف فيها كلام الرجال عن النساء من ناحية المعجم لا النحو لغة أوبانغ في جنوب نيجيريا، وقد نشرت عنها قناة البي بي سي تقريرا بعنوان: «مرحبا بكم في بلدة يتحدث ذكورها وإناثها لغتين مختلفتين»، على الرابط التالي: https://www.bbc.com/arabic/world-45283337. وللاطلاع على أمثلة أخرى، ومناقشة موجزة لهذه الظاهرة الغريبة، انظر: «عندما تموت اللغات» لكي ديفيد هارسون، ترجمة: محمد مازن جلال، ص379.

(326) لغة يوتشي/ Yuchi من لغات السكان الأصليين في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة، وهي وشك الانقراض، إذ لم يبق من المتحدثين بها في عام 2016 بحسب بعض الإحصاءات إلا أربعة أشخاص فقط. وهي لغة معقدة جدا من الناحية الصرفية والتركيبية، وتستخدم سوابق صرفية خاصة للكلمات بحسب ما إذا كانت تشير إلى اليوتشيين أو غيرهم، فكلمة امرأة مثلا في لغة يوتشي هي «sAdE'nê» إن كانت المرأة المقصودة من أفراد قبيلة يوتشي، ولكنها تكون « wAdE'nê» إن كانت المرأة المقصودة من غير القبيلة.

إلى رؤية ذلك باعتباره نوعا من احترام الذات الصحي في مجموعة صغيرة كهذه، ولكن من المرجح أن نرى الأمر على نحو مختلف تماما، لو أن الألمانية أو الصينية، مثلا، كانت تعمل بتلك الطريقة.

ورد الفعل المغري بالنسبة لهذه الأشياء هو الشك بأن هذه السمات تؤدي إلى «رؤية للعالم». غير أنه يلزم المرء، في ظل عدم وجود مقياس يبرر عزل العنصرية والتحيز الجنساني عن بقية الجوانب، أن يصنف الزخارف والزركشات الأخرى في لغة معينة على أنها بالمثل لا علاقة لها بكيفية رؤية متحدثي تلك اللغة للعالم.

وثمة ما يدعم هذا الموقف، في الحقيقة. فهناك لغات يكون فيها المؤنث، لا المذكر، هو الأصل. فأكثر الكلمات فيها مؤنثة لا مذكرة، وكل كلمة جديدة تنشأ في اللغة أو تستجلب لها توسم تلقائيا بالتأنيث، وحينما يكون هناك ذكور وإناث حاضرون، فإن الضمير المؤنث هو الذي يستخدم. وهذه اللغات من ناحية بمثابة الاستثناءات التي تؤكد القاعدة، فهي نادرة - وقد اتفق، أن لغة جاراوارا الأمازونية، التي تطالعنا من حين لآخر في هذا الكتاب، والمجتمعات الشقيقة لها، من الأمثلة على ذلك.

غير أننا من ناحية أخرى نبحث دون جدوى عن دليل على أن هذه المجتمعات تعز النساء بطريقة مستنيرة. بل إن معاملة النساء في مثل هذه المجتمعات تصل فيما يبدو إلى حد التضاد في عدم تلاؤمها مع النحو الذي يمنح الأفضلية للجنس المؤنث. فلدى إحدى هذه المجموعات،

وهي قبيلة بناوا[327]، تُحْبَس البنت في كوخ لمدة أشهر حينما تحيض أول مرة، ولا يسمح لها بالخروج إلا لقضاء الحاجة أو للاستحمام، وفي هذه الحالة يتم نسج سلة حول رأسها بإحكام من دون حتى شق للعين، وعندما يتم إطلاق سراحها، بعد احتفال ممتد يتم جَلْد ظهرها حتى تدمى.

من المؤكد أن اللغة في هذه الحالة لا تخلق رؤية للعالم بأي طريقة يمكن تصورها. وقد لا تُفِيض الوورفية الشعبية في تناول هذا الأمر - وهو ما يمكن أن يلقي الضوء على المقاربة الأوسع للوورفية تجاه أشياء أخرى يُزْعَم أن لغة ما تجعل متحدثيها حساسين تجاهها على نحو له معنى.

■ المشكلة الثانية - الاحترام من خلال المجهر

إن مظهر الوورفية الذي يتم تشجيع الجمهور على تبنّيه فيه شيء من الاستعلاء.

وهذا غير مقصود البتة، فكثير من المذيعين لها يعتبرون أنفسهم ببساطة ساعين لجعلنا نرى أن الشعوب المغمورة على قدم المساواة مع الغربيين. فهم معتزون بالتنوع، وراغبون في التبشير به. بيد أن

---

(327) قبيلة بناوا/ Banawá تقطن في المناطق الغربية من البرازيل، وتتكلم لهجة من لهجات لغة مادي/ Madí القريبة من لغة جاراوارا. وهي لهجة على وشك الانقراض، إذ لم يبق ممن يتكلمها إلا قريب من 160 شخصا بحسب بعض الإحصاءات.

الفكرة القائلة بأن اللغة مثيرة للاهتمام لأنها تُظهر مدى تنوعنا البشري، ليست كما قد يُظن منظورا محتما، ولا خيّرا بالضرورة.

ويَسْهُل تبيّن ذلك من موضع الوورفية السابق في الثقافة الفكرية. ولنتذكر البروسي هاينريش فون تريتشكه العزيز، ومقولته «الفروق في اللغات تنطوي حتما على وجهات نظر متباينة عن العالم». وفيما عدا لغات القوميات المهيمنة في الجغرافيا السياسية، فإن المرء لا يتخيل نظرة مليئة بالإحسان للغات؛ فلقد كان مصطلح فون تريتشكه لشعوب العالم الأقل حظوة هو «البرابرة»، ولم يكن ذلك مقصورا على شعوب العالم الثالث المغمورة فحسب، بل كان يشمل مجموعات قريبة لوطنه كالليتوانيين. ولم يكن بعيدا من ذلك في عالم تريتشكه المصبوغ بالنظرة الجرمانية أن فيلسوفا لغويا ضليعا مثل فيلهلم فون هومبولت ينظر إلى الصينية - بسبب افتقارها للواحق الدالة على الجنس وتصريف الأفعال - باعتبارها تمثل «مرحلة» لغوية أقدم من اللغات الأوروبية، لا تناسب أعلى درجات المنطق والتقدم. وعنوان أحد أعماله كاف في التعبير عن ذلك: «التنوع في بنية اللغة البشرية وأثره في النمو الذهني للبشرية». وما أقصر المسافة بين هذا والمسعى الحديث لإظهار اللغات على أنها تمثل «رؤى للعالم» - فلم يكن عبثا أن يصنف فون هومبولت من قبل البعض باعتباره الأب الحقيقي للوورفية.

إننا نعتبر أنفسنا بابتهاج قد تجاوزنا هذا النوع من التفكير. فمن ناحية، لا يضع الوورفيون المحدثون اللغات على مقياس للتطور مثلما

يفعل القدامى، ومثل هذا المسعى هو بكل تأكيد آخر ما يدور في أذهان مؤيدي الوورفية حتى خارج الأوساط الأكاديمية.

فهل يا ترى الأمر كذلك؟ إن فون هومبولت يبدو عتيقا جدا في اهتمامه بـ «النمو الذهني للبشرية» (بل الأمر أشد في العنوان الأصلي: geistige Entwicklung des Menschengeschlects)[328].

بيد أن التنوع مصطلح يتجاوز في الحقيقة، حتى في الوقت الحالي، ما يراد من دعم الوورفية. فما يصدمنا باعتباره مستهجنا من جوانب التنوع يشذّب بعناية ويستبعد، كالتحيز الجنسي والعنصرية المذكورين أعلاه، أو كاحتمال أن تجعلك لغة ما أقل حساسية تجاه الوضع الافتراضي (كالصينية)، أو كالأشياء التي لا يتطرق إليها النقاش أبدا بصورة مهمة، من شاكلة اللغات التي تدمج كلمتي (يأكل) و(يشرب) في كلمة واحدة تعني (يستهلك). بل إن الهوى السائد في الوورفية الشعبية هو إبراز الطرق التي تكون بها المجموعات الأخرى متفوقة على الغربيين: كأن يكونوا أكثر دراية بأنواع المعرفة، وأقل هوسا بالمستقبل، وأكثر دراية بموقعيتهم الجغرافية، وأكثر حساسية تجاه مصادر المعلومات.

---

(328) نشر كتاب هومبولت التي يتحدث عنه المؤلف عام 1836م بعد وفاة مؤلفه بسنة، وهو كتاب مهم جدا في مسار تطور الفكر الأوروبي الذي كان يشهد آنذاك بداية تشكل الدراسات اللغوية المستقلة في المرحلة التي تلت اكتشاف اللغة السنسكريتية. وهي مرحلة تتسم بكثير من التجاذبات، وخليط من الأفكار العلمية وغيرها. وللاطلاع على قراءة موسعة للفكر اللغوي الأوروبي آنذاك بما يستند إليه من منطلقات وتوجهات مختلطة، انظر: «لغات الفردوس» لموريس أولندر، ترجمة: جورج سليمان.

فمتحدث الإنجليزية يتكلم فحسب، وأما متحدث الموهوك فينطق بدروس فلسفية(329). وكل لغة من لغات السكان الأصليين شهادة على الإبداع - ولكن من غير المرجح أن يكتب من يعتنقون وجهة النظر هذه عن الإنجليزية شيئا من هذا القبيل. فتقليد التغني الجسور والمتحذلق بالإنجليزية كلغة «عظيمة» جافٍ، وبالٍ، وعابق بالإمبريالية. وتعتبر العامية «إبداعية» في ظل هذا المنظور - ولكن هذا الاستحسان نابع من استهانة العامية بهيمنة المجازات البالية للإنجليزية المعيارية. وسيقال إن لغات السكان الأصليين في أستراليا ليس فيها كلمة للزمن، مما يعكس تصورهم بعدم حدوث التقدم، وأن مهمة البشر هي الحفاظ على الحياة كما كانت عند الخلق - ومن ثم فإنه لم يكن بمقدور هؤلاء الناس قيادة العالم إلى مشكلة الاحتباس الحراري وغيرها من المشاكل البيئية(330).

---

(329) يشير إلى ما تطرق إليه سابقا من كلام سارك إبلي عن لغة الموهوك وكون بعض مفرداتها لا تفرق بين الاستقامة الأخلاقية والالتزام بالقانون.

(330) مقصود المؤلف هنا التندر بأن وجود الظواهر اللغوية أو عدم وجودها يمكن أن يستنتج منها أي شيء يريده الشخص. وربما كان المؤلف يشير إلى تقرير من شاكلة التقرير الذي نشرته البي بي سي عن قبيلة أموندوا في الأمازون، وفيه ادعاء بأن لغتهم لا تحتوي على أي مفهوم للزمن، ويمكن الوصول إليه من خلال الرابط التالي:

https://www.bbc.com/news/science-environment-13452711

وإن كان لذلك أي أهمية، فإن كثيرا من اللغات الأسترالية فيها كلمة للزمن، ولكن هذا ونحوه - مما يتأيّد بمَا لا حصر له من التصريحات الأخرى بشأن علاقة اللغة بالثقافة - كافٍ للقول بأن ثمة ما يشبه الهَرْج بشأن التنوع لا مجرد احتفاء به. ففي مسعى لثني الجمهور عن قِصَر النظر الثقافي، انحرف هذا النوع من التفكير نحو الغرائبية[331]. ونقطة البداية، دون شك، هي أنني أحترم أنك لست مثلي. ولكن في سياقٍ ثقافي اجتماعي يعامل فيه مثل هذا الاحترام على أنه استنارة فكرية وأخلاقية، لابد أن يصبح هذا الاحترام بحسب ما يُسْتضمر مرتبطا بما يعنيه العمل الصالح أو ما يعنيه أن تكون صالحا كشخص. فيبدأ عندئذ دبيب مهمة أيديولوجية: وسيتضخم الاحترام إلى شيء أكثر نشاطا واتقادا. ويصبح الشعار الجديد هو: «**يعجبني** أنك لست مثلي»، أو «ما يعجبني فيك هو أنك لست مثلي». والمعنى في ذلك الشعار هو: «ما هو جيد فيك هو أنك لست مثلي».

لاحظ، على أية حال، أن موضع هذا الإطراء لا يحمل سببا وجيها لأن يكون ثناء حقيقيا. فكون المرء لا يشبه شخصا غربيّا ليس

---

(331) الكلمة التي استخدمها المؤلف هنا هي «exotification» وهي كلمة معناها إضفاء صفة الغرابة على فئة من الناس لسبب معين يرجع إلى مظهرهم أو لغتهم أو نمط حياتهم، وإحاطتهم على نحو نمطي بشيء من الانبهار المفتعل نوعا ما. ولم أجد كلمة تعبر عن هذا المعنى سوى «الغرائبية»، رغم ما فيها من قصور. وللاطلاع على أثر مثل هذا التوجه في الصورة النمطية التي رُسِمت لـ «الشرق» في الدراسات الاستشراقية على سبيل المثال، انظر: «الاستشراق» لإدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، ص110.

ما يجعله يشعر بشخصيته أو قيمته الذاتية، ولا ينبغي أن يكون ما نعده نحن كذلك، سواء صراحة أو ضمنا. فتوصيفنا للسكان الأصليين بهذه الطريقة هو في نهاية المطاف مرتبط بمصلحتنا الخاصة أكثر من مصلحتهم. وهذا واضح في كون الشخص الذي يُعْلي من إعزاز قيم الآخرين وتقاليدهم باعتبارها أكثر «حقيقة» مما لديهم لا يكون لديه في العادة مثل هذه التوقعات عن الأناس المقصودين[332].

والفكرة هي أن ذاك «الغريب» على المسار الصحيح، إن كان ينظر إلى شعبه باعتباره متفوقا علينا أو أكثر عراقة منا - فلنمجده لفهمه أننا نحن غريبو الأطوار، وغير المستنيرين، وأهل الزراية. غير أن ذلك شيء نقدره لأنه يمنحنا المشروعية، وهي ما نختلسه من دون أن نعتبر أننا نجيز لذاك الغريب منظورا نعتبره متخلفا في أنفسنا. بعبارة أخرى، نحن نحتفي به لكونه متخلفا. هذا ليس مديحا[333].

وقد نتخيل بتعبير أكثر بساطة أننا نحن الموجودون في الطرف الآخر من المجهر. ومجموعة من الناس تراقب ما نفعل - بما في ذلك الكيفية التي نتحدث بها - وينبهرون بمجرد ما لدينا من اختلافات

---

(332) مقصد المؤلف أن الانبهار بها لدى الآخرين لمجرد اختلافهم يتضمن شيئا من الغرور والتعالي وشيئا من التفضل على نحو يشبه الانبهار بالأطفال لتصرفات تدل على ذكاء لا يتوقع المرء أن يصدر عنهم.

(333) المقصود هو أن هذا التوجه، علاوة على ما فيه من ترفع وتعال، يحتفي بشيء عند «الغريب» يعده نقصا عند نفسه، وهو «عدم الاحتفاء بالتنوع». فهي سمة من سمات التخلف، ولكنها حينما تكون عند الغريب تكون مدعاة للاحتفاء!

عنهم، بل يُعْلونها نوعا ما باعتبارها أكثر «حقيقة» مما لديهم. وربما يكون تشبيه ذلك بكون من يعايننا ويرصدنا كائنات فضائية أكثر منا تقدما بكثير مقارنة مجدية، بما يحمله ذلك من الشعور غير المعتاد بالصغر والضآلة اللذين يعايشهما القارئ. خذ هذا التشبيه إلى أبعد من ذلك وتخيل الكائنات الخارجية تُشِيد بمدى ما نتمتع به لأننا ما نزال نعيش على موارد كوكبنا بدلاً من استجلاب الطاقة من مصدر منتشر فيما بين الكواكب وما إلى ذلك.

إن ازدراء التنوع هو نقيض القول بالمساواة. وأما الهوس به، فرغم أنه قد يبدو تقدميا، فإنه يمكن أن يكون بنفس القدر قائما على نزعة اصطفائية. هل نحتفي بالناس باعتبارهم مثيرين للاهتمام بصور مفتعلة - «وااو، أنت تشعر حقا بطول العصي ونحافتها!»، «يا إلهي، أنت تدرك حقا الفرق بين ما إذا كنت قد أبصرت شيئا أو سمعت عنه فقط!» - لأننا لا يمكن في نهاية المطاف أن نشعر أنهم نظراء لنا في كونهم بشرا فحسب؟

■ المشكلة الثالثة - الدقة

ما التنوير؟

إن الوورفية الشعبية - ونحن بحاجة لمصطلح أكثر تحديدا - ليسَت صحيحة. وأما الوورفية الأكاديمية الجديدة فهي صحيحة - فلا تخطئ. ولكن الكيفية التي يتم بها تأويلها خارج المختبر في معظم الأحوال ليست كذلك.

فاللغة لا تُشَكّل الفكرَ بالطريقة التي يفترضها المرء في الظاهر، ولا أنماط الثقافة تُشَكّل انبناءَ اللغة بالطريقة التي قد يفترضها المرء في الظاهر. فانبناء لغة ما قائم على استطاعة تنمو نموا داخليا بالصدفة. فهي تَكَتّلٌ من الأنظمة الفرعية المتفاعلة بكثافة، تُسْتَغل بسرعة كبيرة دون مستوى الوعي، وتتشكل بلا نهاية في أصوات وأبنية جديدة نتيجة لبلى الاستعمال وإساءات التأويل المتنامية، بحيث أن ما كان يوما ما لاتينية أصبح الآن فرنسية وبرتغالية[334].

ويجب ألا يُساوى هذا التصور بالفكرة التشومسكية القائلة بأن «العضو اللغوي» يوجد بمعزل عن بقية العرفان. فجميع الدلائل تشير إلى أن اللغة عنصر من عناصر التفكير، وعليه فإن الشيء المسمى لغة، المغلّف بدماغ مدرك، يُلْقي دوما - بصورة عشوائية، بسبب وجود أشياء كثيرة للغاية قد تَخْلُصُ لغةٌ معينة إلى وسمها بشكل صريح، مما لا يمكن لأي واحدة من اللغات أن تسمها كلها - إلى المجسات المرتبطة بمناطق مختلفة من التصور آلافا من الألوان الباهرة لكينونة الإنسان.

ولكـن القدرة الإدراكية تظل هي نفسها بغض النظر عن اللغة. ولا شك أن المجسّ المشبوك برقعة معينة من الإدراك يعزز من حساسية المتحدث تجاه الظاهرة ذات الصلة، وهذا الكتاب لا ينفي

---

(334) للمزيد بشأن هذه الفكرة وأثرها في تغير اللغات انظر: «لماذا تتغير اللغات» لـ «آر تراسك»، ترجمة: محمد مازن جلال، و«التطور اللغوي» لرمضان عبدالتواب.

بحال من الأحوال الأدلة القوية على ذلك[335]. بيد أن التجارب المعنيّة قد بينت لنا أن التعزيز ليس إلا وميضا عابرا، لا تكشفه إلا تجربة مضنية، ولا يمكن بأي حال من الأحول أن توجد طريقة مختلفة لرؤية العالم على غرار ما قد يفترضه فون هومبولت أو فون تريتشكه أو أي شخص آخر.

وبذا فإن الثقافة - وهي حاصل الكيفية التي يفكر بها الناس - لا يمكن أن تخترق النواة الدِّبقة للكيفية التي تعمل بها اللغة. ولاحظ أنني كتبت الكيفية التي تعمل بها اللغة، وليس «اللغة» فقط، التي تتأثر، كما بينتُ، بالثقافة بطرق عديدة دون شك. فموضع اهتمامنا - الذي هو موضع اهتمام الوورفية - ليس اللغة في صورتها المكبّرة، بل التكتل التصادفي الذي يكوّن طرقَ العمل الداخلية للغة معينة - أي نحوها، وما فيه من خصوصيات صعبة الالتقاط على البالغين. فيمكن للثقافة أن تؤثر في الكيفية التي تُستعمل بها تلك اللغة، وتجعلها تسمّي أشياء معينة لها قدر أكبر في تلك الثقافة بطريقة ليس فيها أي غموض. ولكن لا يمكن للثقافة أن تؤثر على أي شيء من صميم اللغة من ناحية كيفية انبنائها في التفاصيل. فلا ترتبط بنيةُ اللغة، ولا الجوانبُ العشوائية من الواقع التي يتفق لها أن تشملها أو لا تشملها، ارتباطا له معنى بالثقافة.

(335) بل إن اللغة من هذه الناحية أشبه بالمقبض الذي يمكّن الإنسان من إدراك أفكاره الخاصة. ولكن ذلك شيء مختلف تماما عن اعتقاد أن اللغة هي التي تنشئ تلك الأفكار أو تحددها. وللاطلاع على نقاش مفصل لدور اللغة من هذه الناحية، انظر: «دليل ميسر للفكر والمعنى»، لراي جاكندوف، ترجمة: حمزة المزيني.

نعم: «*بنية اللغة لا ترتبط ارتباطا له معنى بالثقافة*». ولست بحاجة لأن تأخذ بكلامي هنا. فمثلما أخبرنا إدوارد سابير منذ قرن تقريبا: «حينما يتعلق الأمر بالشكل اللغوي، فإن أفلاطون يسير جنبا إلى جنب مع رعاة الخنازير المقدونيين، وكونفوشيوس يسير جنبا إلى جنب مع متصيدي الرووس المتوحشين في آسام». لقد أصبحت هذه المفردات غريبة نوعا ما[336]، ولكن ما يعنيه سابير هو أن اللغة المقدونية، القريبة من الروسية، تزخر بحالات الإعراب والتصريفات كاليونانية القديمة تماما، في حين أن الصينية منبنية بما يشبه اللغات الصغيرة المتعددة المستخدمة في جنوب آسيا وجنوب شرقها. فالثقافة والبنية اللغوية - أي الفكر والبنية اللغوية - ليسا متطابقين. وهذه رسالة ربما لم تكن متوقعة من إحدى الشخصيات التي ألهمت وورف، ولكن هذا هو الواقع. وهو ما قد رأيناه في هذا الكتاب.

فإلى أي مدى يمكننا أن نكون، في ضوء ذلك، مطمئنين للاحتفاء بمفردات اللغات الصغيرة باعتبارها «تجسيدا لمنظور ثقافي»؟ إنه لمن الواضح على أية حال أن مفردات لغاتنا مجرد كلمات. فتحتوي الإسبانية على كلمتين منفصلتين بمعنى «زاوية»، بحسب ما إذا كانت في الخارج (حيث تنعطف حول الـ«esquina») أو في الداخل (حيث

(336) يقصد المفردات الإنجليزية التي استخدمها سابير في المقتبس أعلاه، ومنها كلمة «swineherd» بمعنى راعي الخنازير، وكلمة «head-hunting» بمعنى تصيّد الرؤوس الذي يعبر عن عادة قطع رؤوس الأعداء والاحتفاظ بها لأسباب مختلفة لدى بعض المجتمعات قديما.

تقف في الـ «rincón»). وفي الإنجليزية كلمة واحدة للأمرين، ولكن قلة من يرون أن ذلك يجسد «درسا هندسيا»- إذ تصادف فحسب أن تقطّع الإنجليزية الواقع بطريقة مختلفة عن الإسبانية[337]. وليس في الفرنسية كلمة تدل على معنى «stick out»[338] في الإنجليزية بمعنى أن شيئا ما موضوع بشكل غير صحيح ضمن صف مرتب من الأشياء فيما عداه، ولكن تخيل أن يقرر العلماء الفرنسيون أن وجود «stick out» يعني أننا من الناحية الثقافية أكثر تحسسا منهم تجاه ما هو ناتئ من الأشياء. لقد تصادف فقط أن الفرنسية تعبر عن المفهوم باعتباره شيئا لم يُسوّى بشكل صحيح، أو شيء «يتجاوز» «dépasser»، فهم يستطيعون توصيل المعنى وإن لم يكن لديهم كلمة يتفق لها أن تشتمل على الفارق الدقيق الذي تؤديه الكلمة الإنجليزية.

لا يمكن لكلمات أي لغة أن تسم كل فارق بسيط في الحياة، ولذا يتفق لكل لغة أن تقسّم التصور بطريقة مختلفة. إن الاختلافات

(337) والعربية مثل الإنجليزية في ذلك، ومن الأمثلة المشابهة في الاتجاه المقابل أن الإنجليزية تسمي أصابع اليد «fingers» وأصابع الرجل «toes»، ولكن العربية لا تفرق بينهما إذ تسمي هذه الجوارح كلها «أصابع» بلا تفريق، وكذلك الإسبانية تسميها «dedos» بلا تفريق، وليس لذلك أي دلالة ثقافية أو ارتباط بالتفكير. وقد تطرق المؤلف لذلك سابقا في سياق حديثه عن «الدلاليات الإثنية». وللاطلاع على كثير من الكلمات الدالة على أعضاء الجسد في العربية، مما لا مقابل له في الإنجليزية، انظر: «محاسن العربية» لديفيد جستس، ترجمة: حمزة المزيني، ص116.

(338) الفعل «نتأ» في العربية يدل من بعض النواحي على المعنى المقصود.

خلّابة، ولكن الفكرة القائلة بأنها تشير إلى تصورات مختلفة عن الحياة ليست وجهية إلا بقدر ما يمكننا قبولها بشأن اللغات القريبة. فإن كان السويديون بالرغم من لغتهم يتنشفون[339]، والفرنسيون يمكنهم أن يرو الأشياء ناتئة، فإن الصورة برمتها التي نتصورها بشأن مفردات اللغات الأصلية[340] تتداعـى.

* * *

إن الباحث الذي يدرس أعمال القديس توما الأكويني يرى بسهولة أنه بقدر ما كان مفكرا بارعا فإن كثيرا مما كتب عنه لا يمكن أن يشغل العقل الحديث كثيرا، مثل بحوثه التي لا نهاية لها عن الفرق الأرسطي بين الخصائص الجوهرية والعرضية للأشياء، مع التصنيف الدقيق للنوع الأخير، كله لخدمة الأسئلة اللاهوتية التي تدور حول الاستحالة الجوهرية والقربان المقدس[341]. فيمكن للمرء أن يضع نفسه في ذهن القديس توما الأكويني ويفهم مدى إلحاح مثل هذه القضايا عليه في

(339) يشير إلى ما ذكره سابقا من أنه لا يوجد كلمة تدل على معنى تنشف/wipe في اللغة السويدية.

(340) كما بينا سابقا، فإن «أصلية» هي الترجمة الشائعة لـ «indigenous» والمقصود بها كل لغة مرتبطة بشعب يسكن أرضا معينة قبل التاريخ المدون، وله ارتباط وثيق ببيئتها.

(341) المقصود هو تحول الخبز والخمر إلى لحم المسيح ودمه في القربان المقدس بحسب الطقوس المسيحية. وبحسب معتقداتهم فإنهما يتحولان تحولا حقيقيا في جوهرهما، وهي مشكلة أثارت الكثير من الآراء والمعارضات في الاعتقاد المسيحي.

القرن الثالث عشر، بينما لا يزال يشعر بأن هذه المرحلة من التحقيق الفلسفي مصوغة ضمن افتراضات ومشاغل معينة قد تم، في خضم التقدم الفكري، تجاوزها نحو التجربوية[342].

وبالمثل، يمكن أن نفهم تماما لماذا كانت حتى أكثر العقول علمية تؤمن ذات يوم بالتولد التلقائي[343]. فلقد كان بالتأكيد يبدو كأنّ الحياة تنبثق من المادة المتعفنة، ولم يمكن للإنسان إدراك الكائنات المجهرية إلا من خلال المجاهر، واستعمال الأدوات الاستنباطية الصارمة.

ولقد كان لدراسة اللغة مراحل مماثلة، تبدو، عند استرجاعها، مفهومة، ولكنها بدائية. فإن كنت لا تعرف إلا اللغات ذات التصريفات الكثيرة التي لا يمكن تعلمُها إلا من خلال جداول كثيفة، فمن الطبيعي أن تعتقد بأن اللغة التي تفتقر إلى تلك التصريفات أقل تطورا، كما اعتقد فيلهلم فون هومبولت. ولم يصبح واضحا أن التصريفات ليست الطريقة الوحيدة التي تجعل اللغة صعبة (كما وضحت في كتابي

---

(342) التجربوية/ empiricism مذهب فلسفي يقتصر في المعرفة وأدلتها على رصد ما هو واقع في عالم المشاهدة فحسب. وما يقوله المؤلف هنا ينطبق كذلك إجمالا على كثير من مسائل علم الكلام الدقيق في الحضارة الإسلامية أيضا، ومن يطالع كتاب المواقف للعضد الإيجي، على سبيل المثال، يطلّع على كثير من المنازعات والخلافات بشأن مفاهيم وتصورات لم يعد لها وجود في الفكر المعرفي الحديث.

(343) التولد التلقائي تصور مفاده إمكانية تولد الأحياء من المادة غير الحية، وقد كانت فكرة شائعة في مرحلة من مراحل تطور العلم قبل إمكانية التعرف على الكائنات المجهرية الدقيقة.

«ما اللغة»)، إلا مع الدراسة الموسعة للغات كاللغة الصينية، وإلى اليوم فإن الشخص العادي ميّال إلى القول بأن اللغات المشابهة للغة الصينية «ليس فيها نحو».

ومما له صلة وثيقة بذلك هنا التريتشكيون[344] الظرفاء في الأيام الخوالي وفكرتُهم عن كون اللغات تمثل طريقَة تفكير الناس. ومن المحتمل أن القارئ يمكنه أن يرى ما أرمي إليه: فالفكرة القائلة بأن كل لغة تجعل متحدثيها يفكرون بطريقة مختلفة - حتى بالقصد «الحَسَن»- عن متحدثي اللغات الأخرى قد لا تكون تقدمية كما تبدو. وبعض أمارات ذلك ظاهرٌ في الفكرة الهشة جدا القائلة بأن كل الاختلافات ستكون من النوع الجيد أو «المبهج»[345]. وقد رأينا المشكلة في ذلك، ولا بد أن نضيف هنا أن هذه المدرسة الفكرية عادة ما تكون مرتكزة على أساس ضئيل من المقارنة - فلا تتجاوز لغتين إلى أربع من بين ستة آلاف لغة - مما يجبر المرء على التفكير بتشبيه ذلك بالعُميان الذين يصفون الفيل[346].

(344) التريتشيكون نسبة إلى هاينرتش فونَ تريتشكه الذي ذكره المؤلف عدة مرات في هذا الكتاب.

(345) يشير إلى ما ذكره سابقا في الفصل الرابع عن كون بعض الدلالات التي تحملها الدراسات الوورفية تُحارَب بشدة لما تحمل من مقتضيات وتضمينات ازدرائية لبعض الشعوب والثقافات.

(346) العميان والفيل أمثولة شعبية مشهورة تحكي قصة عدد من العميان يحاولون تخمين ماهية الفيل بتحسس أجزاء مختلفة من جسده، فيصف كل واحد منهم الفيل بحسب الجزء الذي لمسه من جسده، رغم اختلافه عن بقية الأجزاء التي لمسها الآخرون واعتقدوا أنها تمثل الفيل أيضا.

ومن ثم يمكن للمرء أن يقول بأن الوورفية الشعبية، بكل ما تملكه على نحو مخلص من نوايا خيّرة، موقفٌ غير ناضج، ومرحلة على الطريق باتجاه التعامل مع اللغات كما هي عليه في الواقع، مرحلة نكون فيها مشغولين بعمق بالمشاغل القريبة من لحظتنا، وهي - في صميمها - ما يعوقنا عن الانتباه إلى الصورة الأكبر. ويمكن للتشبيه بكتابات القديس توما الأكويني أن يستمر هنا، في أنه مثلما أن التزاماته الدينية قد حرفته عما يعتبره الفلاسفة المحدثون مقاربة تجربوية بحتة، فإن الحماسة الحديثة للوورفية الشعبية متجذرة فيما يمكن أن يطلق عليه دافع ديني أيضا، وهو ولاء الشخص المفكر الحديث لإجلال التنوع، وتعزيزه، والدفاع عنه، بدلا من الاستهانة به.

وهو «دين» قد حسّن المجتمعات البشرية كثيرا بطرق لا تقدر بثمن. ولكن، كما بينتُ، فإن هذا الدين، بالنسبة للأمر المتعلق بالكيفية التي تعمل بها لغة معينة، ينحرف حتما إلى تصوّر جوهراني متناقض مع أي شيء يمكن للغالبية أن ينظروا إليه باعتباره تطلعا إلى المستقبل، وتجاوزا للصغائر، واحتفاء بالعادي، كله باسم تحقق لا يكاد أن يكون لموضوعه معنى.

وليست الوورفية الشعبية هي العَرَض الوحيد للتزحلق بين الوعي الشعبي والتجربي فيما يتعلق باللغة. فالمعيارية - أي الفكرة القائلة بأن ثمة أَشكال نحوية «سيئة»، وخاطئة على نحو لا مثنوية فيه علميا - مثالٌ آخر. فمن مظاهر كونك لسانيا الجهاد الدائم ضد الفكرة الشعبية القائلة بأنه من «المكسور» أن تقول: «Billy and me went to the store»

أو «Each student can hand in their paper» أو «There were less books there than I thought»[347]. فالفكرة القائلة بأنّ مثل هذه الأقوال «خاطئة»، على الرغم من أنها منتشرة على نطاق واسع - مما يجعلها تبدو لذلك معقولة - متجذرةٌ في مراسيم وضعها قبل قرون رجالٌ مطلعون، ولكنهم ذوو أفق محدود لسانيا، معتقدين أن الإنجليزية يجب أن تكون مثل اللاتينية، أو مساوين للمنطق اللغوي بالمنطق الرياضي بغض النظر عما إذا كان المنطق اللغوي يحقق هدفه في إيصال المعنى بدقة. وينتظر اللسانيُ اليومَ الذي يفهم فيه عامةُ الناس أن المعيارية التي نشأنا عليها ترتكز على وصايا وهمية ليس لها أساس علمي[348].

---

(347) هذه أمثلة لجملة تستخدم على نطاق واسع في الإنجليزية حاليا، ولكن يعدها أصحاب النزعة المعيارية خاطئة. والخطأ في الجملة الأولى هو استخدام الضمير «me» في موضع الرفع لأن الواجب في النحو المعياري هو استعمال ضمير الرفع «I» في هذا الموضع، والخطأ في الجملة الثانية هو ضمير الجمع «their» في العائد، في حين أن الواجب في النحو المعياري هو استخدام ضمير المفرد «his» أو «her» لأن كلمة «each» الموجودة في موضع الفاعل تدل على المفرد، والخطأ في الجملة الثالثة استخدام كلمة «less»، في حين أن الواجب في النحو المعياري هو استخدام كلمة «fewer» لأنها هي التي تستخدم مع المنعد كالكتب. والتفصيل في ذلك يتجاوز المقصود هنا. وللاطلاع على مناقشة تبين وجوه الاختلاف بين النحو المعياري والنحو الذهني من هذه الناحية، انظر: أسس اللسانيات النفسية، لإيفا فيرنانديز وهيلين كيرنز، ترجمة: عقيل الشمري، ص26.

(348) فيما يقوله المؤلف هنا جانب كبير من الصحة، ولكن كلامه ليس على إطلاقه، لا سيما فيما يتعلق بالعربية. فالأمر فيما يتعلق بالتمسك =

وكثير من أتباع الوورفية الشعبية موافقون للسانيين على ذلك، ولكن يفوتهم أن عامة الناس واهمون بنفس القدر في اعتقادهم أنه إذا كان في اللغات الأوروبيـة كلمتان تدلان على المعرفـة بحسب ما إذا كانت معرفةً للوقائع (ككلمة «savoir» الفرنسية، و«wissen» الألمانية) أم للأشخاص (ككلمة «connaître» الفرنسية، و«kennen» الألمانية)، فإن ذلك يعني أن متحدثي هذه اللغات أكثر تفطّنا لما يعرفونه من متحدثي الإنجليزية. ويفوتهم أنه ليس مما يخدم العامة أن يقال لهم بأن مجموعات السكان الأصليين الذين يتعين عليهم استخدام لاحقة ليقولوا من أين حصلوا على المعلومات أكثر تحرّصا في معرفة البيئة المحيطة بهم من غيرهم. فالفكرة خلّابة في حد ذاتها، ولكن ليس لها أساس حينما ننظر إلى الأشياء في مجموعها. وللتذكير - هل نعتقد حقا أن الأفارقة، الذين نادرا ما يكون لديهم مثل هذه اللواحق، ليسوا بحاجة إلى التنبه إلى الفوارق الدقيقة في بيئتهم؟

هل على منظورنا اللغوي أن يتقدم متجاوزا حالته الراهنة؟ هل ينبغي أن يتزايد تنوير الجمهور عن اللغة من خلال التعاليم الكتابية بالطريقة التي كان كانط يأمل أن يتقدم بها الفكر في مقالته الكلاسيكية

=بمستوى لغوي معين لا يقتصر على الجانب اللساني، بل يتجاوز ذلك إلى كثير من الجوانب الحضارية والدينية والتنموية التي لا يمكن إغفالها بحال من الأحوال، وتفصيل ذلك يتجاوز المقصود هنا. أما ازدراء المستويات اللغوية المختلفة واعتقاد أنها قاصرة بذاتها فينطبق عليه ما يقوله المؤلف تماما.

«ما التنوير؟»[349]. وإذا كان الأمر كذلك، فإليك وجوه الإغراء التي يجب أن نعيد النظر فيها.

لقد اتفق أن يكون للإنجليزية ولع بكلمة «get». وحينما نُسأل عما تعنيه «get»، فإننا نقول بكل سهولة بأنها تعني الحصول على شيء ما. ولكن الكلمة قد تسرّبت في جميع أنحاء اللغة بما يتجاوز ذلك بكثير. ففهم شيء ما يقال فيه «get it». والتغلب على شيء بالقوة يقال فيه «get i» - « I'm going to get you». والدخول في حالة معينة يقال فيه «get». وجعل شخص معين يعمل شيئا ما يقال فيه «get». وإن كان عليك الذهاب تقول «get to go». بل يقال أيضا «get fired/ [أي فصل من عمله]»، و«get hurt» [أي أصابه الضرر].

وثمة ما يغري بالتعامل مع ذلك باعتباره دليلا على شيء يخص متكلم الإنجليزية. وربما يذهب أكاديمي ميّال إلى ذلك جدا إلى أن هذه المعاني لكلمة «get» تشير إلى واقع إثنودلالي كاشف، يعبر فيه متحدثو الإنجليزية عن توجه ثقافي جذري عبر استخدامهم الخاص لما يبدو، على السطح، كليمة صغيرة غير ملحوظة.

---

(349) «ما التنوير؟» مقالة للفيلسوف الألماني الشهير إيمانويل كانط، وهي مترجمة إلى العربية. وفيها يرى أن التنوير - بمعنى انعتاق المرء من حالة القصور التي يفرضها على نفسه بالنسبة لاستعمال العقل - لا يتحقق عن طريق الثورات المفاجئة، وإنما يتحقق عن طريق الإصلاح التدريجي لطرق التفكير من خلال المخاطبة العامة للجماهير بما يخدم هذا الهدف.

ولقد اتفق حقا أن لدى اللسانية آنا فيرزبيكا فكرة من هذا القبيل. فهي تشير إلى أن جملا مثل: «She got him to do it» و«She got mad» و«She got herself kicked out» تحمل كلها معنى ضمنيا بأن شخصا تعرض لشيء ما أو مر به من دون أن يقصد. وترى ذلك كنتيجة للديمقراطية الموجودة في كل مكان، والتي يحتاج بموجبها «النوع الإداري الجديد للمجتمع» إلى «نطاق متزايد من علاقات التسبب فيما بين الأشخاص»، مما تميز اللغة بموجبه فروقا دقيقة من قبيل ما إذا كان الشيء المراد قد أُحدث بقصد من الشخص المعني أم لا. وهي تفترض أيضا أن صياغة الديموقراطية لثقافة تركز على الاستقلال الشخصي - أو قمعه - تشجع بشكل أكبر على ازدهار نوعية أبنية «get» هـذه[350].

وغالبا ما يُعتقد أن فيرزبيكا، في حجج كهذه، قد بينتْ، من دون أن تكون ضحية للوورفية الكاركاتورية، أنه حتى الإنجليزية يمكن أن تُعْلِمنا كيف تعكس اللغةُ الثقافةَ. وهي تستحق الثناء لمغامرتها في هذا الصدد، في مقابل التجاهل المعتاد الذي أشرتُ إليه في

(350) ملخص فكرة فيرزبيكا هو أن الديموقراطية في المجتمع الأنغلوفوني الحديث أدت إلى أسلوب جديد من العلاقات بين البشر وتفاعلاتهم يتضمن زيادة في علاقات التسبب فيما بين الأفراد مع الحفاظ على استقلالهم، مما أدى إلى زيادة أبنية التسبب أو الجعل، ومن بينها زيادة استعمال كلمة «get» في هذا المعنى. وهذا المنحى في التفكير يشبه من بعض الوجوه ما أشرنا إليه في التعليق على الفصل الثاني من الربط بين أبنية التعدية في اللغات السامية، وأسلوب حياة الساميين الذين يقوم على جعل الآخرين يقومون بتنفيذ الأشياء التي يريدونها!

الفصل الرابع بشأن الكيفية التي تقوم بها إنجليزيتنا المعتادة بـ «تشكيل تفكيرنا». غير أن استنتاجاتها، بقدر ما لديها من بصيرة، تعتمد إلى حد كبير على بضع لغات تُتحدث في أوروبا. ومن المؤكد أننا بحاجة إلى عينة أكبر لتحديد ما إذا كان ولع الإنجليزية بكلمة «get» له علاقة بكون المرء «أنغلوساكسونيا/ Anglo-Saxon»، أو حتى أنغلويا/ Anglo، كما تقول هي غالبا، في مقابل الصدفة المجردة.

وقد اتفق أنه يوجد العديد من اللغات في جنوب شرق آسيا، التي تتحدثها مجموعات صغيرة من السكان الأصليين، تعيش وفقا للتقاليد الزراعية التي تعود إلى آلاف السنين، وانزلقت فيها «get» متجاوزة حدودها، لتتخلل تلك اللغات على نحو مشابه لما حدث في الإنجليزية. ففي لغات مثل «مونغو» و«آلاك» و«براو» و«تشوانغ»[351]، لا يقال: حصل/ gets فلان على هدية من شخص آخر فحسب. فعندما يتعين على المرء أن يذهب إلى المنزل، يستخدم التعبير المشابه لـ «get»، وإذا كان يستطيع الرقص، وبدأ يرقص يستخدم ذلك التعبير أيضا، وإذا كنت صاحب مشي بطيء، فإن شخصا آخر سيستخدم «gets» للدلالة على أنك شخص قد بدأ يمشي ببطء، وغيرها. والجدير بالذكر أن معظم هذه المعاني تنطوي على شخص يمر بشيء

(351) مونغو/ Muong لغة آسيوية يتحدثها قريب من مليون شخص في فيتنام، وآلاك/ Alak يتحدثها قريب من 4 آلاف شخص في لاوس، وبراو/ Brao يتحدثها قريب من 50 ألف شخص في كمبوديا ولاوس، وتشوانغ/ Zhuang يتحدثها قريب من 16 مليون شخص في جنوب الصين.

على نحو غير متوقع أو غير مقصود، تماما كما تدل عليه أبنية «get» في الإنجليزية.

ثم إن هذا الانتشار لـ «get» شائع أيضا في اللغات «النجمية»[352] في المنطقة كالتايلندية، والفيتنامية، واللاوسية، وهي لغات ذات مسيرة تاريخية مختلفة تماما عن مسيرة اللغات المغمورة. وقد نفترض، عندما نطلع على الولع بـ «get» في اللغات المعروفة فقط كالتايلندية، أن للهيمنة التجارية والثقافية لمتحدثيها علاقة بتكريسهم لاستخدام هذه الكلمة في معنى «اكتسب»، على غرار ما يُفْترض أنه قد حدث في الإنجليزية. ولكن اللغات المغمورة الموجودة في التلال، والتي هي أيضا مهووسة بـ «get» بقدر هوس الإنجليزية بها، تعترض السبيل نحو التوصل إلى معنى وورفي لهذا الموضوع.

إن التفسير المنسجم الوحيد لكون هذه اللغات قد أصبحت كما هي عليه هو المصادفة. إذ قامت بتوسيع المجس المرتبط بمعنى «get»، بدلا من واسمات التوثّق، أو امتلاك كلمتين مختلفتين للأزرقين الغامق والفاتح، أو كلمات مختلفة لـ «أكل» بحسب ما يوجد في فمك. إنك لن تعرف أبدا أين ستظهر الفقاعة في الحساء - سيداتي سادتي، هذا كل ما في الأمر.

(352) «اللغات النجمية» معناها اللغات الأكبر حجما التي تدور حولها لغات أصغر منها، على سبيل التشبيه بمنظومة الكواكب والنجوم الفلكية، وللاطلاع على مناقشة للمنظومة العالمية للغات بحسب هذا المنظور، انظر: «كلمات العالم: منظومة اللغات الكونية» لأبرام دو سوان، ترجمة: صديق محمد جوهر.

ومما يشبه ذلك أن الصحفية آمي ويلنتز قد وصفت بتبصّر كيف أن التاريخ المؤسف لهاييتي قد استلزم تقاليد المداجاة المخاتلة في الثقافة المحلية، ولكنها تعاملت بعد ذلك مع استعمال الكريولية الهاييتية[353] كلمة واحدة للدلالة على «she/ هي» و«he/ هو» و«it»، وكلمة واحدة للدلالة على «we/ نحن» و«you all/ أنتم» باعتباره عَرَضا لسانيا لذلك، وهو افتراض معقول[354]. ولكنه غير صحيح أيضا، فالارتباط مجرد صدفة.

فالصينية والفنلندية فيهما ضميران شاملان لـ «he/ هو» و«she/ هي» و«it» رغم أن ماضي أمتيهما وحاضرهما مختلفان جدا عن حالة هايتي. وفي الوقت نفسه، كثير من اللغات المضطربة من ناحية تاريخية كاضطراب هايتي لديها ضمائر تقسم الواقع بشكل أكثر دقة مما هو موجود في الإنجليزية أيضا، ككثير من اللغات في البحار الجنوبية التي تملك كلمات مختلفة لما يدل على المتكلم والمخاطب فقط، وما يدل على المتكلم والمخاطب وشخص غائب، وما يدل على

(353) سبق التعريف بمعنى «اللغة الكريولية» في التعريف بلغة «سارامكن» سابقا. واللغة المستخدمة في جمهورية هايتي من هذا النوع، بل هي أكبر اللغات الكريولية في العالم اليوم، إذ يتحدثها قريب من 12 مليون شخص. ومعظم مفرداتها مأخوذة من الفرنسية، وأما نحوها فيستند إلى بعض اللغات الأفريقية، بالإضافة إلى تأثيرات أخرى مستمدة من الإسبانية والبرتغالية.

(354) ملخص هذه الفكرة أن متحدثي الكريولية الهايتية يستخدمون ضمائر مبهمة بسبب ما عاشوه من ظروف مأساوية جعلتهم يميلون إلى التمويه والمراوغة.

المتكلم والمخاطب وأكثر من شخص غائب، حيث لا نملك في الإنجليزية إلا «we/ نحن».

وفيما يتعلق بالضمير الواحد لـ «نحن» و«أنتم»، فإن الهاييتية قد أخذته من اللغة الأفريقية التي كان يتحدثها كثير من منشئيها قبل ثلاثمائة عام. ولا يوجد تحليل إناسي لهؤلاء الناس، المعروفون بشعب الفون البنيني[355]، يصور ثقافتهم بأنها تقوم على التمويه والمراوغة - فهم ينتمون إلى ثقافة أصلية تعود إلى آلاف السنين، وُلِدت ضمائرها الضبابية بصورة ليس لها صلة بضرورات العبودية الزراعية. فتصادف أن يكون الضميران الدالان على «نحن» و«أنتم» في هذه اللغة متماثلين - تماما كما حدث في الإنجليزية الجَذِلة القديمة لبعض الوقت، فلقد كان «he/ هو» و«they/ هم، هن» كلمة واحدة لمدة من الوقت، كما رأينا في الفصل السابق. ولا أحد يعتقد أن ذلك له أي علاقة بإشعال الفلاحين البريطانيين للدخاخين اللغوية المفتعلة[356]، لقد حدث ذلك فحسب لأن هذا هو ما تتأدى إليه اللغات من حين لآخر حيث تذوي الأصوات مما يؤدي إلى المشتركات اللفظية. مجرد مشتركات لفظية - وكل اللغات فيها ذلك، وإذا كان المشترك اللفظي بين «May/ مايو» و«may/ قد»

(355) شعب الفون مجموعة عرقية أفريقية، يتكلمون بلغة تحمل الاسم نفسه، في بنين ونيجيريا وتوغو.

(356) استعارة تعني التمويه المتعمد، كما يفعل الجنود حينما يطلقون ستارا دخانيا للتمويه على الأعداء.

في الإنجليزية مجرد مشترك لفظي[357]، فإن العبء يقع على عاتق الوورفيين لشرح السبب في كون المشترك اللفظي بين «nou» الذي يعني نحن في الهاييتية، و«nou» الذي يعني «أنتم/ أنتن» له سبب ثقافي.

إن ضمائر الهاييتية لا علاقة لها بثقافة الهاييتيين. ولا يبدو الأمر كذلك إلا لأننا نسلط الكاميرا لنرى الهاييتية الكريولية فقط وقلة من اللغات الأخرى التي تصادف أننا نعرفها جيدا. وبالتأكيد لا يمكن لوم ويلنتز لعدم معرفتها ذلك. فهي صحفية عالية المستوى لا تدعي أنها لسانية، وأُخِذَت ببساطة بالتيار الوورفي الذي يُؤْخذ به المثقفون في زماننا. فاللسانيون وحدهم هم الذي لديهم أسبابهم للاطلاع على اللغة كما تتشكل في أنحاء العالم. وإذا كان الناس يعلقون الثوم في مداخل المنازل لدرء نزلات البرد، فإن ذلك خطأ المؤسسة الطبية لعدم نشر الحقيقة. وبنفس الطريقة، فإن الرؤى الوورفية الشعبية كرؤى ويلنتز ليست غلطتها.

إن اللسانيين والإناسيين وعلماء النفس هم المسؤولون عن تنوير الجمهور بأن اللغة لا تتبع الثقافة بالطريقة التي نتوقعها. وإن كانت ستظل التجربوية هي غايتنا إلى الأبد، فمن الأهمية بمكان أن تظل اللغة شيئا ملهما من دون تشويهات الوورفية الشعبية. ومع حفاظنا على المسعى التنويري، يمكننا أن نمضي قُدُمـا.

---

(357) المشترك اللفظي مصطلح لغوي يدل على الكلمات المتشابهة في النطق، ولكن لها دلالات مختلفة، مثل كلمة «خال» التي تعني أخو الأم، والشامة.

أعاجيب التماثل

إن الحقيقة هي أن وطأة اللغة خفيفة جدا على التفكير. ومن البراهين على ذلك الكيفية التي تتحول بها معاني المصطلحات بسرعة تبعا لأنماط التفكير. وقد اقترح، على سبيل المثال، اللساني في جامعة كاليفورنا جورج لايكوف[358]، كما هو معروف، أن الحزب الديمقراطي يمكنه أن يجتذب عددا أكبر من الناخبين عن طريق تغيير التسميات التي يطلقونها على الأشياء ذات الأهمية السياسية، كتسمية «ضرائب الدخل/ income taxes» بـ «رسوم العضوية/ membership fees» و«المحامين القضائيين/ trail lawyers» بـ «وكلاء الحماية العامة/ public-protection attorneys». ويبدو أن فكرة لايكوف قد أصبحت أقل إلحاحا منذ أن خلقت ظاهرة باراك أوباما صعودًا ديمقراطيًا من تلقاء نفسها، لكن كان من الممكن أن يكون لهذه الفكرة تأثير مؤقت في أفضل الأحوال. فالمصطلحات لا تشكل التفكير، بل تتبعه.

---

(358) جورج لايكوف لساني شهير، وهو أستاذ اللسانيات العرفانية في كالفورنيا بيركلي، وقد تُرْجِم له إلى العربية كتابا «الاستعارات التي نحيا بها» و«الفلسفة في الجسد». وله كتاب «لا تفكر بفيل» عن الخطاب السياسي المستخدم في الحملات الانتخابية في أمريكا، وفيه يرى أن الكلمات التي يستخدمها السياسيون تحمل معها إطارا معينا ورؤية للعالم، ومن ثم فهو ينصح الديمقراطيين الذين يؤيدهم بأن يتجنبوا استخدام كلمات الجمهوريين لكي لا يقعوا في فخ ما تحمله من أطر.

تأمل مصطلحا مثل«affirmative action/ إجراء تأييدي»[359]، مما أصبح الآن مألوفا جدا لدرجة أننا نادرا ما نتوقف لتحليل ما تعنيه الكلمات الفعلية التي يتألف منها: «يؤيد/ affirming» ماذا؟ وأي نوع من الإجراء/ action؟ لقد كان المصطلح ماكرا ولطيفا، مما يعطي جوا إيجابيا وبناء لسياسة طالما كانت مثيرة للجدل. لاحظ، مع ذلك، أن معارضيه السياسيين سرعان ما أصبحوا يربطون المصطلح بالمشاعر السلبية نفسها التي كانت لديهم تجاه السياسة التي يشير إليها، بحيث أنه يلفظ اليوم باحتقار لدى كثيرين. ومصطلح «welfare/ الرفاه»[360] مشابه لذلك. إن التباين بين المعنى الأساسي للكلمة وارتباطاتها السياسية الحديثة له دلالته، حيث يمكن للمرء بسهولة أن يتخيل لايكوفاً في الثلاثينيات من القرن الماضي يقترح بالضبط كلمة «welfare/ الرفاه» لتسمية «المساعدة الحكومية». والجدير بالذكر أن مصطلحا آخر للسياسة نفسها، وهو «home relief» اتخذ المشاعر السلبية نفسها بسرعة. وعلى هذا النحو، إذا كانت قضية

(359) «إجراء تأييدي» هي الترجمة المباشرة للمصطلح الإنجليزية affirmative action، والمقصود به برنامج سياسي معين يسعى لمواجهة تمييز وقع في الماضي، لأسباب عنصرية أو نحوها، من خلال تدابير فعالة تتضمن تفضيل من تعرضوا للتمييز سابقا على غيرهم لمعالجة الوضع الراهن الناتج عن التمييز وتلافيه في المستقبل.

(360) مصطلح يشير في لغة السياسة إلى ما تقدمه الدولة من رعاية ومساعدات مالية للمحتاجين، وقد شاعت في الثلاثينيات لتسمية بعض الإصلاحات الاقتصادية التي اتخذتها الدول الرأسمالية لمواجهة المد الشيوعي وآثار الركود الاقتصادي.

ما تجتذب مواقف رافضة لدى فئة معينة، فإن تلك المواقف دائما ما تلتصق بأي مصطلحات جديدة تستعمل في الدلالة عليها. وسرعان ما حدث ذلك لمصطلحات كانت مقصودة على نحو ملحّ مثل «male chauvinist/ الشوفينية الذكورية» و«women's liberation/ تحرير المرأة» وكذلك «special education/ التربية الخاصة».

إن تغيير المصطلحات يمكن أن يؤدي دورا أوليا في تحريك الرأي، مثل تسبب الإله في دوران الفلك في الفلسفة الربوبية. ولكن ما يخلق التغيير حقا هو المجادلة، بالإضافة إلى التحركات السياسية اللازمة. فالمصطلحات وحدها تتطلب التجديد المستمر، لأن المعارضين سرعان ما «يطّلعون» على النوايا المخاتلة لآخر ما يتم سكه منها، فيُغَطّون المصطلح القديم بالجديد، ويطبقون عليه المواقف نفسها التي طالما كانت لديهم. فلا يمكن للغة أن تسيّر الثقافة إلا في سياق استبدادي يفوق التصور حيث تكون المعلومات المتوفرة للمواطنين شحيحة جدا على نحو يجعل الفكر والخيال البنّاء شبه مستحيلين. وهذا هو ما يجعل أورويل و1984م[361]، والمراجع المتوقعة في هذه المرحلة من النقاش، ليست ذات صلة حقا هنا. فاللغة

(361) 1984م رواية مشهورة للكاتب الإنجليزي المعروف جورج أورويل نشرت عام 1949م، وهي مترجمة إلى العربية، وتتحدث عن حزب استبدادي يحكم دولة متخيلة اسمها «أوقيانيا»، ويتحكم في جميع مفاصل الحياة، بما فيها اللغة، التي يفصّلها بطريقة معينة لمنع التفكير بأي شيء لا يريده الحزب.

في العالم الواقعي تتحدث عن الثقافة، ولا يمكن أن تخلقها[362].

إن اللغات، بدلا من أن تكشف كل واحدة منها عن منحى مختلف للتفكير - فيما عدا وجود تسميات للأشياء الثقافية - هي بالأحرى تنوعات للمنحى نفسه من التفكير: وهو التفكير البشري. وقد يبدو هذا غير مثير، ولكن التجانس يمكن أن يكون أكثر إثارة للاهتمام مما يبدو. فتفشّيه بين البشر، من ناحية مضادته للحدس، عبرةٌ تفوق التنوع.

إن قائمة الإناسي دونالد براون عن الكليات الإنسانية لا تقدر بثمن هنا[363]. ولن يكون من المفاجئ أن البشر جميعا لديهم فنون،

(362) المؤلف محق تماما هنا في أن طريقة استعمال اللغة لا تجبرك على التفكير بطريقة معينة إلا في ظروف غير معقولة أبدا، ولكنه من ناحية أخرى يهوّن من أثر الخطاب أو طريقة استعمال اللغة في الإقناع والتضليل وما يشبه ذلك. صحيح أن أثر اللغة في هذا الصدد قد يخضع للمراجعة والنقد، وهو الموضوع المعرفي لما يسمى «التحليل النقدي للخطاب»، ولكن قد لا يتهيأ نقد الخطاب لكل الناس في كل الظروف، فتؤثر اللغة في طريقة رؤيتهم للأشياء من هذا الوجه، وهو ما يسميه تشومسكي «مشكلة أورويل». ولجورج أورويل مقالة مهمة في هذا الصدد بعنوان «السياسة واللغة الإنجليزية»، وهي مترجمة إلى العربية. بيد أن هذا لا علاقة له بالوورفية لأنه يحدث داخل اللغة الواحدة وفي المجتمع الواحد. وللاطلاع على مناقشة لبعض المسائل المتصلة بهذا الموضوع، انظر: «اللغة والسلطة» لنورمان فيركلف، ترجمة: محمد عناني.

(363) المقصود بذلك الخصائص الموجود لدى البشر جميعا في كل الثقافات. وقد نشر براون عن ذلك كتابا سيذكره المؤلف ضمن مراجع هذا الفصل. وللاطلاع على قائمة بهذه الكليات يمكن الرجوع إلى الملحق الختامي في كتاب: «الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية» لستيفن بنكر، ترجمة: محمد الجورا.

ويستخدمون الأدوات. بيد أن كثيرا من الأشياء التي تم العثور عليها لدى جميع المجموعات البشرية في كافة أنحاء العالم ليست مما يتوقعه المرء، وتجعل المرء يشعر بأنه جزء من جنس يتحدد بما هو أكثر بكثير من السحنة الخارجية وغريزة البكاء لدى الطفل. فلدى جميع المجموعات ما يكافئ الزواج، مثلا، فلا يوجد أبدا مكان ينخرط فيه الناس في ممارسات جنسية غير رسمية لا غير. وجميع البشر لديهم خوف خاص من الثعابين. وجميع المجموعات لديها نوع من الغناء المرتبط بالأطفال ورعايتهم. ولا توجد مجموعة بشرية لا تنغمس أحيانًا في نوع من المنشطات أو المسكرات. وتعبيرات الوجه التي تصدرها المرأة عند المغازلة هي نفسها في جميع أنحاء العالم. واعتبار إخراج الفضلات والجنس عورات سرية ليس مجرد «تقليد» غربي، بل يوجد لدى البشر جميعا في كل مكان. ومن الناحية اللغوية، تقول بعض اللغات «ليس جيدا» للسيئ، و«ليس واسعا» للضيق، ونحو ذلك، ولكن لا يوجد في أي منها مصطلحات منفية تكون هي الأصل للتصورات الأساسية من هذا القبيل: فلا يوجد في أي لغة «ليس سيئا» للجيد، و«ليس ضيقا» للواسع.

ومن الأمثلة الأخرى مثال مما أفضله. فلقد خلق متحدثو لغة سارامكن الكريولية في الغابات السورينامية المطيرة، التي ذكرتها سابقا، فنونَهم، كما يفعل البشر جميعا. ويستحسن هواة جمع التحف سلالهم ومنسوجاتهم ومنحوتاتهم، معتقدين أنها شهادات على تقاليد أصيلة عتيقة. فيخيل لنا أن شعب سارامكا يمرر التقاليد الفنية نفسها من

جيل لآخر، بحيث يواصل النحات اليوم تقليد أسلافه البعيدين حينما تشكل المجتمع في سورينام في القرن السابع عشر.

ولا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك. ففنانو سورينام، رغم أنهم منغمسون تمامًا في احترام أسلافهم، ليس لديهم رغبة أكثر من غيرهم لإنتاج الأنماط نفسها سنة بعد أخرى. فالفن يتغير لديهم، تماما كما يتغير لدى أي نحات آخر في باريس أو لوس أنجلس، أثناء حياة الفرد وعلى مر الأجيال. والسلة المحوكة قبل مئة سنة يُنْظَر لها على الفور عندهم باعتبارها موضة قديمة، وليست شيئا مما قد يصنعه أي حائك اليوم.

وقد قال فنان سورينامي لأحد الباحثين الإناسيين، بعد أن ذكر التحديث المستمر في الغرب:

«حسنا، يا صديقي، هو الشيء نفسه في منحوتاتنا. فجيل عمّي لم يكونوا يعرفون سوى كيفية صنع تلك التصميمات الكبيرة الخشنة - تلك التي نسميها «عيون البوم» و«عيون النمر»- ولكن لم يتوقف الرجال منذ ذلك الحين عن إجراء التحسينات. كل عام تقريبا هناك شيء جديد، هناك شيء أفضل. حتى اليوم».

وينزعج القوم أيضا نوعا ما من فكرة جَمَعَة التحف الغربيين التي ترى أن عملهم يجب أن يكون له «معان» عجيبة أو غريبة حول أشياء مثل الخصوبة أو السرمدية الثنائية. فبالنسبة لهم أعمالهم الفنية هي... فن، صُمّم بالطريقة التي هو عليها نتيجة للدافع الإبداعي البشري الأساسي.

إن أشياء مثل كليات براون والفن السورينامي توضح لنا إذن أن التنوع ليس هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون به البشر مثيرين للاهتمام. ولا شك أن جزءا من احتضان التنوع يعود إلى فهم مدى التجانس الذي يحدث فيه.

ألا تكون اللغة مضجرة حينئذ؟

إن اللغة توضح هذا التجانس بشكل حيوي للغاية. قد يجد البعض أن هذا الاقتراح أقل إغراء، وأقل رومانسية، وأقل إثارة للاهتمام من الاقتراح الوورفي. بل إن بعضا مما يعطفنا نحو الفكرة القائلة بأن كل لغة هي رؤية مختلفة للعالم أنّ عنصرا من الرومانسية يضيع من دون ذلك.

وغالبا ما يسمع المرء، على سبيل المثال، قول أحدهم: «عندما أتكلم اللغة س، أكون شخصا مختلفا». ومع ذلك، فليس من قبيل الصدفة أن الأشخاص الذين يقولون ذلك غالبا ما يكونون ممن تعلم تلك اللغة في الكبر. والسبب الذي يجعلهم «مختلفين» في اللغة الثانية هو أنهم لا يتكلمونها سليقيا. ويترتب على ذلك بطبيعة الحال أنك إذا قمت بالتحقيق قليلاً وطلبت من الشخص أن يصف كيف يكون مختلفا في اللغة الثانية، فعادة ما يقول بأنه ليس بنفس القدر من اللوذعية، أو أنه أكثر فجاجة - وذلك هو بالضبط ما يتوقعه المرء من شخص طلق ولكنه ليس سليقيا.

غير أنه يوجد مع ذلك تساؤل بشأن كيفية اختلاف اللغات - أي بشأن مدى اختلاف اللغات في التعبير عن عملية العرفان الأساسية

نفسها التي تسمى «الإنسانية». ولا يمكن إنكار أن بعض اللغات تحشد في الجملة العادية ملحوظات أكثر من غيرها: فالفرق بين ما توجب عليك لغة أمريكية أصلية أن تقوله وما توجبه عليك جملة عادية في الماندرين الصينية واضح. غير أنه يمكن للمرء في كل لغة، إذا لزم الأمر، أن يقول أي شيء، ومن المثير للإعجاب ملاحظة مدى تباين اللغات في تحقيق هذه الإمكانية.

إليك مثلا جملة إنجليزية:

Should we make them help to take it away?

هل ينبغي أن نجعلهم يساعدون في إبعادها؟

وطريقة التعبير عن ذلك في لغة تسمى لاهو[364]، يتحدث بها في بعض القرى جنوب الصين والبلدان المجاورة، كالتالي: «We help take go send give correct yes?/ نحن ساعد أخذ ذهب أرسل أعطى صحيح نعم؟».

ولغة لاهو، كالصينية، واحدة من تلك اللغات التي ليس فيها لواحق تصريفية، ولذا فهي من نوع اللغات التي يفترض المرء بكل بساطة أنْ لا نحو فيها. فلا نرى (أو نسمع) في لغة لاهو إلا كلمات قصيرة تصطف معا كالخرز: «Ṇàh ga yù qay c pî c ve lâ?».

إنها تبدو مخالفة تماما لكل ما نعرف بأنه نحو، بحيث أن كثيرا مما يكوّن الجملة في لاهو مجرد أفعال تجري معا كعربات القطار:

(364) لغة لاهو/ Lahu من اللغات التبتية التي يتحدث بها كما ذكر المؤلف في جنوب الصين وبعض البلدان الأخرى المجاورة في جنوب آسيا، ويبلغ عدد من يتحدثها قريبا من 600 ألف شخص.

- ساعد / help - take - go - send - give - correct أخذ - ذهب - أرسل - أعطى - صحيح - فكيف يعني ذلك: «Should we make them help to take it away? / هل ينبغي أن نجعلهم يساعدون في إبعادها؟»؟.

ولكنها تعني ذلك، بكل دقة. ففي حين أن الإنجليزية تستخدم «الكليمات الصغيرة» كالأدوات والحروف[365]، فإن لغة لاهو بدلا من ذلك تستثمر الأفعال استثمارا ثريا في معان ثانوية. فـ «go/ ذهب» تعني «away/ بعيدا». و«send/ أرسل» تعني «make/ جعل» كمثل أن يكلّفوا بشيء لغرض معين - ويمكنك أن تشعر كيف أن «send them/ إرسالهم» يصبح معناها «make them/ جعلهم» تماما كما في الإنجليزية. و«give/ أعطى» تعني أن الإرسال - أي، الجعل - موجه لشخص ما، وكإشارة على مدى إخفاء اللغات لنحوها، فإن الكلمة الدالة على «give/ أعطى» لا تستخدم إلا مسندة إلى الغائب، ولذا فإنها تدل بالنسبة لمتحدث لغة لاهو تلقائيا أن من يُجْعل هو شخص ثالث، وليس أنا ولا أنت.

---

(365) والعربية مثل الإنجليزية من هذه الناحية، رغم ما بينهما من اختلاف في بعض التفاصيل. ومن ذلك مثلا أن العربية تعبر عن الاستفهام بالأداة، في حين تعبر عنه الإنجليزية بقلب الترتيب بين الفعل والفاعل، وبهمزة التعدية في «إبعاد» عما تعبر عنه الإنجليزية بعبارة «take away/ يأخذ بعيدا» المكونة من الفعل والظرف معا، ومثل ضمائر المطابقة الصرفية التي ليس لها وجود في الإنجليزية، ونحو ذلك من التفاصيل التي يخرج تتبعها عن المقصود من بيان مقصد المؤلف.

أي أن هذه الجملة تحمل إشارة إلى «them/ هم»- ولكن ليس في المكان الذي اعتدنا على النظر إليه. و«correct/ صحيح»، الموسعة بالطريقة نفسها التي وُسّع بها الفعل «send» ليدل على «make»، تعني «should».

ولغة لاهو مليئة بالمفاجآت. فكلمة «yes/ نعم» الأخيرة ليست تكلفا عشوائيا، وترجمتي فضفاضة أيضا - إنها حقا كلمة لا بد أن تُذَيّل بها الجملة من أجل الإشارة إلى أنها استفهام: وفي ذلك مزيد من النحو، فهي مكافئة بشكل مباشر للقلب في اللغة الإنجليزية بين «should» و«we» للدلالة على المعنى نفسه (should we...?). وأخيرا، لقد أغفلتُ في الترجمة (ve) الصغيرة المشهورة بعدم قابليتها للترجمة، والتي ترد عقب جميع الأفعال. ووظيفتها مراوغة للغاية، لدرجة أن الخبير العالمي في هذه اللغة، زميلي السابق جيم ماتيسوف، كتب مقالا عن تعقيداتها معنون بإتقان: «Oy, ve!/ يا إلهي يا «ve»!». ولكن الجوهري في ذلك هو أن صياغة السؤال في لغة «لاهو» تقتضي أن يُجْعل كله في صيغة من شاكلة المصدر، على نحو يشبه شخصا إسرائيليا عرفته فيما مضى، وكان مستجدا في الإنجليزية فعرض سيجارة على صديق آخر وهو يسأله: «smoking!/ تدخين!» بدلا من «want to smoke?/ تريد أن تدخن؟». فجملة السؤال في لغة لاهو تكون تقريبا كالتالي:
Us being obliged to make them help take it away, hmm/ إلزامنا بجعلهم مساعدين في إبعادها، هه؟. وهناك بعض

القواعد المماثلة في اعتباطيتها لكون «should» في الإنجليزية فعلا غير منتظم.

فلغة لاهو، إذن، مثيرة للاهتمام في كيفية تعبيرها عن الأفكار نفسها التي تعبر عنها الإنجليزية، ولكن بآلية مختلفة إلى حد كبير كالآلية التي وصفناها. ولو أن لاهو كانت معرضة للانقراض، وهي لحسن الحظ ليست كذلك في الوقت الحالي، لكان مجرد كونها رائعة جدا هو نفسه بكل بساطة مبرر لتوثيقها على أقل تقدير.

ومع ذلك فإن الدعوى الأكثر رجحانا في روح العصر الحديث هو أن لاهو قيّمة باعتبارها نافذة على طريقةٍ في رؤية العالم - أي أنها تجسد رؤية للعالم بحسب الطريقة التي تعمل بها جملتها. ونعود هنا إلى أنواع ما قد رأيناه من الأشياء في هذا الكتاب: فلاهو فيها مصنفات للمادة كالصينية واليابانية، وفيها واسم توثّقي أو اثنين، ونحو ذلك. ولكن فكرة أن نحو لغة لاهو يشكل طريقة للتفكير ستقودنا في نهاية المطاف إلى أزقّة عمياء أصبحت مألوفة للقارئ الآن. ولسنا بحاجة حتى للتريث عند الفكرة المتفضّلة في نهاية المطاف القائلة بأن رصف لغة لاهو للأفعال بدلا من استعمال حروف الجر والظروف يعني أن متكلميها أكثر «نشاطا» أو «حيوية» أو «مباشرة» من متكلمي الإنجليزية، ولا أن نتوقف عند عدم وسم لغة لاهو للزمن الماضي: فإنْ كان عدم وَسم المستقبل يعني ادخارا أكثر، فإن ذلك قد يعني أن متكلمي لاهو أكثر إقبالا على الماضي؟ ومثلما تستخدم اليابانية المصنف نفسه لأقلام الرصاص والبيرة والمكالمات الهاتفية، تستخدم لاهو المصنف

نفسه للشهور والخصيتين - وسيكون من المثير للاهتمام اكتشاف ما يمكن أن يقوله ذلك عن متكلمي لاهو كبشر!

وهكذا دواليك. إن نحو لاهو نظامٌ معقد بشكل رائع بحد ذاته. هل مما يُحَدِّد ثقافة معينة أن تمتلك لغة متفردة؟ لا شك في ذلك. بيد أنه لا يترتب على ذلك، أن اللغة هي الثقافة التي صيغت كأنماط جملية وتجميعات من الكلمات. فالكيفية التي تعمل بها اللغة في علاقتها بجوهر ثقافة ما وخصوصياتها شبيهة بالزركشة.

ماذا بعد؟

يوجد أولئك ممن لا يقنعهم قولٌ مثل هذا. وقد يتعجبون من أن شخصًا قد كتب بحماس شديد عن التنوع بين لغات العالم في كتب مثل «قوة بابل/ The Power of Babel» و«ما اللغة/ What Language Is»[366] يمكن أن ينكر العلاقة الوثيقة بين اللغة والثقافة.

بيد أن هذا الكتاب ملائم تماما لهؤلاء. فأنا لا أنكر أن اللغة والثقافة مرتبطتان. بل أشكك بنوع خاص من الارتباط بين الاثنتين، تكون فيه السمات النحوية وتكوينات المفردات، مما لا يعتبره أي متحدث أصلي لافتا للنظر على الإطلاق، شرطا يؤدي على نحو مزعوم إلى طريقة في معالجة الحياة. والتشكك في هذه الفكرة لا يعني الاصطفاف مع التشومسكيين الذي يختزلون اللغة إلى تكتل ضئيل من السمات الفائضة تسمى «جهاز اكتساب اللغة»، ولا عدم

(366) هذان كتابان للمؤلف، أولها عن تاريخ اللغات، وصدر عام 2001م، والثاني عن طبيعة اللغة، وصدر عام 2011م، ولم يترجم أي منهما إلى العربية فيما أعرف.

احترام للأعمال الهائلة في الإناسة اللسانية، واللسانيات العرفانية، وفلسفة اللغة.

وهناك طرق أخرى يمكن أن يتعرض بها الاحتجاج الذي قدمته إلى إساءة التفسير، لا سيما في ضوء الاعتراضات السابقة على الوورفية، ووجوه الدفاع التي اعتاد أتباعها على تقديمها. فمثلا، الإصرار التقليدي على أنه لا أحد قد ادّعى أن اللغة تحدد الفكر قطعا غير نافع هنا. فهذا النوع من الادعاء شيء متهافت لم يقل به أحد تقريبا، وهو باطل بشكل واضح مما يجعل الانشغال به لا يخدم أي هدف. ولقد أقررت في مقدمتي أنه لا يوجد أحد من أتباع الوورفية يطرح مثل هذه المزاعم التبسيطية، وقدمتُ بدلا من ذلك احتجاجا محددا: وهو أنه حتى الفكرة القائلة بأن اللغة تجعل الناس بصورة بالغة أكثر «عرضة» للتفكير بطرق معينة محفوفة بالمخاطر - كما في المزاعم التي يقودنا إليها ذلك قَسْرا فيما يتعلق بالصينية ولغات آسيا الشرقية، على سبيل المثال.

أخيرًا، لم أرفض العمل الأكاديمي الذي يُظْهر أن طريقة عمل اللغة يمكن أن يكون لها بعض التأثير على الفكر. لقد أقررت مرارًا وتكرارًا بهذه الدراسات وأشدتُ بها، لدرجة أنني حاولت أن أفرض تمييزا بين الوورفية الأكاديمية والوورفية الشعبية. ولذا: ردا على ملاحظة محَتملة بأنني لم أقم بتجارب وورفية بنفسي، مما قد يشير ضمنا إلى أنني لو كنت قد فعلتُ لكنتُ وجدت دليلا على تأثير اللغة في الفكر، فإنني أوافق على ذلك بصدق. فالأدلة الموجودة في الدراسات واضحة

بحد ذاتها، بحيث أنه من غير الضروري بالنسبة لي أنْ أخرج وأكرر نتائجها مع لغات أخرى. فالعمل قد أُنجز.

إن اهتمامي متركز على المقتضيات التي يقال لنا أن نستخلصها من النتائج المعنيّة التي تتسم بأنها كّيسة ولكن خافتة. نعم، خافتة - فلعالم النفس أن ينشغل بها، ولكن المشكلة هي مسألة «رؤية العالم» هذه التي تروّج لمن هم منا خارجين في الظلام. ويمكن للمرء أن يبتهج بالتنوع فيما بين لغات العالم من دون أن يسند ذلك الابتهاج إلى كون طرق عمل كل واحدة منها تخلق عدسة مختلفة تجاه الحياة. لقد كانت حجتي أنه من الأفضل تجنب هذا الإطار المغري للذهن. فالعلم لا يدعم ذلك بالطريقة التي يذاع بها خارج البرج العاجي. وهو يستلزم رؤية للأشخاص الآخرين ينبغي أن تكون مريبة للجميع سواء داخل البرج العاجي أم خارجه. بالإضافة إلى أنها ليست ضرورية أبدا. فلقد كان عملي، مثل عمل ما لا يحصى من الآخرين، محاولة للتبيين لمن هو مهتم من البشر بأن اللغات رائعة بذاتها.

ويقال لنا أن ما تعلّمنا إياه اللغاتُ بشأن كوننا بشرا هو مدى اختلافنا. والحق أن الدرس الذي تعلمنا إياه اللغات هو أكثر تقدمية من ذلك - وهو أن اختلافاتنا تنوعات لكوننا متماثلين. وكثيرون سيعتبرون أن ذلك أمرا يستحق الاحتفاء[367].

(367) قارن الطريقة التي ختم بها المؤلف كتابه هنا، بالطريقة التي ختم بها غاي دويتشر مقاله الموجود في ملحق هذا الكتاب.

هوامش الفصل السادس

- كلام أبلي بشأن لغة الموهوك:

Mark Abley, Spoken Here: Travels Among Threatened Languages (Boston: Houghton Mifflin, 2003), 188–89.

- كلام ويلسون بشأن الروسية:

Lewis A. Dabney, Edmund Wilson: A Life in Literature (New York: Farrar, Straus & Giroux, 2005), 409.

- عن شعب « كاويسغار»:

Jack Hitt, "Say No More," New York Times, February 29, 2004.

- الضمائر العامة باعتبارها متحيزة جنسيا:

Megan M. Miller and Lorie E. James, "Is the Generic Pronoun He Still Comprehended as Excluding Women?" American Journal of Psychology 122 (2009): 483–96.

- عن لغة كواساتي:

Mary Haas, "Men and Women's Speech in Koasati," in Language in Culture and Society,

edited by Dell Hymes, 228–33 (New York: Harper & Row, 1964).

- عن لغة كوروخ:

Francis Ekka, "Men and Women"s Speech in Kurux," Linguistics 81 (1972): 21–31. Treatment of women in feminine-default languages: Dan Everett, Language: The Cultural Tool (New York: Pantheon, 2012), 209–10.

- عن اللغات الأسترالية والزمن:

Wade Davis, The World Until Yesterday, by Jared Diamond (book review), The Guardian, January 9, 2013.

- كلمة «get» في الإنجليزية:

Anna Wierzbicka, English: Meaning and Culture (Oxford: Oxford University Press, 2006), 171–203.

- اللغات التي تستخدم ما يشبه كلمة «get»:

N. J. Enfield, "On Genetic and Areal Linguistics in Mainland South-east Asia: Parallel Polyfunctionality of "Acquire,"" in Areal Diffusion and Genetic Inheritance, edited by Al-

exandra Y. Aikhenvald and R. M. W. Dixon, 255–90 (Oxford: Oxford University Press, 2001).

- الضمائر في اللغة الهاييتية:

Amy Wilentz, Farewell, Fred Voodoo (New York: Simon & Schuster, 2013), 82.

- كلام لايكوف موجود في كتابه:

George Lakoff, Don't Think of an Elephant: Know Your Values and Frame the Debate (White River Junction, VT: Chelsea Green Publishing, 2004).

- الكليات عند براون:

Donald E. Brown, Human Universals (Philadelphia: Temple University Press, 1991), 130–41.

- جملة لغة لاهو:

James A. Matisoff, "Lahu," in The Sino-Tibetan Languages, edited by Graham Thurgood and Randy J. LaPolla, 208–21 (London: Routledge, 2003), 219.

- فنانو ساراماكا:

Sally Price and Richard Price, Maroon Arts: Cultural Vitality in the African Diaspora (Boston: Beacon Press, 1999), 132-33.

- الخصيتان والشهور في لاهو:

James A. Matisoff, The Grammar of Lahu (Berkeley: University of California Press, 1973), 147-48.

مسرد المصطلحات

«عربي - إنجليزي»

أ	
Ethnography of communication	إثنوغرافيا التواصل
Subjunctive	احتمالي
Instrumentality	أداة
Definite article	أداة تعريف
Indefinite article	أداة تنكير
Indigenous	أصلي
Genitive	الإضافة (حالة إعرابية)
hypotheticality	افتراضية
Abessive	الافتقارية (حالة إعرابية)
Innumeracy	أمية عددية
Anthropology	إناسة

Allative	الانتحائية (حالة إعرابية)
Terminative	الانتهائية (حالة إعرابية)
Priming	إيراء
ت	
Ablative	التباعدية (حالة إعرابية)
Partitive	التبعيضية (حالة إعرابية)
Translative	التحولية (حالة إعرابية)
Empirical	تجربي
ح	
Linguistic determinism	الحتمية اللغوية
Illative	الحلولية (حالة إعرابية)
د	
Ethnosemantics	الدلاليات الإثنية
ر	
Formality	رسمانية
ز	
Tense	زمن نحوي

س	
Register	سجلّة
ص	
Elative	الصدورية (حالة إعرابية)
ظ	
Locative	الظرفية
ع	
Cognition	عرفان
ف	
Nominative	الفاعلية (حالة إعرابية)
ك	
Holistic	كلّاني
Essive	الكنهية (حالة إعرابية)
م	
hunter-gathers	المتصيدون اللّقَطة
Act sequence	متوالية العمل
Adessive	المحاذاة (حالة إعرابية)
Comitative	المعية (حالة إعرابية)

Slang	ملاحنة
Inessive	الموضعية (حالة إعرابية)
meme	ميم
ن	
Grammar	نحو
Linguistic relativity	النسبية اللغوية
و	
Evidential markers	واسمات التوثق
Neo-Whorfians	الوورفيون الجدد

مسرد المصطلحات

«إنجليزي - عربي»

A	
Abessive	الافتقارية (حالة إعرابية)
Ablative	التباعدية (حالة إعرابية)
Act sequence	متوالية العمل
Adessive	المحاذاة (حالة إعرابية)
Allative	الانتحائية (حالة إعرابية)
Anthropology	إناسة
C	
Cognition	عرفان
Comitative	المعية (حالة إعرابية)
D	
Definite article	أداة تعريف
E	
Elative	الصدورية (حالة إعرابية)

Empirical	تجريبي
Essive	الكنهية (حالة إعرابية)
Ethnography of communication	إثنوغرافيا التواصل
Ethnosemantics	الدلاليات الإثنية
Evidential markers	واسمات التوثق
F	
Formality	رسمانية
G	
Genitive	الإضافة (حالة إعرابية)
Grammar	نحو
H	
Holistic	كلّاني
hunter-gathers	المتصيدون اللَّقَطة
hypotheticality	افتراضية
I	
Indefinite article	الحلولية (حالة إعرابية)
Indigenous	أداة تنكير

Indigenous	أصلي
Inessive	الموضعية (حالة إعرابية)
Instrumentality	أداة
Innumeracy	أمية عددية
L	
Linguistic determinism	الحتمية اللغوية
Linguistic relativity	النسبية اللغوية
Locative	الظرفية
M	
meme	ميم
N	
Neo-Whorfians	الوورفيون الجدد
evitanimoN	الفاعلية (حالة إعرابية)
P	
Partitive	التبعيضية (حالة إعرابية)
Priming	إيراء
R	
Register	سجلّة

S	
Slang	ملاحنة
Subjunctive	احتمالي
T	
Tense	زمن نحوي
Terminative	الانتهائية (حالة إعرابية)
Translative	التحولية (حالة إعرابية)

كشاف الموضوعات



خدعة اللغة

الكتاب مخصص لمناقشة ما يسمى بـ «النسبية اللغوية»، أو «فرضية سابير - وورف»، أو كما يسميها المؤلف «الوورفية». وقوام هذا المذهب بتسمياته المختلفة هو أن اللغة التي يتحدثها الناس تؤثر في طريقة تفكيرهم، وكيفية رؤيتهم للعالم، وتحددها على نحو معين مشابه نوعا ما لما في لغاتهم من خصائص وسمات نحوية ومعجمية. وهذا الموضوع شائك، ومعقد جدا لأسباب كثيرة، منها ما يعود إلى تاريخ هذا المذهب نفسه وما مر به من مراحل وتطورات متباينة، ومنها ما يعود إلى طبيعة الموضوع الذي يتناوله هذا المذهب من ناحية ما تتضمنه علاقة اللغة بالتفكير من وجوه وأبعاد مختلفة ومتفاوتة.

ورغم أن الجميع يتفقون على أن الشكل الكلاسيكي للوورفية الذي يرى أن اللغة تمنع متحدثيها من التفكير بأشياء معينة لم يعد قائما، فإنه قد تجدد الاهتمام حديثا بصيغ مخففة من هذه الفرضية. ومن ذلك أن اللغة تغرس في أذهان متحدثيها عادات معينة تجعلهم جميعا يرون العالم بكيفية خاصة. ويبين المؤلف في هذا الكتاب أن هذا الادعاء لا يبتعد كثيرا عن الوورفية الكلاسيكية، ويحشد فيه الأدلة على بطلانها، وخطورتها، بالإضافة إلى تعليقات ذكية بشأن الأجواء الثقافية والفكرية التي تجعل مثل هذه الادعاءات محببة للجمهور، وتحظى برواج إعلامي كبير.







